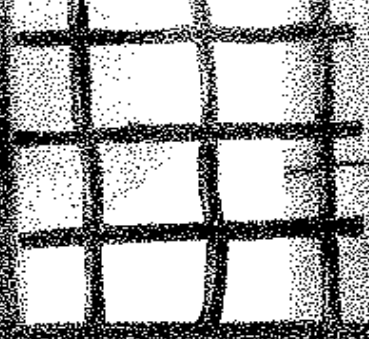


صفي الحاروي

السنة



رضي الخوك

صبار حنا

عبد الصمد شاهين

حكاية

صلاح عيسى

جمال العيطاني

صراع

عمور السعدني

الاسمين



Om



المركز القومي للمكتبات والارشاد

مفكرون وقضبان
حكايتى .. مع السجن

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م



طباعة • تجميع • توزيع
١٦ شارع ميدان بيروت - بيروت ٢٠٢٢ - ٢٠٢٢
٢٠٢٢ - ٢٠٢٢ - ٢٠٢٢ - ٢٠٢٢ - ٢٠٢٢ - ٢٠٢٢ - ٢٠٢٢ - ٢٠٢٢ - ٢٠٢٢ - ٢٠٢٢
AL DAR AL-MASRIYAH AL-LUBNANIYAH PRINTING -- PUBLISHING -- DISTRIBUTION
16 AHD EL MEJAZE SARWAT B. T.C. 2022 2022 2022 2022 2022 2022 2022 2022 2022 2022

حنفى المحلاوى

مفكرون وقضبان حكاييتى .. مع السجن

الحكاية الاولى: مصطفى أمين

الحكاية الثانية: محمود السعدنى

الحكاية الثالثة: د. عبد الصبور شاهين

الحكاية الرابعة: د. ميستلاد حسنا

الحكاية الخامسة: لطيفى الخسولى

الحكاية السادسة: جمال الفيظاننى

الحكاية السابعة: صلاح عيسى

الحكاية الثامنة: جمال بسوى

الحكاية التاسعة: مختار السويفى

الناشر
دار الصحف رتيرالديتانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ

(صدق الله العظيم)

(سورة يوسف)
جزء من الآية (٤٣)

مفكرون وقضبان:

حكاييتي مع السجن

كم مرة

دخلت فيها السجن ؟ !

رايت من حقى وقبل بداية رحلتنا داخل عقول المفكرين الذين هم ضيوف هذه الصفحات.. أن أتساءل .. (كم مرة؟). ولكننى سرعان ما أدركت خطأ السؤال .. الذى ربما ستكون الإجابة عليه خطأ أيضاً لأننى أعرف طبقاً للقواعد العامة أن مابنى على خطأ فهو خطأ .. ومع ذلك وجدت بداخل [إصراراً غريباً لتوجيه هذا السؤال .. رغم اقتناعى الكامل أنه سوف يثير فى النفس الشجون ، ويسترجع من اللاوعى الالم والفرع..

.. كم مرة دخل هذا المفكر أو ذاك السجن ؟ وعاش خلف القضبان ؟

والعبرة من الحصول على الإجابة لم يكن معرفة الزمن، أو المدة التى قضاها هناك أو هنا ، بقدر ماكانت الرغبة فى معرفة الكثير عن الماضى القريب . فكنت على يقين من أننى حين أوجه هذا السؤال على الرغم من ألفاظه التى لايعترف بها المفكر .. فسوف أحصل على القدر الكافى من خلاصة التجارب التى عاشها أو سجلها المفكر سجين القبضان .. الذى وجد نفسه بين لحظة وأخرى وسط عالم غريب .. ربما لم يتصوره مرة واحدة فى كتاباته وأفكاره ..

ولاشك أن الآلاف غيرى .. بل إن شئت قل الملايين الذين هم في شوق الآن .. يريدون أن يعرفوا الإجابة على السؤال .. والظروف التي واجهتنى نفسياً حين كنت ألقى به على ضيوفي عبر هذه الصفحات .

بداية .. وللأمانة وللتاريخ .. أسجل هنا .. وبقلمي .. أنني عبر رحلتي الطويلة التي استغرقت كل هذه الأوراق .. بعدما نقلت فوقها أحاسيس هؤلاء المفكرين، وسجلتها في جلسات طويلة .. قد شعرت أنهم أي المفكرون في حاجة مثلى إلى توصيل انطباعاتهم عما لا قوه في داخل السجون .. بالرغم من أن كل واحد منهم قد عبر عن فترة وجوده خلف القضبان بطرق شتى ، وبآلاف الصفحات .. وبألوان متعددة من أدوات الاتصال ما بين رواية أو قصة أو مسرحية وسيناريو فيلم وما بين كتاب مطبوع .

وكانت البداية دائماً .. عبر أسلاك التليفون .. ومن قبلها كنت أعيش لحظات تعيسة .. أبحث خلالها عن أرق الكلمات التي سوف تكون سبباً لإقناع محدثي على الخط الآخر بالموضوع وجديته .. ومن ثم الفوز بلقاء تتحاور فيه وندخل خلاله سوياً ولو للحظات إلى زنزانة .. وكثيراً ما أنجح .. وقليلاً ما أفلح .. وأنا كلى تقدير لهؤلاء الاعلام المفكرين الذين قبلوا أن يفتحوا لى قلوبهم وصدورهم .. ولم يصبني اليأس ، فتكرار المحاولة يعنى المزيد من الجدية .. والحمد لله .. اقتربت كثيراً من عالم هؤلاء العظماء الذين في غفلة من الزمان وضعوهم وراء القضبان مع نخبة من المجرمين والقتلة .. وتحدثنا كثيراً .. وعدت إلى نفسى مراراً أسأل عن المدخل والمخرج .. وأجرى وراء كل حرف أعيد سماعه من الشرائط العديدة التي سجلت عليها هذه الحوارات والتي هي خلاصة ما كتبت فوق هذه الأوراق .. مستعيناً بتلك الكتابات التي سطروها فوق أوراق دفنوها داخل كتب عديدة .. محاولاً أن أعيش الجو النفسى الذى كان يسيطر آنذاك على هذا المفكر أو ذاك .. لأننى أجلس الآن أمامهم بعد مرور عشرات السنين على هذه التجربة .. ومطلوب أن أسجل ما بداخلهم بأمانة وما أشعر به أنا أيضاً بأمانة .. وما سوف تشعرون أنتم به أيضاً .. وكان شاغلي الشاغل أن أحصل ولو حتى على عناوين هذه المؤلفات أو السطور التي كتبوها ولو فوق جدران الزنزانة ..

ومن أجل تأكيد منهجى في التفكير والكتابة والتعريف بضرورة أن يعيش المؤلف

لحظات الاخرين حين يكتب عنهم .. ماسمعتهم من أحدهم وهو يروى عن واقعة لمفكر
مصرى دخل السجن .. وأبعدوه في الواحات حيث الصحراء .. وجرده من كل شيء
حتى اسمه .. وحواسه إلى شيء يتحرك ويحمل رقماً .. هذا الفنان المفكر طبقاً لرواية
الراوي .. رغم أنه عاش حياة صعبة كلها تعذيب وتغريب فقد كان في أوقات فراغه يحن
إلى مايفكر فيه ويسعى جاهداً إلى أن يخرج فكره فناً مكتوباً أو مرسوماً.. ورغم عدم
وجود الأدوات التي تعينه على ذلك فقد استمر يحفر بأظافره فوق باب خشبي مهمل
ألقوه في فناء السجن .. ولما اكتشفوا حيلته .. بعد أن أكمل حفر اللوحة .. قذفوا بالباب
في النار .. واعتبروا أن ذلك هو آخر مطاف تقييد المفكر الفنان وحرمانه من أدوات
التوصيل التي اكتشفها هو رغماً عنهم .. ولم يصبه اليأس فقد لجأ إلى باب الزنزانة
نفسها .. ومع ليالي القمر وأهات التعذيب ودموع الفرح والضيق .. أخذ يحفر ويحفر ..
بأسنانه وأظافره وأخيراً .. وبعد سنوات تحول الباب إلى لوحة .. وتحولت جدران
السجن إلى متحف ..

وبعد سماع هذه القصة .. سعيت للقاء هذا المفكر الفنان .. لكنني عرفت أنه رحل عن
عالمنا .. وعلى أية حال لقد تعلمت منها الكثير وسعدت حين علمت أن باب الزنزانة
معروض الآن في أحد المعارض الفنية .



وكانت تلك هي المرحلة الأولى .. لقاء وأكثر من اتصال .. إقناع .. ثم حوار وتسجيل
ولقطات تذكارية .. وكلمات توجع العقل قبل القلب .. أما الشيء اللافت للنظر أنني في
كل لقاء مع مفكر عملاق .. كنت أشعر بأن واقعة السجن أو الحبس أو الاعتقال ..
بالنسبة له كانت واقعة بدأ مؤلماً ثم تحول إلى حلم جميل كانت تتخلله لحظات رعب بين
الحين والحين .. عندما تتدخل أدوات التعذيب ولكلمات الزبانية .. فقد اعتبرها معظمهم
فترة لإعادة الحسابات واختبار النفس .. وبداية الانطلاقة نحو التمسك بالفكرة والموت
من أجلها ، بل وكانت بالنسبة لبعض هؤلاء فرصة اللقاء والمحاورة والتأمل .. مع أنه
كان ينقصها أدوات التعبير من أوراق وأقلام .. تلك المشكلة التي نجح في التغلب عليها

المفكرون والفنانون الذين كانوا يعبرون عن واقعهم حتى بدماثهم ويستخدمون القش في رسم هذا الواقع .. كما كانوا يحضرون بأصابعهم وأسنانهم .. وأظافرهم على الجدران.

والسؤال الثانى الذى رأيت أن أعرف الإجابة عليه مثلكم .. هو (لماذا .. هؤلاء؟). لأن المعرفة وكما يقول أصحاب الفكر هى بداية الطريق نحو الفكر ، فما دمننا نريد أن نعرف فسوف نبحث .. ومادمننا نبحث سوف نعثر على الحقيقة أو لا نعثر عليها .. عندئذ تبدأ مرحلة التفكير حتى نستطيع أن نميز بين ماهو حقيقى وماهو غير حقيقى.. والمعرفة التى أقصدها محددة بكلمات السؤال .. وهى تختلف عن المعرفة المطلقة .. أو المعرفة التى ليس لها حدود .. والتى لها أسماء متعددة فى عالم الفلسفة والاقتصاد .. والتخصصات العلمية والأدبية الأخرى .

لكننى سرعان ماعدت مستدركاً كلمات السؤال .. قبل الوقوع فى الخطأ فكيف أسأل عن لماذا هؤلاء ؟ .. وأنا لم أبين من هم .. ؟ إذن علينا منذ هذه اللحظة .. أن نعرف ضيوف هذا الكتاب .. عددهم .. اتجاهاتهم .. أفكارهم .. الدور الذى لعبوه .. ميولهم السياسية والاجتماعية .. وليس المقصد أن نصنفهم .. فالفكر يرفض التصنيف .. بل علينا أن نتعقب خطواتهم وكلماتهم ولانبغى من وراء ذلك سوى أن نعيش معهم وبهم داخل الزنزانة أو خارجها .. نعرف كيف كانوا يفكرون ؟ .. وكيف كانوا بيننا رغم وجودهم هم داخل جدران سوداء وأسوار عالية ، وجراسات مشددة ؟ ..

لقد وقع اختيارى على مفكرين مصريين معاصرين .. مازالوا يمشون بيننا تاريخاً .. مكسوا باللحم والعظام القادرة على الحركة والتحمل رغم أن معظمهم بلغ من العمر عتياً .. أثروا حياتنا الفكرية فى مختلف نواحيها .. فمنهم الصحفيون والادباء والكتاب والعلماء .. وأساتذة الجامعة بدون تفرقة .. وكنت فى حيرة من أمرى حين قررت الاختيار . لأننى لاأبىد وأن أقع فى المحذور قبل أن أعيش الفكر معنى ولفظاً ودوراً .. وهذه قصة أخرى .. فقد تجاوزت حدود الأوراق وعشت لحظات طالت وقصرت من

أجل أن أبحث عن معنى الفكر ودور المفكر .. ووجدت ضالتي في قواميس اللغة ودوائر المعارف ، وعلى أفواه كبار مفكرينا هنا وهناك .. ولن أسوق ماعثرت عليه في هذا المجال .. إلا حين نستكمل سوياً بقية الإجابة على السؤال (لماذا هؤلاء ؟)

والاقتراب من مجال الإجابة على السؤال : لماذا هؤلاء بالذات ؟ سوف يدخل بنا في عالم التاريخ ويجعلنا نطوف داخل دروبه القديمة والمتوسطة والحديثة .. بحثاً عن المفكرين الذين عاشوا تجربة السجن أو النفي أو الاعتقال ولكننا آثرنا ألا نبتعد كثيراً .. لأن التاريخ بصفحاته الصفراء المتهالكة يحمل الوائناً من تجارب هؤلاء المفكرين الذين كانت تهمتهم الوحيدة أنهم كانوا يفكرون ويحلمون بواقع وحياة جديدة .. ولا هدف لهم في الحياة سوى الأخذ بيد أفراد مجتمعهم للسير نحو الأمام .. وكثيراً ما أدى بهم الخلاف مع رجال الحكم إلى غياهب السجون .. إن تجارب هؤلاء المفكرين تملأ آلاف من الكتب التي تعد سجلات تحمل علامات صفراء وحمراء وسوداء .. هي نقاط يتوقف عندها الزمن أسفاً وحرزناً .. لأن معنى أن تزج بالمفكر داخل السجون أنك تحرم المجتمع من أفكاره .. ولن أناقش هنا .. هل تكون هذه الأفكار ضد المجتمع أو معه .. لأن المفكر لا شاغل له فيما يفكر سوى تقديم عصارة فكره في ألوان من التعبير لصالح الجماعة .. إلا قليلاً .. فنادر ما تجد طائفة من هؤلاء يسعون إلى خراب المجتمعات .. إلا إذا وقعوا تحت وطأة الدعاية التي تلون أفكارهم وتلوثها .. ولا يحدث مثل ذلك إلا حينما يصطدم هؤلاء بالسلطة ورجال الحكم .. عندئذ يصورونهم شياطين بأجنحة وأنياب مصاصي الدماء ..

والصدام بين رجال الفكر وأصحاب المصلحة من رجال الحكم .. قديم قدم الإنسان على الأرض .. ولا يخلو عصر من العصور القديمة أو الحديثة من قصة أو قصص تروى لنا كيف كان مصير هؤلاء المفكرين الذين يحلمون بالتغيير والذي كان حتماً ينتهي بالموت حرقاً أو تعذيباً .. والتاريخ بصفحاته المتهالكة يحوى هذه الحكايات لمن يريد المزيد .. ولكننا سوف نتوقف عند ذكر المفكرين المصريين المعاصرين الذين رحلوا عن عالمنا .. ولم يبق لهم بيننا سوى كلماتهم وعصارة أفكارهم .. هؤلاء المفكرون الذين

عاشوا تجربة السجن والاعتقال .. وسوف نذكر بعضهم .. ولا يعاتبنا أحد إذا أغفلنا مفكراً منهم .. لأن ذلك بالفعل لن يكون عن عمد .. فأنا أقف منحنيًا لهؤلاء الذين حملوا مشاعل الفكر وأضاءوا بالكلمات أنوار الواقع والمستقبل .. ولكل منهم دوره البارز الذى لا يزال يعيش بيننا .. ويكفى أنهم قد ودعوا عيش الحياة الهادئة و نذروا أنفسهم وأقلامهم وعصارة أحلامهم لنا .. وللأجيال القادمة .

وسوف نحاول أن نرسم دائرة .. وبها أركان متعددة .. تلصق بكل ركن فيها اسم أحد هؤلاء الاعلام فى الفكر المصرى المعاصر .. الذين عاشوا تلك التجربة .. وقضوا أياماً وراء القضبان .. ولن يكون هناك ترتيب مسبق .. فإننى أعود وأكرر أن الفكر الحق .. لا يعنيه أن يكون فى المقدمة أو فى المؤخرة من حيث الترتيب .. لأن أعمال المفكرين دائماً تتقدم وتعلن عن نفسها حتى ولو حاولوا إخفاء أو طمس أعمالهم .

وبالحديث عن أسماء هؤلاء المفكرين الذين لم يسعدنا الحظ من أجل استضافتهم عبر صفحات هذا الكتاب مثل غيرهم من المفكرين الأحياء .. نكون قد أكملنا إجابة السؤال عن السبب الذى حدا بنا إلى هذا الاختيار .. فأنتم معى، أنتى كنت على حق ومازلت فى اعتقادى أن المفكرين الأحياء .. سوف يثرون التجربة ويضيفون إليها لقطات حية قد تكون غير حاضرة .. ونسوا تسجيلها داخل أوراقهم القليلة التى عبروا بها عن أيام القضبان .. أضاف إلى ذلك أن اللقاء مع هؤلاء المفكرين الأحياء .. أضاف عنصر الحيوية الذى نتج عن الحوار المتواصل .. والفرق شاسع بين أن نتعامل مع كلمات مكتوبة صماء .. وبين أن نتعامل مع أصحاب هذه الكلمات وجهاً لوجه .. وبمجرد أن نذكر أسماء مفكرينا الذين رحلوا عن عالمنا .. سوف نشعر بالفرق .. ليس من حيث القيمة والهدف والمعلومة أو الفكرة .. ولكن من حيث الحيوية التى تنبض بها كلمات هؤلاء، فإذا ما وضعت أصبعك على كلمة لفكر لا يزال يعيش بيننا .. حتماً سوف تشعر بأن الدماء لا تزال تجرى فى حروفها .. والعكس صحيح .. فكلمات غير هؤلاء تجدها باردة .. حيث تجمد الدم فى حروفها ولا تنقل أنها قد ماتت ، فالأفكار ووسيلتها الكلمة لاتموت أبداً .. ولكن ربما يتغير مفهومها .. ومع ذلك تظل نفس الكلمة نابضة بما فيها من فكرة .

لقد أخذتنا الشجون بعيداً .. عن ذكر أساتذتنا من المفكرين الذين رحلوا عن عالمنا .. وحتى لانتهم بداء النسيان الآن .. علينا ذكر أسمائهم مع الإجلال والتقدير .. لأن أعظم ما في الحياة هي الكلمة الطيبة ومصدرها الفكر .. فالكلمة الطيبة أبداً لا تكون فارغة .. بل هادفة . ويأتي في مقدمة هؤلاء المفكرين المعاصرين .. الذين عاشوا تجربة الغربية داخل جدران السجون ووقفوا ساعات طويلة بالليل والنهار خلف القضبان الحديدية عباس محمود العقاد .. الدكتور لويس عوض .. الدكتور يوسف إدريس .. سيد قطب .. الشيخ حسن البنا .. توفيق دياب .. الكاتب الصحفي محمد التابعي وآخرون ..



ومن الأمور الإجرائية التي صادفتني وأنا أتحدث عن تجربة سجين الفكر .. هو كثرة ترديد عدة ألفاظ .. تصب جميعها في معنى واحد هو تقييد حرية الفكر .. فكثيراً ما سمعت الألفاظ مثل «الاعتقال» «التحفظ» «السجن» .. وكلها تدور في فلك واحد .. أقصد أنها تؤدي إلى نتيجة واحدة مؤداها أن يتم إبعاد المفكر عن واقعه .. وحرمانه من الحرية والحياة وأدوات التعبير أيضاً .. واستخدامي لكلمة الأمور الجنائية .. هي بالطبع في محلها .. لأنني أتحدث بالفعل عن إجراءات قانونية تصاحب عادة الزج بالمفكر وراء القضبان .

ولكن إذا ما فتحنا المجال لتحديث القانون وإجراءاته .. فلن نسعفنا هذه الصفحات البقلية .. لذا سوف نمس هذا الموضوع مساً سريعاً .. حتى تكتمل وظيفة المعرفة لدينا .. ونكون قد وفينا المفكرين حقوقهم .. وإلا كيف نتحدث عن السجن والقضبان ولا نتحدث عما يصاحبها من إجراءات ..

تقول كتب القانون الجنائي .. إن السجن يعني إحدى العقوبات المحكوم بها في الجنايات مثل الإعدام والأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة .. أما الحبس فهو إحدى العقوبات المحكوم بها في الجنح .. بالإضافة إلى الغرامة التي لا تزيد على مائة جنيه .

وبالتالي السجن والحبس يعنيان في أصولهما تقييد الحرية .. إلا أن السجن يعد درجة أشد من حيث نوع العقوبة وطريقة المعاملة .. لأن السجن في العادة يرتبط

بالاشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة .. ويكون ذلك في الليمانات إلا إذا كان أقل من ثلاث سنوات ..

كما أن السجن والحبس بالإضافة إلى ذلك هما عقوبتان مرتبطتان بحكم قضائى صادر عن قاضى المحكمة ومشمول بالنفاذ.

بخلاف ذلك هناك مايسمى قانوناً بالتحفظ أو الاعتقال ، وهو إجراء يسبق المثول أمام المحكمة تقوم به جهة الضبط الممثلة في رجال الشرطة لضمان عدم هروب المتهم ، وعادة لايجوز أن تزيد مدة التحفظ هذه على ٤٨ ساعة .. وهو مايسميه المشرع في القانون الجنائى «بالقبض» أما في القانون العسكرى فإن مدة التحفظ بالنسبة للعسكريين لايجوز أن تزيد على عشرة أيام ..

أما من حيث أهمية اتخاذ مثل هذا الإجراء وفقاً للقانون الجنائى .. فهى مجرد مجموعة احتياطات الهدف منها التحقق من شخصية المتهم .. ويجوز فيها حجز المتهمين ووضعهم في مكان أمين تحت تصرف رجال الشرطة ..

وهناك أيضاً مايسمى في القانون بالحبس الاحتياطى .. وهو إجراء يتم تنفيذه أو اتخاذه بعد مثول المتهم أمام المحكمة .. وهو قد يطول لشهور وتختلف فيه الجريمة الجنائية عن الجرائم العسكارية .. والمهم يجب ألا تطول مدة الحبس الاحتياطى عن ستة أشهر ، ويكون السبب في ذلك راجعاً إلى الخوف من التأثير على أدلة الجريمة أو الخوف من الانتقام من المجرم نفسه أو منه على غيره .. وأخيراً ضمان سير التحقيق ..

وإذا ماعدنا من جديد إلى الفكر وجرائم المفكرين إن جاز هذا التعبير قانوناً .. وجدنا أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين مفهوم الحرية .. ومفهوم الفكر .. الأمر الذى جعل الكثير منا يربط بين المفهومين لغوياً .. فكثيراً ما نسمع ونقرأ في بعض الكتب «الحرية الفكرية» أو «حرية الفكر» .. رغم أن هناك اختلافاً كبيراً معنى ولفظاً بين الكلمتين .. وإن كان هناك ارتباط وثيق بين وظيفتيهما داخل المجتمع .. الأمر الذى جعلنى أحاول أن أتمس هذه الفروق .. حتى تكون الفائدة مكتملة خاصة بعدما تناولنا هذه التفرقة فيما يسمى بـ «السجن» أو «الحبس» أو «الاعتقال» .. رغم أن الهدف منها واحد وهو تقييد حرية الإنسان ..

وبالنسبة لدلول الحرية .. وكما يقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم محفوظ : هي كلمة أرق من أن تكتب على ورق ، وأظهر من أن تنطق من ثنايا شفقتين ، رغم أنها كانت ومازالت سبباً في كثير من الأحداث والثورات والصراعات على مر العصور .. فكم قاست شعوب وقهرت من أجل الحرية .. وكم ضحت أمم ودمرت دول من أجل الحرية .. وكم قاسى مظلوم وعذب سجين ومات برئء من أجل الحرية .. وقد تبارى آلاف من الفلاسفة منذ فجر التاريخ في تعريف هذه الكلمة .. ووضع المفاهيم لها .. وكانت كلها تصب في معنى واحد وهو أن الحرية ليست مجرد «أمنية» ، وإنما هي «إرادة» .. وبالتأسيس على ذلك تتأثر الحرية بالإمكانات المتاحة للإنسان ، فكلما تدعمت إمكاناته المادية والمعنوية كلما زادت حريرته .. وعلى ذلك فإن الحرية المطلقة لاوجود لها .. ولا يمكن أن يكون الإنسان حراً في جميع الأوقات بشكل مطلق .. لان الحرية يحدها النظام ..

ومع عدم تحديد معيار واضح ودقيق لمفهوم الحرية فقد اختلف الفلاسفة وعلماء السياسة ورجالها وفقهاؤها في تحديد هذا المفهوم .

ويجرنا هذا الحديث إلى ضرورة معرفة أنواع الحريات التي ترتبط بحياة الإنسان داخل مجتمعه .. وإن كانت تختلف من مجتمع لآخر .. ومن عصر لآخر ، رغم أن الفقهاء استطاعوا أن يحددوا أنواع الحريات العامة وحصرها في عدة أنواع هي : الحريات والحقوق التقليدية ، والحريات الاجتماعية ، والحريات والحقوق الاقتصادية ، وأخيراً الحريات والحقوق الفكرية ، أو بمعنى آخر هناك الحريات المادية التي تمثلها حريات الأمن والتملك وحرية المسكن ، وكذلك حرية العمل .. وهناك أيضاً حريات معنوية مثل حرية العقيدة والاجتماع والتعليم والصحافة .. وكلها تصب في إطار نطلق عليه «حرية الفكر» وهذا هو مانعني ونرمي إليه من هذه الدراسة .. لأنها ترتبط بموضوعنا الذي هو مادتنا الأساسية في هذا الكتاب .. ولأنه من الضروري بيان هذه الحرية ومواصفاتها .. حتى نستطيع أن نلتمس الفروق الكبيرة بين مايقوم به المفكر ودوره في المجتمع وبين مايقوم به اللصوص والمجرمون من جانب آخر وفقاً لنظرة القوانين .. ومدلول الحرية .. وقبل أن نعيش هذه التفرقة نود أن نبين أولاً ماهية الفكر .. وتعريفه وأهميته ودوره في المجتمع .. وسنبيننا إلى ذلك قواميس اللغة العربية وبعض المعلومات التي عثرنا عليها في دوائر المعرفة ..

* * في القاموس .. وتحت حرف «الفاء» نجد أن الفكر جمعها أفكار .. ومعناه تردد
الخاطر بالتأمل والتدبر لطلب المعاني .. وشارد الفكر يعنى غافل وساه .. والفكرة تعنى
إعمال الخاطر في الأمر ..

* * في دوائر المعارف .. تحت كلمة «فكر» : نجد المعنى يقول : الفكر والتفكير
والتفكير هو التأمل .. ورجل فكير أى كثير التفكير .. والتفكير من أبحاث علم النفس وهو
عملية عقلية نزوعية تهدف إلى الوصول إلى حقيقة مجهولة كحل مشكلة من المشاكل
التي تعترض الإنسان .. لهذا كان التفكير من الصفات التي ينفرد بها الإنسان لأن
التفكير يحتاج إلى استجماع لتجارب ماضية وإدراك العلاقات بينها في ضوء حقيقة
ماثلة أمام الأفراد .. فكل عملية تفكير هي في الحقيقة استخلاص حقيقة جديدة من ثانيا
حقيقة قديمة أو جملة حقائق وقد يكون التفكير إلى جانب ذلك في صورة تفسير مجموعة
من الحقائق المشابهة وهو ما يعرف بالاستنباط تمييزاً له عن القياس .. إن التفكير في
جميع صورته ما هو إلا محاولة العقل لحل مشكلة من المشاكل التي تواجهه ..

وقد اقترب مفهوم التفكير لدى الدكتور زكي نجيب محمود من هذا المعنى كثيراً ..
حيث يرى شيخ الفلاسفة المصريين والعرب في العصر الحديث أن التفكير هو عملية
ذهنية ترسم بها خريطة العمل المؤدى إلى تحقيق هدف ما ، وبعد ذلك فلتتنوع الأهداف
ماشاء لها صاحبها أن تتنوع ، لكنها جميعاً تلتقى عند هذا الأصل .. أو بمعنى آخر كما
يقول الدكتور عبد المنعم محفوظ في كتابه «علاقة الفرد بالسلطة» : إن عملية التفكير
تقتضى من رجل الفكر أن يرسم لفكره هذا خريطة على هداها من أجل الوصول إلى
هدف منشود .. وفي حالة تدخل رجال السلطة لإضافة ملامح لهذه الخريطة أو حذف
بعض معالمها ، كان ذلك بمثابة تدخل سافر من أجل ألا يبلغ الفكر الغاية التي
يستهدفها ، وحين نتحدث عن جانب من جوانب المنهج العلمى في التفكير باعتباره جانباً
بالغ الأهمية .. نجد أن كل تفكير منهجى مهما كان موضوعه لا بد وأن يبدأ من أساس
يوضع وضعاً .. وهذا يدل دلالة واضحة على أن حركة الفكر ديناميكية ولا تبدأ أبداً من
فراغ ..

* * *

ولن ندخل في تفاصيل ما يتعلق بموقف الفلاسفة من الفكر باعتباره أساس وجود

الإنسان فوق الأرض ، ونظرتهم لهذه الأصناف من البشر الذين يحملون هذه المهمة الشاقة فوق أكتفاهم لصالح المجموع قبل صالح الفرد أو صالحهم الشخصي .. ويمكن القول بأن فيلسوفاً عظيماً هو «كانت» قد قال عبارته المشهورة : «أنا أفكر إذن أنا موجود» .. وبالتالي فقد نفى صفة الوجود لهؤلاء البشر الذين لا يفكرون .. لأن العبرة من وجهة نظره أن يعيش الإنسان بالعقل قبل الجسد ..

وليست الفلسفة هي وحدها التي نادى بضرورة أن يكون الإنسان مفكراً بل قبل الفلسفة جاءت الأديان السماوية التي عظمت تفكير الإنسان .. وجعلته الطريق الحقيقي للوصول إلى الحقيقة ..

هذا باختصار هو مضمون الفكر ومدلولات الحرية .. باعتبار وجود علاقة تواصل وتفاعل بينهما .. وبقي لنا أن نتحدث عن حرية الفكر من حيث التوصيف القانوني والدستوري وهو موضوع يطول الحديث فيه .. حيث تناولته العديد من المؤلفات وتصدى له أساتذة وفقهاء القانون في مصر وفي غيرها من الدول الأوروبية .. ولكننا سوف نحاول إيجاز القول حتى نعرف موقع هذه الحرية بشقيها داخل المجتمع .. وموقف سلطة الدولة منها .. أو بمعنى آخر معرفة مآثره الحريات من تأثيرات في مواجهة الآخرين .. وفي مواجهة السلطة العامة ..

والحديث القادم يستند على القاعدة التي تقول : إن الفكر يختمر في عقل الإنسان ثم يخرج من إبطه الداخلى إلى المجتمع الذى نعيش فيه وأن الأفكار تتجسد في قدرة الإنسان على التعبير عن ذاته .. وهو ما يسميه رجال القانون بالقدرة على التقرير الذى يقوم على الاختيار .. وعادة ما ينعدم هذا التقرير إذا حرم الإنسان من حق الاختيار أو وسيلة التعبير .. ثم إذا فرض عليه مضمون هذا الاختيار رغماً عنه ..

وحرية الفكر مثل غيرها من الحريات الأخرى لا بد وأن تتجسد في الممارسة لأنها تبدأ بتكوين الفكرة ثم الإقدام على ممارستها أى تنفيذها .. ووفقاً لهذا المفهوم ، وكما يقول الدكتور محفوظ ، فقد تضمنت كل مواثيق الحرية والدساتير في الدول المعاصرة النص على حرية الفكر .. أيا كانت فلسفات هذا الحكم .. وقد لاحظ فقهاء القانون صعوبة تصنيف حرية الفكر ووضع ضوابط محددة لها .. والسبب في ذلك يرجع إلى

التداخل بين الخطوات والمراحل التي تمر بها الفكرة .. كما يعود من جانب آخر إلى الخلط بين الفكر والرأى والعقيدة ، وصعوبة تحديد ضوابط ومعايير التفرقة فيما بينهم..

ورغم ذلك .. فقد وضعت تصنيفات متعددة لهذه الحرية نذكر منها : حرية الرأى وحرية العقيدة وحرية الصحافة وحرية التعليم .. وكذلك حرية المسرح والسينما .. إلا أن حرية الرأى تعتبر في المقام الأول .. ويعدها الفلاسفة أهم هذه التصنيفات لأنها تمثل العمود الفقري للأنواع الأخرى .. والسبيل على ذلك أن «الإعلان العالمى لحقوق الإنسان» الذى صدر عن هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ قد نص في المادة «١٩» : أن لكل إنسان الحق في حرية الرأى وحرية التعبير بما يتضمنه ذلك من حرية اعتناق الآراء بآمن من.. وكذلك حرية طلب الحصول على المعلومات والأفكار وتلقيها وإذاعتها بمختلف الوسائل دون التقييد بحدود الدولة ..

والشئ اللافت للنظر .. وكما تقول كتب القانون .. إن حرية الرأى هذه مازالت تعد من أكثر الحريات التي أثير حولها الجدل داخلياً والسبب في ذلك ربما يرجع إلى مايمكن أن تثيره هذه الحرية من هزات اجتماعية عندما تتدخل السلطة لدى من يمارسها ..

وفي الواقع .. وبعبداً عن النصوص المكتوبة .. اتضح أن العبرة ليست بتدوين هذه النصوص في كتب والتزين بها .. تلك التي تتحدث عن هذه الحرية بالذات .. سواء على المستوى العالمى أو مستوى كل دولة .. وإنما اتضح أن الأهم من هذه النصوص المدونة وتلك الدساتير والمواثيق هو القدرة على الممارسة التي تعنى الإقدام على استخدام هذا النوع من الحرية .. وفي الوسائل النفسية قبل المادية التي توفرها الدولة . والقدرة على الممارسة هنا بمعناها العملى تعنى الشجاعة التي يقوم بها الفرد على ممارسة حريات فكره .. وعلى وجه الخصوص حرية رأيه في مواجهة السلطة العامة ..

وخلاصة القول لقد .. اتضح أن حرية الرأى .. وموقف السلطات من المفكرين عبر العصور قد جعلت الدول المعاصرة تتدخل بالتشريع لتنظيمها ووضع الحدود لها .. وكذلك ضوابط ممارستها .. ولكن كيف يتم ذلك ؟ .. يؤكد الفلاسفة ورجال القانون وفقهاؤه أن دور الدولة يتجسد في دور السلطة العامة .. لأن هدفها هو تحقيق النظام

العام في الظروف العادية .. وقد اصطلح على تسمية هذا الدور قانوناً بـ «الضبط الإداري» .. وهو عبارة عن مجموع ما تفرضه السلطة العامة من أوامر ونواه وتوجيهات ملزمة للأفراد بغرض تنظيم الحريات لصيانة النظام العام في المجتمع .. ومدلول كلمة «الضبط الإداري» في فقه القانون يقوم على فكرة اختصاص السلطة العامة في أن تفرض على الأفراد قيوداً تحد بها من ممارسة حرياتهم .. ويستمد النظام العام الذي يطبق هذا المفهوم قوته من ثلاثة عناصر هي : الأمن العام ، والسكينة ، والصحة العامة .. وعادة ما تلجأ الدول إلى العديد من الوسائل لتحقيق هذا النظام الذي يكون ضحيته في المقام الأول حرية الفكر ..

في بداية رحلتنا مع هذه الكلمات تساءلنا كثيراً .. واتخذنا العنوان من عدد المرات التي دخل فيها المفكر السجن .. ورأينا أن خير ختام لجولتنا عبر هذا الفصل هو تسجيل احساسيس هؤلاء المفكرين لحظة الخروج من وراء القضبان .. والاستعداد للرحيل بعد الإفراج .. لاننا عرفنا مسبقاً .. أنه في الغالب يتم القبض على المفكر وإيداعه السجن دون علم مسبق منه .. كما أن الاعتقال أو الخروج .. يتوقف على حالات متنوعة وأوامر غيابية في غالبية الأحيان تصدر من فوق .. وسبق أن قدمنا جولة قصيرة داخل عقل فقهاء القانون أوضحنا فيها هذه المفاهيم .. المهم الآن أن نسجل لكم هذه الاحساسيس من واقع كلمات كتبها عملاق الأدب العربي عباس محمود العقاد .. الذي ألف كتاباً حكى لنا فيه عن تجربة السجن في حياته كرجل إنساني .. وكمفكر إنساني أيضاً ..

يقول العقاد في كتابه «عالم السدود والقيود» الذي نشره عام ١٩٢٧ (يوم الإفراج ، أو يوم، البعث والنشور .. أو يوم الحرية .. أسماء كثيرة يسمى بها يوم الخروج من السجن ، والناس يحسبونه أسعد أيام المسجون لأنه اليوم الذي ينتظره مئات أو الوف الأيام .. ويحسبون أن المسجون إذا قارب فجره تغتمض عيناه سروراً ببقياه ، وأوشك أن يطير فرحاً بالوصول إليه .. ويظل السجين ينتظره ويطل انتظاره بالأشهر والأسابيع وتأمله من كل جانب ويحسب المسافة بينه وبين الأشهر والأسابيع والأيام والساعات .. ولا يفكر في شيء غير هذا التفكير .. حتى إذا جاء اليوم الموعود إذا

بالسجين يراه كأنما وجه قديم طائنا رآه وأد من النظر إليه .. فهو منظر من مناظر
الماضى السحيق وليس بمنظر طريف ولا بموعده جديد .. (هذا عن إحساس الرجل
العام الذى لا يعيش الفكر .. فما بالك بإحساس العقاد المفكر .. الذى يقول عن نفسه :
(جاءنى مأمور السجن عصر اليوم الذى سأغادر فى غده .. وقال لى إنه لا يعلم فى أى
ساعة سيكون الإفراج ، فيحسن بى أن أكون على استعداد للخروج منذ الصباح الباكر ،
وأنه سيرسل لى الحلاق ليحلق رأسى ولحيتى التى مضت عليها ثلاثة أيام .. ولا يحب
رجال السجن أن يخرج السجن من عندهم فى هذا الحال .. لأن رؤية اللحية الطويلة
تلقى فى الروع أن السجن خارج من مكان يكثر فيه الإهمال وتقل فيه النظافة والنظام)

** ترى هل هذه الصورة مازالت على ماهى عليه .. بعد مرور أكثر من خمسين
عاماً .. أم تغيرت .. ؟ .. وكيف عاش مفكرو مصر فى السنوات العشرين الأخيرة خلف
هذه الجدران .. هذه الأسئلة وغيرها .. هى موضوع كتابنا الذى بين يديك ..

حنفى المحلاوى

الحكاية الأولى يرويها مصطفى أمين :

تزعمت عصاة من المساجين لتهريب الورق والقلم !!

لم أصدق حين قال لي أستاذنا الكاتب الصحفي «مصطفى أمين» أنه كان زعيماً لعصابة داخل السجن ..

ولكن وقبل أن تدور الكلمات برأسي وتأخذني علامات التعجب بعيداً عما يقصده .. أضاف بقوله بالفعل كنت زعيماً لعصابة من المساجين .. تعبت كثيراً في تكوينها .. والسبب يرجع إلى إدارة السجن نفسها التي جاءت أوامر عليا .. لحرمانى من الورق والقلم .. حتى ورق التواليت ممنوعه عنى حتى لا أستخدمه في الكتابة ..

لحظات صمت .. حسبته خلالها .. يكتب مقدمة مشوقة لحديث طويل .. واعتبرت كلماته السابقة .. بداية ساخنة لهذه المقدمة .. ولكننى وبالرجوع إلى الكتب الكثيرة التي كتبها في السجن رغم هذا الحصار .. والتي نكرها لي أثناء الحوار .. اكتشفت فعلاً أن الكاتب الكبير مصطفى أمين قد نجح إلى حد بعيد في تكوين هذه العصابة التي فشلت إدارة السجن لسنوات طويلة في الكشف عنها ..

يقول «مصطفى أمين» في أحد هذه الكتب :

القلم ممنوع .. الورق ممنوع .. الحبر ممنوع ..

لقد تنقلت بين عدة سجون .. وفي كل السجون والمعتقلات التي دخلتها كان يقال لي إن القلم ممنوع والورق ممنوع .. والحبر ممنوع .. وبلغ الأمر بمأمور طوره أن منع دخول ورق التواليت خشية أن أكتب عليه .. وفي بعض هذه السجون كانت الكتابة ممنوعة على الإطلاق .. وفي سجن ليمان طوره مثلاً كانت الأوامر والتعليمات التي

أصدرها وزير الداخلية آنذاك بشأن معاملتي .. الا يوضع ورق أو حجر أو قلم في زنتانتي .. وأن أضعها في مكتب ضابط العنبر ، وأن أكتب إلى أسرتي مرتين في كل شهر ، وألا يزيد كل خطاب على نصف ورقة كراس ، وأن أكتب بالخطاب في مكتب الضابط وفي وجوده ..

وكنت مسجوناً نموذجياً ، أطيع الأوامر والتعليمات مهما كانت سخيفة وجائرة .. وكل تعليمات السجن سخيفة وجائرة .. ولكن التعليمات الوحيدة التي قررت أن أثور عليها وأخالفها هي الخاصة بعدم الكتابة ، وذلك لأن الكتابة بالنسبة للكاتب أشبه بالتنفس ، وكان معنى هذه التعليمات الجائرة أن أتنفس مرتين في الشهر ..

وبدأت بمعاونة عدد من زملائي المسجونين عملية تهريب الورق والقلم ، ثم عملية تهريب الرسائل إلى أخى علي أمين في لندن وسعيد فريحة في بيروت .. كانت عملية خطيرة وشاقسة ومستحيلة .. وكان الذين يقومون بها يعرضون حياتهم للخطر ومستقبلهم للضياع .. ولكن الرجال الشجعان الذين قاموا بهذه المهام الخطرة من أجل ومن أجل عدد من المسجونين السياسيين لم يخافوا أبداً .. لقد استطعت خلال تسع سنوات أن أهرب إلى خارج السجن تسعة آلاف رسالة .. واستطاعت هذه الرسائل كلها أن تخترق الحصار المضروب وأن تقتحم كل القيود المفروضة .. ولم تضبط رسالة واحدة ..

وحيثما نتوقف عند كلمات مصطفى أمين وامتداحاته فيما يتعلق بتكوين هذه العصاية الغريبة التي وصف أفرادها بالرجال الشجعان الشهداء .. نكتشف قيمة الورق والقلم .. حتى ولو كانت قصاصات بالية .. وأقلام بلا أسنان أو أحبار .. كما نكتشف قيمة الرجال في الشدائد .. وإلا فكيف يتحول الكاتب والمفكر ومن حوله من زملاء الزنزانة إلى أفراد عصاية تقوم بعمل نادر .. لا لتحرير الذهب والناس والأموال .. بل لتحرير الورق والقلم ..

وقبل الدخول في تفاصيل الدور الذي كانت تقوم به عصاية مصطفى أمين ، وكيف تكونت ، ومن هم أفرادها .. وكيف استطاعوا اختراق حصار هذه السجون المنيعه .. تعالوا .. نبدأ الحوار الذي دار بيني وبين المفكر الكبير مصطفى أمين الذي استغرق

تسعين دقيقة في مكتبه في أخبار اليوم .. بعد خروجه من السجن وعودته إلى الحياة الصحفية والفكرية بأكثر من عشرين عاماً ..

في مثل هذه الظروف .. تبدأ أولى خطوات المرحلة في مكتب السكرتير الخاص الذي تفضل مشكوراً بالاتصال بالفكر الكبير وحدد لنا موعداً معه .. وقصور علمي بالمعهد الذي حدده أعددت كل شيء .. الورق والقلم والأخبار .. جهاز التسجيل .. وعيون الكاميرا .. وشيئاً آخر مهماً جداً .. هو الاستعداد النفسي لمجابهة العملاق ، ودعوات في صدري من أجل أن يطول الحوار ساعات طويلة ..

وقبل الاستغراق الذاتي لتحديد معالم هذا الحوار الذي أعددت عناصره مسبقاً .. انطلق مدير مكتبه بأدب : تفضل .. مصطفى بك في انتظارك ..

وعلى بعد خطوات .. طرقت الباب برفق .. ودخلت .. صحيح أنها لم تكن المقابلة الأولى بين كاتب هذه السطور وبين مصطفى أمين .. إلا أنني شعرت وكأنما أراه لأول مرة .. وقبل أن يزحف التراجع إلى نفسي .. بادرنى بالتحية .. وكأنما قرأ ما يدور في ذهني .. خاصة أنني جئت إليه هذه المرة .. أذكره بهوم ماضية ، والأيام السوداء التي قضاها خلف القضبان ..

وجاءت ابتسامته .. التي عبرت عن فرحه بهذا اللقاء .. بداية طيبة لي حتى أستكين .. وأركز وأحدد بداية الحوار ..

وجلست أمام مكتبه البيضواوي الضخم .. أتطلع إلى كيانه الكبير، ورأسه التي هي مصدر كل همومه ومشاكله .. ومن بين أسناني .. خرجت أولى كلمات الحوار ..

*** نبتدى يا فندم ؟ ..**

.. اتفضل ..

ومن قبلها .. أعطيت إشارة البدء لجهاز التسجيل .. واستعد المصور بآلاته .. وانسابت الكلمات في هدوء .. أنا أسأل .. وهو يجيب ..

*** كم مرة دخل فيها الكاتب الصحفي والفكر الكبير مصطفى أمين السجن؟**

وقبل أن يجيب بصراحته المعهودة .. استدركت الكلمات .. لأنني أحسست أنها

عبارة قاسية مغلفة في كلمات أحسست من وقعها وكاننى ساويت بين المفكر الكبير وبين غيره من عتاة الإجرام .. لذا وجدتنى أعيد السؤال في صيغة أخرى رأيت أنها أكثر تهديباً وتليق بالمفكر والمفكرين ..

*** عفواً أستاذى .. هل تعرضتم لأى نوع من أنواع العقوبات .. قبل تجربة السجن الأخيرة ؟ .. في عهد الرئيس عبد الناصر ..؟**

- لقد قبض على عدة مرات .. لكنها كانت عقوبات بسيطة .. ففى عام ١٩٢٨ (أوقفت التسجيل .. حتى يتمكن الأستاذ من الرد على مكالمة تليفونية خاصة) .. ومن بعدها أخذ الكاتب الصحفى مصطفى أمين يروى لى قصته مع القضاة .. وأخذ يحيطنى بأسرار ربما يذيعها لأول مرة .. وحتى لانقطع تسلسل الكلمات وأفكار الأستاذ .. سوف أنقل لكم تفاصيل هذا الحوار .. بدون تدخل من كاتب هذه السطور لا بالاستئذان ولا بالتعليق ..

في عام ١٩٢٨ .. كانت بداية تعامل مع السجن ، وما نطلق عليه الآن «الحجز» حيث قبض على أنا وأخى المرحوم على أمين لأننا كنا نهتف في محطة مصر ضد الدكتاتور محمد محمود باشا .. ووضعنا في السجن ثلاثة أيام .. ثم أفرج عنا ..

ومرة أخرى قبض على وأنا عندى ١٦ سنة .. وكنت أيامها طالباً في الخديوية الثانوية .. حيث نظمت إضراباً في المدارس من أجل إلغاء الدستور ويومها دخلت السجن ومكثت فيه ثلاثة أيام ، واعتبرتها وقتها عقوبة قاسية جداً .

وابتداء من عام ١٩٥٠ وحتى قبيل قيام الثورة ، تم إلقاء القبض على ٢٦ مرة .. أثناء عملي الصحفى .. حيث كانوا يلقبون القبض على فى الصباح بتهمة نشر أخبار صحفية ضد الحكومة .. واستمر فى الحجز .. وفى المساء يتم عرضى على القاضى الذى يأمر بالإفراج عنى فوراً ، وبكفالة فى نفس اليوم .. وأنا أذكر أن مجموع المبالغ التى دفعتها فى الكفالات خلال هذه الفترة التى ذكرتها أكثر من ألف وثلاثمائة جنيه .. ولا تنس أن هذا المبلغ كان عام ١٩٥٠ ، والفرق فى قيمة العملة بين الامس واليوم معروف .. لأننى كنت أدفع فى المرة الواحدة كفالة ٥٠ جنيهاً .. والشىء المضحك والمبكى فى أن واحد .. أن الثورة حين قامت وعلم عبد الناصر بهذه الغرامات .. أعاد إلى مبلغ ألف جنيه من قيمة هذه الكفالات ..

على أن أهم رحلة كانت لي عبر السجون .. تلك الفترة الأخيرة التي حدثت في بداية الستينات في عصر جمال عبد الناصر .. وأنكر تفاصيلها تماماً .. وقد سجلتها في أكثر من كتاب صدر لي لأنها فترة كانت صعبة إذ ارتبطت في ذهني بعدة صور كان أهمها صورة التعذيب البدني البشع الذي نالني على أيدي رجال السجن الحربي آنذاك ..

وأنكر أنهم حين جاءوا للقبض علي في عام ١٩٦٥، في منزلي بالاسكندرية ورأيت الحرس يملأون حديقة المنزل ، تصورت أن الرئيس جمال عبد الناصر قد حضر لزيارتي .. ثم تصورت بعد ذلك أنه حدث انقلاب ، وأن رجال الانقلاب الجدد جاءوا يقيضون علي ، لأنني واحد من المتصلين بالرئيس عبد الناصر ..

وعندما تبينت الحقيقة تصورت أن عملية القبض تمت بغير علم الرئيس عبد الناصر، وقد سبق أن قبض علي مرة في أول الثورة ، ومرة أخرى بعد بضعة أشهر من قيامها .. بدون علم جمال عبد الناصر .. وعندما علم في المرتين بأمر القبض علي وعلى أخى علي أمين أمر بإطلاق سراحنا .. ولكن عندما رأيت أن القوة التي جاءت لقبض علي صحبت معها مصوراً لالتقاط صوري .. تأكدت أن المسرحية مدبرة ..

ووضعوا القيد الحديدي في يدي ، وأركبوني سيارة خلفها وأمامها عدة سيارات ، حراس من جهاز الأمن يحملون المسدسات والمدافع الرشاشة .. ومشى الموكب في الطريق الزراعي في طريقه إلى القاهرة ..

أما عن تأثير تجربة السجن على حياتي كإنسان وكفكر وصحفي وكاتب وصاحب رأى فقد اختلف التأثير من فترة لأخرى .. وإن كان تأثير التجربة الأخيرة التي حكيت عنها أقوى هذه التجارب .. ولكن بشكل عام داخل السجن شاهدنا أشياء لم أتخيل أبداً أنها موجودة بالسجون المصرية .. ولو روي لي سجين هذه الحقائق ونقل لي هذه الصور قبل أن أدخل السجن لما صدقت .. ويكفي أن أقول لك إنني دعيت في عام ١٩٦٤ إلى زيارة سجن طره .. وكان ذلك قبل إلقاء القبض علي في المرة الأخيرة بعام أو أقل .. وكانت زيارة صحفية من أجل نقل صورة صادقة لما هو عليه السجن في مصر في تلك الفترة .. وهناك فرشوا لي الرمل الأصفر بلونه الجميل وكأنما زيارة رسمية .. واستقبال حافل من الضباط ومن المدير .. وأخذت خلال هذه الزيارة أتجول في أنحاء السجن .. مثلاً أخذوني إلى المطبخ وفيه شاهدت أطباقاً نظيفة بها قطع كبيرة من اللحوم

وحين سألت عن هذه القطع الكبيرة قالوا إنها لمسجون واحد .. ثم عرضوا على رغيفاً من العيش مصنوعاً بشكل جيد .. كما أخذوني في جولة أخرى لزيارة بقية أجزاء السجن فشاهدت حدائق كثيرة واسعة .. وأخبروني أن هذه الحدائق من أجل نزهة المساجين ..

ثم بعد ذلك دخلت السجن .. ففوجئت بصور مختلفة تماماً ..

رغيف العيش وجدته معجوناً بالتراب وحجمه صغير جداً .. ووجدت أن اللحم الذي يصل إلى المسجون كله دهون ، ولم تكن نرى في الطبق المقدم إلينا سوى نقط اللحم .. يمكن أن تراها فقط تحت الميكروسكوب .. أما بخصوص الحدائق فكانوا ينبهون علينا أن من يغامر ويخرج إلى الحديقة سوف يحبس ويضرب بالنعال ، لأن هذه الحدائق المزعومة كانت مخصصة للضباط وليس للمساجين من أمثالنا ..

وكنت قد عرفت قبل دخول السجن هذه المرة متهماً .. أن السجن به مكتبة .. ولكل سجين الحق والحرية في القراءة والكتابة .. ولكن هذه الصورة تغيرت أيضاً فكانوا يمنعون عنا الكتب وكل شيء يتعلق بالكتابة والقراءة .. وقد اكتشفت أن هذه التعليمات خاصة بي فقط .. والسبب أنني وجدت خطاباً قد سبقني إلى هنا موجهاً من وزير الداخلية آنذاك إلى مدير السجن فيه تعليمات صريحة بمنعني أنا مصطفى أمين على وجه الخصوص من كتابة حتى الخطابات إلا مرتين في الشهر فقط ..

لقد اكتشفت أن ماشاهدته في رحلتي الصحفية للسجن قبل القبض على هو ديكور وهمي .. تم تركيبه قبل زيارتي من أجل أن أكتب عنه وأنقله للقراء .. وللأسف كنت كثيراً ما أشاهد هذا الديكور يتم تركيبه وترتيبه من جديد كلما زار السجن مسئول كبير .. وبعد الزيارة سرعان ما تعود الأوضاع السيئة على ما هي عليه بل إلى أسوأ .. وأنا أنكر في مرة من هذه المرات .. أن زيارة المسئول الكبير قد شملت مستشفى السجن .. وكنت وقتها أعالج فيها .. وعلى الفور تم استبدال المفروشات المتسخة والقذرة بغيرها نظيفة .. بل أكثر من ذلك جاءوا بزجاجات الدواء ورصوها بجوارنا بالقرب من الأسرة التي ننام فوقها .. لقد كانت بالفعل مسرحية هزلية ..

ورغم ما قاسيته طويلاً داخل جدران السجن .. من عذاب وتعذيب إلا أن السجن لم

يكن شراً كله .. فهو عالم جديد عليك خاصة أن تعيش فيه لأول مرة .. وفيه تتم صداقات حميمة نقيية بعيدة عن الرياء والزيغ .. لقد كانت لي صداقات من هذا النوع داخل السجن ، وامتدت حتى بعد الخروج والإفراج عني .. وأكثر هذه الصداقات التي تأثرت بها وأشرت في نفسي .. أنني تعرفت في السجن على رجل عظيم عرض على أن يهربني إلى الخارج .. وكان مستعداً لدفع مبالغ طائلة كي تتم عملية تهريبى من السجن .. ولكننى رفضت مع أنني لم أقابل هذا الإنسان الطيب من قبل .. ويبدو أنه كان من قرائى الأعداء .. وعلى أية حال مازالت علاقتى به قائمة حتى الآن ..

*** وهل يمكن الإفصاح عن اسمه الآن ؟**

.. لا ..

أما الإنسان الثانى أو الرجل العظيم الآخر الذى تأثرت به وبصداقته فهو مأمور سجن طره اللواء عبد الله عمارة .. ذلك الرجل الذى كاد أن يرفقت بسببى .. ولهذه الحكاية قصة .. فقد نما إلى علمى وأنا داخل السجن أن وزير الداخلية آنذاك وهو على ما أنكر شعراوى جمعة علم أن مصطفى أمين يحصل على أطعمة خاصة داخل السجن وتأتيه من الخارج .. وقد نجحوا في إثبات ذلك عن طريق الحصول على رسالة كانت ابنتى المرجومة رتيبة قد بعثت بها إلى مأمور سجن طره وبها قائمة الطعام التى تريد إرسالها إلى داخل السجن .. وقاموا بزيارة مفاجئة للسجن ضمت وزير الداخلية وعباس قطب مدير مصلحة السجون آنذاك وعدداً كبيراً من ضباط الوزارة .. وتفقدوا السجن .. وفي نهاية الزيارة طلب شعراوى جمعة قائمة الطعام المشار إليها ، والتى تم ضبطها في مكتب مأمور السجن وأخذ يقرأ ما بها بصوت مرتفع .. وكان بالقائمة طلب لإدخال جينة «روكفور» .. حينئذ تقدم شعراوى جمعة من مأمور السجن وسأله :

هل تأكل هذه الجينة في منزلك ؟

وقبل أن يجيب مأمور السجن المسكين أصدر شعراوى جمعة قراره القورى بنقل مأمور السجن اللواء عبد الله عمارة وحرمانه من الترقية .. وأفهمه أن ذلك هو إجراء مخفف بدلاً من الرفض ..

وخلاف ذلك كان معى مساجين كثيرون .. التقيت بهم بعد الخروج والإفراج عني ..

وقابلتهم .. وقدمت إليهم مساعدات كثيرة حين علمت أنهم في حاجة بالفعل إلى هذه المساعدات .. ومع ذلك فإننى اعتبر ماقدمته لهؤلاء قليل جداً بالنسبة للخدمات التى كانوا يقدمونها إلى ..

وحين ينتقل الحوار إلى جانب آخر من جوانب تأثير تجربة السجن على الكاتب والمفكر مصطفى أمين .. يقول :

- بالنسبة لأهم النتاجات الفكرية التى ولدتها تجربة السجن هذه .. أقول لك إن كل الكتب التى أصدرتها .. كتبها داخل السجن .. وأذكر لك بعضاً منها مثل «سنة أولى سجن» و«ثانية سجن» و«ثالثة سجن» وهكذا .. ثم قصة «أشرف امرأة فى الشارع» .. وقصة «سنة أولى حب» وقصة «صاحب الجلالة الحب» وأيضاً قصة «لا» وقصة «الآنسة هيام» .. بالإضافة إلى كتاب سياسى بعنوان «من واحد لعشرة» يعنى نقدر نقول إن كل هذه الكتب ألفتها فى السجن وكانت العصاية تهريبها ورقة بعد ورقة ..

والشئ الغريب أننى لم أكتب عن السجن بعد الإفراج عنى ، لأننى كتبت كل انطباعاتى وأنا هناك خلف هذه الجدران الصماء ..

* وهل السبب ربما يرجع إلى اعتباركم هذه الفترة سوداء فى حياتكم ؟

- أبداً .. لم تكن فترة سوداء على الأقل بالنسبة لى .. فأنا دائماً أذكرها وأتذكرها .. هذا من حيث تأثير التجربة على مصطفى أمين شخصياً .. أما عن تأثيرها على حرية الرأى والفكر فى مصر بشكل عام .. فأولاً أنا دهشت لأننى اكتشفت أن هذا السجن قد دخله غيرى من الشخصيات العظيمة جداً أو الهامة جداً .. وللأسف لم يكتبوا عن هذه التجربة .. إلا القليل منهم مثل الأستاذ العقاد ومحمد التابعى وتوفيق دياب .. فمثلاً الدكتور أحمد ماهر دخل السجن مدة طويلة .. وكذلك النقراشى وإبراهيم عبد الهادى .. وربما يرجع السبب إلى أنهم كانوا يريدون نسيان هذه الفترة من حياتهم ، أما بالنسبة لى فبالعكس صحيح .. لم أكن أريد أن أنساها .. لأننى بالإضافة إلى ماذكرته سابقاً أننى اعتبره دافعاً للتقدم إلى الأمام .. والشئ الثانى الأهم أننى وجدت فى قاع المدينة المتمثل فى المساجين ما هو أكثر قيمة ووفاء وأصالة مما كنت أجد فى مجتمع قمة المدينة .. وهم الناس الذين كانوا خسارح الأسوار .. لقد كان الناس داخل السجن لديهم

وفاء وشجاعة وفداشية وأخلاق ..

* هل تذكرون بالضبط فترة السجن الأخيرة ؟ ..

- طبعاً .. كانت ثماني سنوات ونصف بالضبط .. فقد اعتقلت عام ١٩٦٥ ولم أخرج إلا عام ١٩٧٤ .. قضيت نصفها في عهد عبد الناصر ونصفها الآخر في عهد السادات الذي سمعت أنه كان ينوي الإفراج عني فور توليه منصبه كرئيس للجمهورية خلفاً لعبد الناصر .. ولكن ذلك تأخر ثلاث سنوات .. وربما يرجع السبب إلى وشاية نقلت إلى الرئيس السادات جعلته يحجم عن إتمام الإفراج .. فقد وصل إلى علمه أن مصطفى يعقد اجتماعات سرية مع علي صبري وسامى شرف في السجن .. وقد أكد لي هذا القول الرئيس السادات نفسه .. وقد اتضح فيما بعد أن أصل هذه الحكاية يرجع إلى رسالة نقلت إلى الرئيس السادات الذي يأمر من فوره بالاتصال بوزير داخلية آنذاك ممدوح سالم .. كي يسأله عن تفاصيل ما نقل إليه ..

- إيه الحكاية يا ممدوح .. بقي مصطفى أمين وسامى شرف وعلي صبري يجتمعون يومياً في زنزانة واحدة ويكتبون كتاباً أسود عني ..

ورغم تأكيد وزير الداخلية بعدم صحة هذا القول .. حيث أبلغ الرئيس السادات أنني مسجون في زنزانة وهم في زنزانة أخرى .. إلا أن القرار قد تأخر .. ولم يصدر إلا في ١٨ مايو عام ١٩٧٤ بالقرار الجمهوري رقم ٥٨ لسنة ١٩٧٤ ..

* ذكرت في بداية هذا الحوار .. إنكم قد تعرفتم على شخصيات سياسية وصحفية كثيرة داخل أسوار السجن .. ولم تفصحو لنا إلا عن بعضها ومنهم رجال طبيون وأصدقاء .. نريد أن نعرض بعض الشخصيات التي التقيتم بها هناك ..؟

- في السجن بقيت ٩ سنوات .. التقيت خلالها خاصة بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ، بالعديد من القيادات السياسية التي سجنها عبد الناصر بعد الهزيمة وأذكر منهم الفريق صدقي محمود قائد الطيران في حرب ١٩٦٧ ، الذي قال لي إنه نصح عبد الناصر

بأنه إذا لم نقم نحن بالضربة الأولى فسوف نهزم .. ولكن عبد الناصر أصر على أننا لا نضرب الضربة الأولى .. كما التقيت أيضاً بالشيخ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين ، وقلت له آنذاك (أنا متوقع أن عبد الناصر هيفرج عن كل المسجونين السياسيين وهيسألهم عن رأيهم في هذه الكارثة) ..

وعلى ذكر حكاية الإفراج عن الكاتب مصطفى أمين الذي تأخر أربع سنوات .. تحدثنا كثيراً خلال هذا الحوار عن دور أم كلثوم في إتمام هذا الإفراج .. حيث أكد لي أن أم كلثوم كان لها دور بارز في الإفراج عنى خاصة لدى عبد الناصر الذي لم يستجب لرأيها .. ولكن ليست أم كلثوم وحدها ، رغم أن دورها كان دوراً رئيسياً حتى أيام الرئيس السراجل أنور السادات .. فقد كانت هناك شخصيات أخرى كثيرة قامت بهذا الدور غير أم كلثوم .. أذكر منهم .. الأمير طلال والملك فيصل .. وسعيد فريجة ومحمد أحمد محبوب رئيس وزراء السودان ، وسفير العراق بالقاهرة آنذاك فايق السمراشي .. وكثير من زعماء الدول العربية المعاصرين لجمال عبد الناصر والسادات ..

وكانت هناك عدة محاولات من أجل تبرئتي من التهمة الظالمة التي قبضوا على بسببها ودخلت من أجلها السجن .. قام بها أيضاً العديد من الأصدقاء .. أذكر منهم رئيس وزراء السودان الأسبق محمد أحمد محبوب الذي كان قد ذهب إلى جمال عبد الناصر بعد محاكمتي وسأله : هل حقيقة مصطفى أمين جاسوس ؟ .. فرد عليه عبد الناصر أبداً .. وأكد له أنه هو الذي كلفني بالاتصال بالأمريكان .. وكل ما هناك أن مصطفى أمين قال لهم إنكم تريدون أن تقطعوا المعونة من أجل أن يركع عبد الناصر .. وأنا يا أخ محبوب لا أركع لأحد .. فقا له رئيس السودان آنذاك .. علشان هذه الكلمة .. يبقى تضعه في السجن ؟ .. فما كان من عبد الناصر إلا أن رد عليه : إننى حبيت أن أؤدبه لكن أنا في الوقت نفسه مستعد أن أفرج عنه الآن .. لكن لو حدثت ذلك فمعنى ذلك أن أفرج عن الشيوعيين والإخوان .. وإلا قالوا إن أمريكا هي التي أجبرتني على ذلك .. ولكن على العموم حين تحضر إلى مصر المرة القادمة ستجده في بيته .. ولم يحدث ذلك .. وكذلك فائق السمراشي سفير العراق في القاهرة الذي طلب مقابلة عبد الناصر لنفس الغرض .. فذكر له نفس حكاية القمح والركوع .. وأنه أى عبد الناصر سوف يفرج عنى من السجن وأيضاً ذلك لم يحدث ..

وفي غمرة حديث كاتبنا الصحفي عن تجربته داخل السجن .. وجدتها فرصة كي أعرف منه رأيه في عقوبة السجن وتأثيرها على الفكر بشكل عام .. وهل من الضروري أن يكون للمفكرين سجون خاصة بهم ؟ .. كذلك أردت أن أعرف منه بصراحته المعهودة رأيه في سجون مصر الآن .. وهل هي في رأيه وسيلة صالحة من وسائل التأديب والإصلاح ، أم تساعد على زيادة جرعة الإجرام .. وأشياء أخرى كثيرة متعلقة بهذا الموضوع ..

بادرنى الأستاذ مصطفى أمين قائلاً :

- والله شوف .. السجن لوحدته مؤلم .. ولكن أسوأ ما فيه رغم مايسببه من آلام نفسية ناجمة عن حبس الحرية .. هو أنظمة السجون في بلادنا .. فأول شيء يقابل الإنسان داخل السجن أن يجرد من كرامته .. لأنه لايسمح لك بحمل ساعة أو فلوس أو ملابس أو أى شيء آخر .. ألم أقل لك إنهم داخل الجدران يجردون الإنسان حتى من كرامته .. إنهم يعطونك رقماً بدلاً من الاسم .. ويظل المسجون يتحرك داخل جدرانه المرتفعة والمرعبة تحت وطأة هذا الرقم .. فالإنسان المصرى بشكل عام يتحول داخل السجن إلى إنسان بلا كرامة ..

لذا لا بد أن تكون للمفكرين سجون خاصة بهم .. فليس من المعقول أن أضعهم مع غيرهم من مرتكبي الجرائم الأخلاقية أو جرائم القتل وتجار الحشيش وأصحاب السوابق وقطاع الطرق .. والشيء الذى لفت نظري خلال الفترة التى قضيتها خلف هذه الجدران أن مفهوم السجن السياسى لم يكن موجوداً لا فى اللوائح ولا فى عقول المشرفين عليه .. وكثيراً ما كانوا يعاقبون أهل الفكر بوضعهم فى العناير الموبوءة بالأمراض خاصة مرض الجرب .

وبشكل عام .. إن حالة السجون فى مصر كانت سيئة للغاية .. لذا حين خرجت كثيراً ما كتبت مطالباً إعطاء مراتب للمساجين .. وأبلغونى أنها عممت .. ولكننى غير مصدق .. لأننى طالبت من عدة وزراء داخلية بعد خروجى من السجن بزيارة سجون مصر فرفضوا طلبى ..

وهذا بالطبع يجرنا إلى سؤالك عن أننا يمكن أن نعتبر السجون فى مصر الآن وسيلة

ناجحة من وسائل التأديب .. أم أنها تساعد على توالد الجريمة وزيادتها .. وأقول لك .. إن السجون بوضعها الحالي .. تزيد من أعداد المجرمين .. فهي عكس مايقولون .. ليست تهديباً ولا تأديباً .. وربما يرجع ذلك إلى العديسد من الأسباب .. أولها أن السجنائين أنفسهم أغلبهم غلاظ القلوب .. رغم أن منهم آدميين ويتصفون بالرحمة ، ولكن للأسف عددهم قليل ..

ولقد تقابلت مع النوعين .. الوحوش والأدميين .. واكتشفت أن الفرق بينهم كالفرق بين الإنسان والحيوان .. ويحضرني هنا قصة سمعتها كثيراً تتردد داخل السجن .. فقد كان هناك ضابط من هؤلاء الوحوش .. همه الأول في الصباح والمساء تعذيب وضرب المساجين .. وكان عنده عسكري «مراسلة» حكى لنا أن هذا الضابط كانت تضربه زوجته كل يوم في الصباح .. فيبدو أنه كان يعكس علينا معاملة زوجته السيئة له ..

*** ماهو تصور الكاتب الصحفي والمفكر الكبير مصطفى أمين عما يجب أن يكون عليه السجن في مصر .. وخاصة بالنسبة للمفكرين ؟ ..**

..... أولاً لازم تعرف أنه في كل البلاد الحرة ، لا يوجد مانسميه نحن بالمسجون السياسي .. ولا تجد صحفياً أو كاتباً أو صاحب رأى في السجن .. لكننا نشاهد مثل ذلك وأكثر في البلاد غير الديمقراطية .. وما دمتا دولة غير مكتملة الديمقراطية ولا تستطيع أن تكون دولة ديمقراطية بنسبة ١٠٠٪ في الوقت الحاضر ، فلا بد وأن نكون ديمقراطيين حتى ٨٠٪ مثلاً .. ونقيم سجوناً خاصة بالمفكرين والسياسيين حتى لانضع السياسي مع المجرم ودعنى أنكر لك .. أن هذه السمات غير الديمقراطية التي أثرت على أوضاع السجن كانت أيضاً قبل الثورة وأنكر لك مثلاً على ذلك .. زمان .. محمد صلاح الدين باشا وزير الخارجية حكم عليه بالسجن المؤبد والحقوق بالعمل داخل السجن .. مكوجى .. والأستاذ توفيق دياب عمل ترزياً داخل السجن ..

إننى أمنت دائماً بأن لامستقبل لمصر إلا بالديمقراطية .. وكلما أصيبت الديمقراطية بأزمة أو نكسة تضاعف هذا الإيمان .. إن الأمال العظيمة لا تتحقق إلا بتضحيات عظيمة ..

مصر عرفت الديمقراطية عدة مرات ، وفقدت الديمقراطية عدة مرات أيضاً .. ولم ييأس هذا الشعب .. لقد طالب عمر مكرم بالديمقراطية .. وطلب أحمد عرابي

بالديمقراطية .. وقام الشعب بزعامة سعد زغلول يدعو لحكم الشعب وبأن الأمة مصدر السلطات .. إننى متفائل جداً بمستقبل بلادنا على عكس مايرى الآخرون .. ولعلك تلاحظ أن من سمات عدم وجود الديمقراطية في مصر الآن بشكلها المتكامل والمتعارف عليه حضارياً .. أن المفكر أو الصحفي أو السياسى لا يعتقل ولا يسجن إلا بقرار من رئيس الدولة .. والمفروض ألا يقبض على المفكر وصاحب رأى إلا بقرار من المحكمة .. ويحاكم أمام محاكم مدنية وليست عسكرية .. إن ثبت تورطه في أى جريمة من الجرائم التى ينص عليها القانون المدنى ، كما تلاحظ كذلك أن الإفراج عن المفكر المعتقل لا يتم إلا بقرار سياسى كما تم من قبل اعتقاله بقرار سياسى ..

وهناك ظاهرة طيبة تسدل على أننا نسير في الطريق الصحيح نحو الديمقراطية وحقوق الإنسان واحترام آدميته .. هو أن عدد المسجونين السياسيين والمفكرين خلف القضبان قد قل كثيراً في أيام الرئيس السادات لأنه أفرج عن عدد كبير منهم فور توليه الحكم .. وأيضاً في هذه الأيام قلت ظاهرة اعتقال المفكر بشكل ملحوظ .. حتى وصلت إلى أدنى معدلاتها .. وقد بدأ الرئيس مبارك فترة حكمه بالإفراج أيضاً عن المسجونين السياسيين وأهل الفكر ..

ولا بد أن يكون واضحاً لك ولغيرك.. أن الدولة حين تتفرغ للحكم على المفكر وتقبض عليه وتسجنه .. معناه أن الدولة قد تحولت إلى سجان .. وكل البلد تحولت إلى سجن كبير ليس للمفكر فقط .. بل لجميع الناس، وهذا يدل دلالة واضحة على وجود خلل ما في المجتمع لأن الفكر لا يحاكم وكذلك أصحاب رأى.

*** في كلمات تلغرافية .. ماذا يقول الأستاذ مصطفى أمين للمفكر المصرى .. وكذلك للمسئولين عن السجون؟**

– أقول أولاً للمفكر إنه يجب أن يعرف أنه ما دامت هناك ديمقراطية ناقصة فهو معرض في أي لحظة وفي أي يوم أن يدخل السجن .. لذلك عليه من الآن .. توظيف عقله وفكره وقلمه من أجل العمل على تحسين معاملة المسجونين ..

وللمسئولين عن السجن أقول: أذكركم بأن بعض الذين وضعوا لوائح السجن في

مصر دخلوا السجن وطبقت عليهم.. فليتعضوا.

الآن توقف دوران شريط التسجيل .. كى أعيده على الوجه الآخر .. الوجه الذي حكى لي فيه المفكر الصحفي الأستاذ مصطفى أمين حكاية عصابة تهريب الورق والقلم التي كونها .. ونجح من خلال أعمالها المتقنة أن يوصل صوته إلى خارج السجن ، وبالتالي نجح في تهريب أكثر من تسعة الاف رسالة .. وأكثر من كتاب ..

وبعد لحظات صمت جاء صوت مصطفى أمين يحدثني ، وكأنما يشدو بأغنية يعشقها .. ولم أكن أتخيل في لحظة من اللحظات أن يعترف لي هذا العملاق أنه كان في يوم من الأيام زعيم عصابة ..

.. حينما منعوني من الكتابة فكرت في أن أهرب الخطابات .. فقامت بتأليف عصابة من بعض المسجونين غير السياسيين .. واخترتهم بدقة من المظلومين ، لأننى اعتقد أن المظلوم هو أكثر شجاعة من غيره .. هؤلاء اخترتهم من أجل تهريب ما أكتبه خارج السجن .. وحين تسألنى كيف .. فلذلك قصة طويلة .. لقد كونت هذه العصابة في سجن طرة وهو آخر سجن أقيمت به .. وكنت فيه أقيم في زنزانة بالدور الرابع .. وقبل حكاية التفاصيل أقول لك إننى تنقلت في أكثر من خمسة سجون .. سجن الاستئناف .. والسجن الحربى وسجن المخابرات وسجن القناطر وأخيراً سجن طرة .. وفى كل سجن كنت أقضى بعض الوقت .. فى السجن الحربى مثلاً أقيمت أربعة أشهر .. وفى سجن الاستئناف ستة أشهر .. وكذلك سجن القناطر قضيت به عدة أشهر .. أما فى سجن طرة فقد قضيت بقية المدة ..

وفيه تكونت هذه العصابة التي تعتبر عصابة من نوع خاص .. نوع شريف لتهريب الأفكار .. كما ذكرت لك كنت نزيل الزنزانة الأولى بالدور الرابع .. وكان فى نفس الدور نزيل آخر بالزنزانة رقم (١٤) رأيت فيه السجين المظلوم الذي زج به فى السجن معنا بعد اتهامه فى قضية شار ظلماً .. والشىء العجيب أنه كان رجلاً أمياً لايعرف القراءة ولا الكتابة .. وقد اخترته نائباً لزعيم عصابة تهريب الخطابات لهذا السبب ، بحيث لا يكون موضع شك من جانب المسئولين عن السجن فيما يقوم به من مهام أكلفه بها .. وكل دوره أنه كان يهرب لي الورق والقلم عن طريق استلام هذه المهمات وتسليمها إلى بقية

المساجين أعضاء العصابة الآخرين الذين وزعتهم على بقية أدوار السجن .. ومنهم من كانت زنزانته قريبة من الزنزانة التي أنزل بها..

كنا خمسة مساجين .. أنا والرجل الأملى وثلاثة آخرون في بقية الأدوار .. يحتل كل واحد منهم الزنزانة الأولى في الدور الذي يقيم به ..

هؤلاء كانت مهمتهم إطلاق كلمة السر المتفق عليها بيننا وبصوت نسمعه جميعاً حين تبدأ حملات التفتيش .. وعلى الفور تختفي الأوراق والأقلام وتزحف من يد إلى يد حتى تصل إلى الزنزانة رقم (١٤) التي يقيم فيها نائب زعيم العصابة والذي كما قلت لم يكن يقرأ أو يكتب ، وبالتالي كانت زنزانته بعيدة عن ذهن رجال السجن الذين لم يقوموا ولو مرة واحدة بتفتيشها .. وهكذا كنت أكتب وأهرب السورق إلى نائب زعيم العصابة .. الذي يحتفظ بها حتى تحين فرصة تهريبها إلى الخارج .. وكان ذلك يحدث رغم أنهم كانوا يفتشون زنزانتي مرتين في اليوم وبلا مواعيد مسبقة ..

***وماهى كلمة السر التي كان متفق عليها؟ ..**

.. كانت اسم ضابط سجن سابق اسمه أحمد عبد الرحمن ..

*** ولماذا هذا الضابط بالذات ..**

.. لأنه كان مشهوراً بوحشيته وجبروته .. وكان اسمه يخيف أى مسجون ..

وخلال هذا الحوار الذى قارب على الانتهاء كنت اتعمد أن أثير قضايا كثيرة ومتنوعة .. وكنت أفترض أن الأستاذ مصطفى أمين سوف يعترض عليها .. ولكنه كان يجيب في سماحة والابتسامه لاتفارق شفثيه .. مثلاً سألته لو أصبح في يوم وليلة مأموراً لأحد السجون .. ماذا سيفعل مع هؤلاء الضيوف المساجين من المفكرين والمجرمين .. كما افترض فيه أن يكون في يوم من الأيام رئيساً للوزراء أو وزيراً للداخلية ، وسألته عما سيكون موقفه من المفكرين وقضايا الفكر بشكل عام..

بأذرنى بقوله : أولاً لو كنت مأموراً للسجن .. أطلق جميع المسجونين .. حتى المجرمين منهم .. لأننى أعتقد أن المسجون ماهو إلا مريض في حاجة إلى علاج .. وأعتقد أن علاجه لا يكون بحبسه أو سجنه .. أما بخصوص حكاية رئيس الوزراء أو وزير

الداخلية .. فأولاً أنني لا أصلح للوزارة ، أو أن أكون وزيراً .. أنا فقط أصلح صحفياً وكاتباً .. ومع ذلك سيكون موقفى من الفكر والمفكرين إلا يسجن هؤلاء الذين يحملون هذه الرسالة العظيمة رسالة الفكر والرأى .. وحتى لو كانت أفكاراً معارضة .. لأن التغلب على الفكر المعارض لا يتم بالسجن .. بل بعرض أفكار أخرى مؤيدة .. وأنا أذكر لك بالمناسبة واقعة حدثت عام ١٩٢٤ حين كان سعد زغلول رئيساً لوزراء مصر ووزيراً للداخلية ، وجاءه مدير المطبوعات ومعه كتاب لمؤلف كبير عنوانه «لماذا أنا ملحد؟» .. وطلب مدير المطبوعات من سعد باشا زغلول الإذن له بمصادرة هذا الكتاب فرفض .. وطلب من مدير المطبوعات تكليف عشرة مؤلفين من الأزهر لتأليف كتاب بعنوان « لماذا أنا مؤمن؟ » وبناء على ذلك رفض مصادرة الكتاب المذكور .. وبالفعل تم تكليف هؤلاء المؤلفين وصدر الكتاب الجهد الذى محى آثار الكتاب الأول ..

وهكذا لا بد من معالجة الأفكار بالأفكار .. وليست بالسجون .. لذلك لا أوافق أبداً على اعتقال أى مفكر حين أكون على الفرض فى المنصب الذى طلبت منى أن أتخيل نفسى فيه ..

*** على الفرض ونحن نتحدث الآن وعبر التليفون طلب أحد الذين عذبوا الأستاذ مصطفى أمين مساعدته فى أمر إنسانى .. ماذا تقول له ؟**

— إذا كان داخل السجن أساعده .. ولكن خارج السجن أرفض .. وقد عشت هذا الموقف .. حين جاءنى إلى مكتبى أحد الضباط الزبانية الذين عذبونى بقسوة وكان قد فصل من الخدمة .. والشىء المضحك أنه جاءنى لأساعده فى العودة للخدمة من جديد .. طبعاً رفضت بشدة ..

*** وأخيراً .. هل تريدون إضافة كلمات أخرى ؟ ..**

قاطعنى ضاحكاً وعدل سؤالى بقوله : لازم تقول : هل لديك أقوال أخرى .. ثم أجاب: أحب أقولك بكل صدق .. إن فترة السجن السابقة لم تكن لى أياماً سوداء .. عكس ما يتصور الكثيرون منا .. لقد كانت دروساً طيبة خرجت بها عبر ثماني سنوات ونصف .. كما أحب أن أؤكد .. أن الفكر المصرى الحديث لا يمكن أن ينتعش إلا فى ظل احترام حقوق الإنسان عندئذ يصبح الفكر والمفكر المصرى حراً طليقاً يعانق السماء السابعة .. ولا يتحقق ذلك بأمانة إلا فى ظل ديمقراطية سليمة ١٠٠٪.

الحكاية الثانية يرويها محمود السعدني:

الولد الشقي.. يكتشف

حياة أخرى داخل السجن!!

رغم أنني قضيت معه أكثر من ساعتين.. في شرفة منزله المطل على نيل الجيزة. ونسمات الصيف تداعب الأوراق.. وتصنع بهمسات اللمس فوق الزجاج.. سيمفونية بدائية.. تعزفها هوائيات غجرية تطير هنا وهناك.. ورغم أنني قد تمكنت خلالها من تسجيل لقاء حيوي وحوار عاشت كلماته داخل أسوار السجن العلية.. إلا أنني أخذت أبحث جديدا عن كلما أخرى خارج هذا الحوار تكون مدخلا لرحلتي هذه داخل عقل المفكر والكاتب الصحفي «محمود السعدني».. واكتشفت أن الولد الشقي قد سجل تجربته الطويلة في عالم السجنون في كتاب واحد.. صدر له بعنوان «الولد الشقي في السجن»..

وعرفت حينما تقابلنا أنه ينوي أن يضيف تجاربه الأخرى خارج السجن وداخله في كتاب جديد.. لم يصدر حتى كتابة هذه السطور..

إن كلمات الأستاذ «محمود السعدني».. عن تجربة السجن في حياته كمفكر وكإنسان تكاد تكون طبق الأصل لحياته التي قضاها فوق الكرة الأرضية.. طولا وعرضا.. تعلق به الظروف.. ثم سرعان ما تعود به إلى ما كان عليه من قبل..

ولا أنوي هذه المرة أن أفصح عن تفاصيل أسئلة هذا الحوار.. فقد أثرت أن يجهد القارئ عقله في استنباط الأسئلة من خلال تتبع واع لحديث الولد الشقي.. وحتما لن يبعد حديثنا كثيرا عن موضوع هذا الكتاب.. الفكر والقضبان.. وكلمات أخرى يحتفظ بها الآن شريط التسجيل.. في انتظار اللحظة التي أعطى له فيها إشارة البدء.. ولكنني وكما قلت منذ لحظات في البداية الآن نفسح لها الطريق في كلمات سطرها الأستاذ

محمود السعدنى.. ولن نفضح عن عنوانها.. أو عنوان الكتاب الذى قرأنا فيه تلك الكلمات..

وكانما كان يقرأ أفكارى قبل أن أذهب إليه حسب الميعاد المتفق عليه بيننا.. فقد قابلتني كلماته التى علقها فوق جدران منزله.. ومن الغوص داخل معانيها.. عرفت الطريق الصحيح نحو الحوار الذى دام ساعتين فى أحد أيام الصيف..

تقول هذه الكلمات:

– «لقد سجننت عدة مرات.. ولكن لم تتح لى الظروف أن أرى السجن الحقيقى إلا فى المرة الأخيرة.. فقد قدر لى أن أتعرف على عالم كنت سأذهب إلى قبرى حزيناً لو مت دون أن أراه.. واكتشفت كذلك أن السجن جزء من الحياة، وما يجرى خارج الأسوار يجرى مثله وبالأضبط فى السجن. وإذا كان خارج السجن أثرياء يموتون من التخمة، وفقراء يموتون من الضيم.. وإذا كان فى الخارج أصحاب نفوذ وأبناء أكرمين وأبناء كلب.. وإذا كان هناك تسريب وسرقة ونهب ونصب، وإذا كان هناك فساد وأشياء لا ترضى الله ولا العباد.. ففى السجن أيضاً تدور هذه الأشياء بالتمام والكمال وتركيز أشد، مع فارق بسيط، هو أن نزلاء السجن أصدق وأشرف..

وفى تواصل مستمر لما كتبته «الولد الشقى».. وما تناوله هذا الحوار.. وجدنا نقطة التقاء غريبة.. لعبت المصادفة دورها العظيم فى ترتيبه.. فقد اكتشفت وأنا أعيد سماع الشريط من أجل تفريغه.. أن بداية الحوار كانت هكذا:

*** نريد من الكاتب الساخر والمفكر الصحفى الكبير الاستاذ محمود السعدنى أن يحدثنا عن تأثير تجربة السجن والاعتقال فى حياته كمفكر وصاحب رأى أولاً.. وكيف إنسان ثانياً؟..**

– شوف السجن فى حياة الإنسان حادثة مؤسف.. يعنى أسوأ من المرض. إنه أسوأ شىء فى حياة الانسان.. وليس من سلوكيات البشر.. وإلا فكيف تحبس شخصاً ما وتتركه وحيداً وتنصرف عنه.. إن الحبس معناه أن تعزل هذا الشخص عن العالم.. إنها عقوبة يمكن أن تكون أشد خطراً على حياة البشرية من الجريمة التى ارتكبها الإنسان

في حق نفسه وحق مجتمعه.. وفي تصوري أن الإعدام خير من السجن.. وأهون منه.. إلا إذا كان السجن فترة قصيرة.. شهرا أو شهرين.. في هذه الحالة يكون عقوبة مفيدة، لأن السجن بعيد عن هذا المفهوم يحول الإنسان إلى حيوان.. لأنه بين يوم وليلة يجد نفسه بين أسوار عالية في عزلة تامة عن العالم.. وبين حراس وضباط..

إنه عالم آخر.. وحياة أخرى غير الحياة التي يعتاد عليها الإنسان.. أو الإنسان الذي ليس حيوانا.. ورغم أن السجن شيء صعب جدا.. إلا أنه من وجهة نظري لا بد للإنسان أن يجربه بشرط أن يكون فترة قصيرة.. وتجديني شديد الأسى والأسف لهؤلاء المفكرين والصحفيين الذين قضوا فترة طويلة داخل السجن.. وعلى سبيل المثال المرحوم الكاتب الصحفي صلاح حافظ الذي عاش ٩ سنوات متصلة في السجن، وقد دخلت عليه مرتين.. ولم يفقد فيهما روحه ومرجه..

وتستطيع أن تقول أيضا إن السجن هو اختراع إنساني ضعيف.. وهو إجراء قديم قدم الانسانية.. استخدم كثيرا لعقاب المفكرين والمعارضين وأصحاب الرأي والمجرمين.. ومع ذلك فإن الجريمة كما هي لم تتغير ولم يستطع الإنسان رغم تقدمه أن يقضى على الجريمة أو المجرمين.. من أجل ذلك بدأت بعض الدول الأوربية التفكير في تغيير أسلوب مقاومة الجريمة بغير السجن..

*** يجرنا هذا الحديث إلى أن نسأل الأستاذ محمود السعدني عن عدد المرات التي دخل فيها السجن؟..**

.. أنا دخلت السجن ٤ مرات.. أول مرة سنة ١٩٤٤ أو ١٩٤٥ عندما أقيمت حكومة الوفد وكنت وقتها تلميذا في المرحلة الثانوية بمدرسة مازالت موجودة إلى الآن في ميدان لاطوخل وتسمى «المعهد العلمي».. وأنا أذكر تفاصيل هذا الاعتقال وسببه.. حيث كان بمناسبة ترشيح ناظر المدرسة واسمه مصطفى.. الذي بدأ في استخدام طلبية المدرسة في الدعاية الانتخابية وكان مرشحا مستقلا بجانب تمسكه بمبادئ حزب الهيئة السعدية.. وكان دوري في تلك الفترة.. أن أخرج التلاميذ وأنظمهم في مظاهرات.. وبالفعل اشتركت في لجنة الدعاية لمبادئ ناظر المدرسة التي شكلت برئاسة ضابط المدرسة والذي مازال يعيش حتى الآن واسمه إبراهيم الحريري.. وهو رجل من أهالي عابدين الأشداء والمعروفين بالرجولة.. وكان من بين أعضاء هذه اللجنة شاب اسمه

عبد السلام صار فيما بعد حانوتى القلعة.. وأخر اسمه النواوى صار فيما بعد من كبار الجزارين بالمذبح.. وهؤلاء الذين ذكرت لك أسماءهم ظلت علاقتى بهم.. وانقطعت تقريبا منذ عام ١٩٦٩..

في هذه الفترة قمنا بمظاهرات طلابية ضخمة ضايقته الحكومة الى درجة الاشتباك بالأيدي مع مؤيدي مرشح الخصم.. فدبروا لنا مكيده وعن طريقها قبضوا علينا.. ونقلونا إلى قسم السيدة زينب داخل الحجز.. ولأول مرة أدخل إلى قسم بوليس.. ولأول مرة أعرف ما اصطلح على تسميته بالحجز.. وبداخله تعرفنا على المجرمين.. وكنت وقتها في الثامنة عشرة من عمري..

المهم مكثنا فيه طول الليل.. وطول النهار.. وبعد يومين أعلنوا نتيجة الانتخابات ونجح ناظر المدرسة مصطفى عبد الهادي الذي صار فيما بعد صهر الملك فاروق.. حيث تزوجت ابنة اخته «ناريمان» الملك فاروق.. والذي توسط لدى مأمور السجن للإفراج عنا.. وخرجنا من حجز السيدة زينب.. وبعد الخروج لم أكن أتصور وجود مثل هذا المكان على وجه الأرض.. بهذه القذارة وبهذا السوء لقد قضيت بداخل هذا الحجز أربعة أيام.. خفت بعدها من السجن جدا..

أما في المرة الثانية.. فقد قبضوا على بعد أن أنهيت تعليمي.. وكنت وقتها مراسلا صحفيا في السويس لجريدة التداء لتغطية معارك القناة عام ١٩٥١.. معارك الفدائيين.. وقتها دخلت في معارك عديدة قبل اتمام إلقاء القبض على في هذه الفترة.. وكنت وقتها في سن الخامسة والعشرين وكان معي في هذه الفترة مجموعة كبيرة من الصحفيين لتغطية معارك القناة وفي السويس قضيت أربعة أشهر وعندما نويت أن أغادرها.. عرفت أنه مطلوب القبض على.. وقد أبلغني بذلك أحد الضباط الوطنيين وأذكر اسمه الأول محمد ولا يزال يعيش حتى الآن.. وله ورشة بلاط في بور سعيد..

هذا الضابط الوطني كان يعلم تمام العلم أنني على خلاف مع بعض الضباط الكبار الذين كانوا يتعاونون مع الإنجليز والذين اتهمتهم علانية بعدائهم للمصريين وتعاونهم مع الإنجليز المحتلين لمصر آنذاك.. ووفقا لاقتراح الزميل الصحفي حمدي عبد العزيز.. تقدمت لمحافظة السويس بطلب أثبت فيه أنني أحمل سلاحا بدون ترخيص من أجل أن يقبضوا على ويتم ترحيل في حراسة إلى القاهرة بعيدا عن شبح الاغتيال والقتل الذي

كان ينتظرنى من هؤلاء الضباط الذين حكيت لك عنهم منذ لحظات.. ولكن ذلك لم يحدث.. كما تصور حمدى وأصر محافظ السويس أن أبقى بالمدينة من جديد فى أمان.. إلا أن بعض الضباط المصريين الوطنيين وأذكر منهم ضابطا اسمه الصاغ زكى جبران اقترحوا أن أخرج من السويس حفاظا على حياتى عن طريق مركب.. ووقتها طلبوا منى مبلغ ستة جنيهات من أجل إتمام عملية الهروب هذه.. وبالفعل تم ذلك ووصلت عن طريقها إلى الاسكندرية.. ومنها إلى القاهرة التى وصلتها بعد الحريق.. وقور وصولى إليها تم إلقاء القبض على العبد لله بسبب (حريق القاهرة).. فدخلت حجز أحد الأقسام.. ومكثت فيه أربعة أيام.. وكان حجزا أسوأ من حجز قسم السيدة زينب.. وعندما أثبت لهم أننى لم أكن موجودا بالقاهرة لحظة وقوع الحريق أفرجوا عنى..

أما المرة الثالثة فكانت عام ١٩٥٩.. حيث قبضوا على فجر أحد الأيام بمنزلى بالجيزة.. وأنا أنكر اسم الضابط الذى جاءنى فى تلك الساعة وأعتقد أن اسمه طوسون وكنا وقتها فى شهر رمضان.. وقد أبلغنى الضابط أننى مطلوب هناك لمدة خمس دقائق فقط.. ومن مباحث الجيزة حولونى إلى معتقل القلعة ومكثت فيه شهرا وشهرا آخر فى الفيوم ومنها إلى الواحات وكان معى عبد الستار الطويلة فى سلسلة واحدة.. ومكثت هناك سنة وشهرا بالضبط وقد قاسيت خلالها ألوانا من التعذيب..

وقاطعته قائلا:

وما هى التهمة يا أستاذ محمود؟

- دا كان اعتقال.. ولا يقولون لك السبب.. ولم يكن يتم بمحاكمة، المهم رأيت بعينى كيف يكون التعذيب على أصوله.. والشىء الغريب أننى فى البداية كنت أخذ هذه المسألة «هزار فى هزار».. لأننى كنت غير متصور حتى هذه اللحظة أنه سيفرج عنى بسرعة.. وثانيا لأننى شاهدت ألوان التعذيب بل وتعرضت لها كثيرا، وأكثر من ذلك هناك فى الواحات عهدوا إلينا بأشغال شاقة ومرهقة.. وتصور لقد كسرنا زلط الجبال هناك.. وحملنا الطوب والرمل فوق أكتافنا.. من أجل ذلك كنت أعتبرها فترة هزلية.. رغم أنها كانت أسوأ فترة اعتقال وسجن وتعذيب مرت على..

وتفتكر دا كان المقصود؟

- وقتها كانت هناك معركة شرسة بين جمال عبد الناصر وعبد الكريم قاسم.. وفى

فترة الطفولة السياسية آنذاك انضم جزء من المفكرين المصريين إلى عبد الكريم قاسم حاكم العراق ضد جمال عبد الناصر.. المهم أن جمال عبد الناصر قد اعتقل هؤلاء ممن يعتقدون الشيوعية وكذلك المشتبه فيهم.. وكنت أنا من الصنف الثاني.. ولحظتها كان النظام الناصري في عنفوانه.. وأنا أذكر وأنا داخل معتقل الواحات أن الدنيا قد تحولت في لحظة بالنسبة لي إلى مسرحية هزلية سخيفة.. والدليل أنهم كلما كانوا يضربونني كنت أضحك.. أقهقه.. لقد انتابتني حالة من الهستيريا..

ومن الواحات رجعت إلى سجن الفيوم حيث أقمت فيه أربعة أشهر ومن الفيوم أفرجوا عني.. يعني تقدر تقول مدة السجن هذه كانت سنة وستة أشهر أو ما يقرب من ثمانية عشر شهرا.. وقتها خرج معي لطفى الخول الصحفي المعروف والدكتور لويس عوض.. بل أقول لقد خرجت بصداق شديد وإحساس بطعم آخر للحياة.. والسبب ربما كان يرجع إلى مقارنتي الدائمة بين الحجز في الأقسام وما كنت أراه فيه من قذارة ومجرمين.. وبين السجن والمعتقل وما قاسيت فيه من تعذيب وإهانته ولعلك تتعجب حين أقول لك إن السجن رغم ما كان فيه.. هو بالقياس أنظف من ذلك الحجز الذي حدثت عنه منذ قليل.

المهم خرجت من هذه التجربة صاحب مرض مصحوب بحالة هستيرية أنقذني منها الدكتور أنور المفتي الله برحمه.. وقتها امتنعت عن الكتابة.. وخاصمت العمل الصحفي.. ورفضت ما عرضه علي الاستاذ أحسان عبد القدوس آنذاك.. لأنني بالفعل فضلت أن أجلس في بيتي هذه الفترة.. وبأمانة كنت أذهب إلى روز اليوسف أقبض مرتبي فقط.. حتى أقنعني الكاتبة الروائي فتحي غانم أن أكتب بأبنا بعنوان «هذا الرجل».. كانت تكتبه من قبل الزميلة فوزية مهران في مجلة صباح الخير.. هذا العمود بأمانة هو الذي أرجعني إلى الحياة من جديد.. وريدا رويدا نسيت السجن وأهواله وعدت إلى الصحافة ومتاعبها وبدأت في إخراج كتبي ونشرها.. وسافرت إلى الخارج.. واستمرت حياتي هكذا حتى عام ١٩٧١.. بعد وفاة جمال عبد الناصر.. وانتخاب الرئيس السادات..

تلك الفترة التي بدأت بالتحقيق معي في الاتحاد الاشتراكي آنذاك والتي قيل وقتها

تلغيقاً إننى اعتقلت بسبب اشتراكى فى مؤامرة لقلب نظام الحكم.

*** إذن ما هى حقيقة الاعتقال الأخير.. وأسبابه؟.. باعتبار أنه المرة الأخيرة التى دخل فيها الولد الشقى السجن..؟**

... كل ما فى الأمر أنهم ضبطوا فى الجيزة أوراق انتخبات أنور السادات أكثر من عدد المسجلين فى الدفاتر وحين سألوا المسئول آنذاك وهو على ما أذكر اسمه محمود عفيفى.. كيف تضع بطاقات انتخاب لأنور السادات بأسماء مزورة وغير موجودة بالكشوفات قال لهم.. محمود السعدنى هو الذى قال لى.. فاستدعونى للاستفسار عن هذه الواقعة فأجبتهم بأننى الذى قلت له ذلك.. وأنا أذكر أيامها أنه كانت هناك مشكلة بين السادات وفريد عبد الكريم وأنا خفت يحدث أى تقصير فى الجيزة فيقع اللوم على فريد عبد الكريم.. وعندما لاحظت أن أحدا لم يأت لانتخابات.. اقترحت إضافة أسماء وهمية وغير موجودة بالكشوفات..

وأمام أحد المحققين اعترفت أننى المسئول عن هذه الواقعة.. لأننى كنت أود أن ينال السادات أغلبية مطلقة بمحافظة الجيزة حتى أضمن عدم إحداث صدام بينه وبين فريد عبد الكريم.. هذه الواقعة كانت فى أكتوبر.. وبعد ٦ أشهر تم القضاء القبض على بتهمة الاشتراك فى مؤامرة قلب نظام الحكم.. ولعلمك حينما ضبطوا شرائط المكالمات بينى وبين فريد عبد الكريم آنذاك وجدوا بها شتائم لا أكثر ولا أقل.. ولأنها كانت شتائم خارجة لم يذكرها فى المحكمة.. المهم فى النهاية دخلت السجن لمدة سنتين.. قضيتهم كالاتى: ٣ شهور فى مستشفى كلية الشرطة.. ثم ٥ أشهر فى السجن الحربى.. أما الباقى فقد قضيته فى سجن القناطر الخيرية بالقاهرة.. وقابلت فيه حثالة المجتمع المصرى من مجرمين ونشالين وقتلة ومكذس بأعداد كبيرة من كل الأصناف إن جاز هذا التعبير..

نعود إلى الحديث مع الولد الشقى عن أحوال السجن من خلال تجاربه الشخصية فى هذا المجال؟..

.. شوف.. اسمع.. أنا سوف أحدثك عن السجن فى آخر فترة قضيتها فيه.. وهى فترة سجن القناطر.. ومن قبل حدثتك عن مثل ذلك فى بقية السجون الأخرى حتى الحجز فى أقسام البوليس.. وحين نعود للحديث عن أحوال السجن الخاصة بالقناطر.. أقول لك..

إننى كمسجون سياسى كنت فى زنزانة مستقلة عن باقى المجرمين الآخرين.. وكانت هذه ميزة كبيرة رغم أنها كانت فى أغلب الأحيان سجنًا انفراديًا.. وهناك فئات أخرى غير المساجين السياسيين كانت لهم أوضاع خاصة داخل سجن القناطر.. وهم طبقة الأثرياء من المجرمين وتجار الحشيش وخلافه.. باختصار لقد كان سجن القناطر وعالمه الخاص أغرب مكان رأيت على ظهر الأرض لما فيه من تناقضات لا يصدقها غير الذى عاشها..

وأحب أن أؤكد لك أن أسوأ شيء واجهته فى السجن.. هو الانتظار.. ليس انتظار الإفراج.. ولكن الانتظار لأنك لا تعرف ما الذى سيأتى به الغد.. ومع ذلك فإننى أؤكد لك أن هذه الفترة التى قضيتها فى السجن أيام الرئيس السادات قد أفادتني كثيرًا..

*** ولكن كيف يا أستاذ محمود؟..**

— أقول لك.. حتى أيام السجن فى عهد عبد الناصر أيضا أفادتني لأنه لم يكن مسموحًا لنا بالقراءة ولا بالكتابة، فيما عدا قراءة الكتب الدينية لذا أقبلت على قراءتها كلها.. حتى الكتب الدينية المسيحية واليهودية.. وقد استفدت جدا لأننى بمساعدة بعض النزلاء تمكنت من الحصول على بعض كتب التراث مثل كتاب الأغاني وخلافه.. وعلى فكرة يوجد بالسجن مكتبة ضخمة أسسها من قبل الشيوعيون والإخوان المسلمون الذين سجنوا هناك.. وتحضرنى قصة لطيفة متعلقة بقراءة اتى داخل السجن.. فى أحد الأيام ذهبت إلى المكتبة أبحث فى دفاتها.. فاكتشفت وجود أجزاء كتاب «قصة الحضارة» وبعد بحث طويل.. اكتشف المسئول عن هذه المكتبة أن الكتاب غير موجود وأن أحد المساجين قد استعاره من قبل.. على كثرة عدد أجزاءه..

ومرت الأيام.. وكما أذهب للمسئول عن المكتبة أسأله عن أجزاء كتاب قصة الحضارة أكتشف أنها مازالت مستعارة.. ولما شككت فى الأمر طلبت مقابلة السجين الذى استعارها.. فقالوا لى إنه مقيم فى عنبر (ب) بالدور الثالث بالزنزانة (١٧).. واسمه أحمد ققط.. مسجون مخدرات.. ومحكوم عليه بخمس عشرة سنة سجن.. ولما سألته عن الكتاب.. أبلغنى أنه يستخدمه مخدة «ينام فوقها».. لقد كان هذا الرجل ينام فوق قصة الحضارة.. لقد كانت فترة السجن الأخيرة فترة ثقافة إجبارية..

* طوال هذه الفترات التي اعتقلت خلالها.. هل تم اعتقالك وفقا لأصول قضائية.. أو بمعنى آخر.. هل حكمت عليك إحدى المحاكم المدنية بالسجن؟.. أم كيف كان يتم ذلك؟..

- لا.. أنا لم أحاكم أمام محاكم مدنية إلا خلال عمل الصحفى أو ما يتعلق به.. أما بقية الاعتقالات فكانت تتم وفقا لمحاكم عسكرية.. وأيام الرئيس السادات حوكت أمام محكمة تسمى «محكمة الثورة» كان يرأسها القاضى حافظ بدوى الله يرحمه.. وكنت أعرفه قبل دخولى السجن.. وكان فيها أيضا حسن التهامى.. وفي هذه المحاكمة حكموا على بالسجن سنتين.. ونفذ على الفور بتهمة الخيانة العظمى.. يعنى أنا كنت قائدا عظيما وربما لم أكن أعرف..

وعلى أية حال أنا لم أكن مصر طوال حياتى ولن يحدث.. وبعد انتهاء مدة السجن خرجت فوجدت قرارا فى انتظارى بعدم عودتى إلى عملى.. وبإبعادى عن الصحافة تماما.. فاشتغلت أياما مع عثمان أحمد عثمان فى المقاولون العرب.. وبعد فترة رفضت مواصلة العمل مع المهندس عثمان أحمد عثمان لأننى لم أتحمليه.. وطلبت ضرورة أن يحل الرئيس السادات مشكلتى وإلا سوف أترك مصر.. وبالفعل حينما لم أعد إلى عملى الصحفى.. تركت مصر لمدة ٩ سنوات.. ثم عدت بعدها.. وبدأت الحياة مرة أخرى.. وأنا أتمنى ألا تعود هذه الأيام من جديد لأننى اكتشفت أن السجن المتكرر تجربة سيئة وخاصة تجربة السجن فى بلدنا.. لأنها تجربة تزيد جرعة الإجرام ولا تقضى عليه بالقدر المتعارف عليه..

وهذا الحديث يجرنا لسؤالك السابق على أحوال السجن.. وأقول لك إننى اكتشفت تفرقه مريرة فى المعاملة داخل هذه الجدران العالية كما اكتشفت وجود المسجون الثرى المبسوط.. والمسجون الآخر المعدم والفقير.. وأنا أذكر لك على سبيل المثال.. إنه فى يوم من الأيام طرقت أحد المساجين على باب زنزانتى طالبا «حسنة يا بيه».. والسبب ربما يرجع إلى أنه كانت توجد عصايات داخل السجن من المسجونين أنفسهم تستولى على الأطعمة والاعطية ولا تعطى إلا لمن يدفع.. وكنت أحد هؤلاء الملتمسين بالدفع فقد كنت أصرف أربع غلب سجاير فى الشهر لمثل هؤلاء حتى أضمن الغذاء التنظيف والخدمة الجيدة..

*** وهل يعتقد الأستاذ محمود السعدنى أن هذه الظواهر الغريبة مازالت موجودة في سجون مصر الآن..**

- لا أستطيع أن أؤكد لك ذلك.. لأننى لم أدخل السجن فى هذه الأيام.. وثانياً أنا لم أعد أعرف أحداً يقيم الآن فى السجن.. فقد تركت السجن منذ ثمانية عشر عاماً.. وأحب أن أؤكد لك أن هذه الصور كانت موجودة حتى خرجت.. لقد كان المسجون المصرى يعيش حقيقة فى محنة.. ولا يد من تدارك هؤلاء.. لأنهم موتى على ظهر الأرض يتحركون.. ولا تستفيد منهم البلاد.. وهذا يجعلنى أتساءل لماذا لا نقيم سجوناً أخرى جديدة تلحق بها ورش ومصانع ومزارع يعمل بها هؤلاء المساجين حتى يتحولوا إلى بشر منتجين ونقضى على البطالة بينهم داخل هذه الجدران العالية.. ولماذا لا نعطى المسجون بعض عائد هذه المشروعات كى يرسلها إلى أهله فى خارج السجن حتى يضمن أن بيته لن يهدم بعد دخوله..

وخلاصة القول لابد من وجود نظرة جديدة للسجون المصرية.. بحيث تتحول إلى أماكن منتجة.. نقطة أخرى أقولها لك بهذه المناسبة.. أنه لابد من فصل إدارة السجن والإشراف عليها بعيداً عن وزارة الداخلية.. بحيث تنتهى علاقة المسجون بالشرطة والداخلية بوضعه فى السجن.. وبالتالي ينتقل الإشراف على السجن إلى وزارة العدل.. لأنه حين تعددت ألوان الرقابة داخل السجن.. تعددت ألوان الفساد.. ومن هنا لابد من احترام الإنسان المصرى حتى داخل السجن.. ممكن أن تعدمه.. أو تقتله ولكنك حين ارتضيت أن يكون سجيناً فلابد من احترامه والبعد عن تعذيبه وإهانته.. لأن المسجون الذى تهان كرامته داخل السجن يخرج من أجل أن ينتقم من المجتمع..

*** معنى ذلك أن الولد الشقى.. يرى السجن ليس هو الوسيلة المناسبة الآن لعلاج ظاهرة الإجرام؟..**

- طبعاً.. وأقول لك ليه.. أنا الآن وبعد أن ترددت على جميع السجون الحربية منها والمدنية.. وبعد أن ذقت جميع أنواع الصفعات والشلايت ومارست الأشغال الشاقة فى صحراء الواحات.. أستطيع أن أقول وأنا مرتاح الضمير إن السجن ليس رادعاً وليس وسيلة للعقاب.. لقد اخترع الانسان السجن ليقضى على الجريمة، ولكن ها هو السجن قائم.. والجريمة موجودة يسيران معاً جنباً إلى جنب.. ولا يلتقيان، كأنهما شريط سكة

حديد يكملان بعضهما ولا يتعارضان.. واعتقد أن الإنسان لا بد أن يسعى لاختراع
بديل اذا اراد أن يقضى على المجرمين والإجرام..

وشىء آخر أن نزل السجون في بلد كمصر هم لا يتغيرون، بديل أن المجتمع ثابت لا
يتحرك والأوضاع السائدة فيه تجعل الناس أشبه شىء بقطع الشطرنج.. ثم شىء
آخر.. وأخيرا لقد كان القصد من بناء السجن كما هو مكتوب عليه بحروف بارزة أعلى
البوابات وعلى الأسوار «السجن تأديب وتهذيب وإصلاح» ولكن يبدو أن الأعمال
ليست بالنيات في مصلحة السجون.. لأن السجن تحول بالفعل الى تحطيم وتعذيب
وإفساد..

وتسألنى شخصيا ماذا استفدت من السجن؟.. وأقول لا شىء.. فالسجن ليس
تجربة مفيدة.. لأن التجربة الحقيقية في الخارج، حيث الحياة عريضة والحركة سريعة،
والاختبارات متعددة، ولكن السجن يوما واحدا ممل ومكرر وكثيب..

*** أستاذنا محمود السعدنى.. هل تاذن لى بسؤال.. عن كيفية معالجة الرأى
المعارض أو الرأى الآخر؟.. بعيدا عن عقوبة السجن..**

... اذا كنا نؤمن بالديمقراطية ، فلا بد أن نؤمن بالمعارضة.. ويكون لها نفس
حقوقها.. وأنا اذكر لك مثلا بسيطا.. أنا توا قادم من بريطانيا ووقتها كانت هناك
استعدادات لإجراء الانتخابات العامة.. ورأيت حزب العمال فى كل قنوات التلفزيون
يحاول فضح سياسة حزب المحافظين.. حزب الحكومة.. وقد حدث ذلك دون أدنى
تدخل من أية جهة من الجهات التابعة لحزب المحافظين الحاكم.. لإيمانهم أن وسائل
الإعلام هى ملك للشعب وليست ملكا لى حزب من هذه الأحزاب.. وبالتالي فإن الشعب
هو صاحب الاختيار، هذا ببساطة هو مفهوم المعارضة.. بعيدا عن شبح الاعتقال أو
السجن لأصحاب الأفكار المعارضة للحكومة.. والسجن فى هذه الحالة لا يكون إلا
للمعارض الذى يحمل السلاح.. أما المعارضة بالفكر والرأى والقلم والندوات
والمؤتمرات فلا غبار عليها.. ومسموح بها لكل أفراد الشعب.. ولكنك حين تحمل
السلاح فلا بد وأن تواجه بالسلاح.. هذه هى أزمى عصور الديمقراطية التى أحلم أن
تكون فى مصر.. فىكون لكل مصرى الحق فى أن يقول كلمته.. وأن يكون له أيضا حق
تكوين الأحزاب.. لأن الديمقراطية الحقيقية ليست حقا إلهيا لأحد فالحكم لمن يختاره

الشعب والجماهير.. وبناء على ذلك فيكون لكل مواطن حق إنشاء جريدة يقول من خلالها رأيه ورأى من يمثلهم.. مادام ذلك يتم في حدود القوانين واللوائح ووفقا للدستور والعرف الموجود..

وأحب أن أؤكد لك أننا رغم وجودنا على بداية الطريق الديمقراطي إلا أننا بالنسبة للدول العربية الأخرى متقدمين جدا في هذا الميدان.. وهذه شهادة لوجه الله.. إنها بالفعل واحدة لديمقراطية بالنسبة لبقية الدول العربية الأخرى.. إننا في مصر نعتبرها باريس الشرق العربي.. حتى في عهد عبد الناصر وعهد السادات.. ورغم قسوة ما يراه المسجون السياسي في مصر.. إلا أن ما يقاسيه لا يضاهي أبدا ما يتعرض له الإنسان العربي في سجون العراق وغيرها من الدول العربية.. وعلى وجه الخصوص في العراق في مختلف العهود والعصور..

ولسوف أضرب لك مثلا واحدا لما يحدث في مصر الآن.. إننا جميعا أصحاب رأى ومفكرين.. نختلف مع الحكومة وننتقدها بقسوة.. ومع ذلك لم يدخل واحدا منا السجن.. ولا نتصور أن هذه هي الديمقراطية التي نحلم بها.. إن هذا النوع من الديمقراطية هو أن يكون لكل فرد منا حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف.. وكذلك حرية الانتخابات دون التدخل من أي جهة من الجهات.. لأننا جميعا نعمل من أجل شعب مصر.. والغياص في الاختيار وصناديق الاقتراع.. وإننى أحلم بوصولنا لهذه الدرجة من الديمقراطية قريبا.. ووقتها لن نجد مسجوننا سياسيا أو معارضا صاحب رأى داخل المعتقلات، وسوف يقتصر هذا الأمر على الإرهابيين الذين يتحاورون بالسلاح.. وبالفعل تجد مثل هؤلاء الإرهابيين هم ضيوف السجون والمعتقلات في بريطانيا أم الديمقراطية الحديثة.. وأنا أقول لك أيضا إن ما حدث في الاتحاد السوفيتى من انهيار الشيوعية مرجعه غياب الديمقراطية..

* نعود إلى اللقطات الإنسانية في رحلة السجن الكبرى التى صاحبت حياة الولد الشقى.. ونسال..

* هل تعرف محمود السعدنى على شخصيات داخل السجن مازال محتفظا بصداقتها حتى بعد الخروج؟.. وما هى الشخصيات الغريبة التى مازالت عالقة فى ذهنه داخل هذا العالم؟..

– من هذه الناحية.. هناك أصدقاء كثيرون.. أذكر منهم مأمور ضرائب اسمه الأستاذ محمود.. وكانت هوايته الكبرى الأكل.. وما زالت علاقتي به قائمة حتى الآن نتزاور من حين لآخر.. فكان يحب الزبيب ولحوم البسط، ودائماً يوصيني بضرورة أن يبعثوا إلينا بما يحتاجه من هذه الأصناف في كل زيارة، وكان محكوماً عليه بثلاث سنوات.. وقد تركته داخل السجن وخرجت قبله.. وهو الآن محاسب كبير..

أما الشخصية الأخرى.. فهو شاب ظريف جداً تعرفت عليه داخل السجن حكم عليه في تهمة قتل عمد.. والقتلة في السجن عادة محترمون أو.. موهوبون.. لانهم غير مجرمين مثل النشالين وغيرهم.. ويحضرني هنا موقف غريب من جملة سمعتها بعد دخولي سجن القناطر بيومين.. فقد شاهدت اثنين من المجرمين في خناقة حامية.. وكل واحد يقول للآخر: «عيب دا احنا مجرمين ومش لازم نتخانق أمام الافندية دول».. هذه العبارة ظلت لاصقة في ذهني طويلاً.. واكتشفت أنها حقيقة فعالم المجرمين مختلف تماماً عن عالمنا نحن.. عالم المسجونين السياسيين وعالم القتلة الذين كثيراً ما يتميزون بالنظافة والنظام ولم لا؟..

فكل واحد منهم على الأقل محكوم عليه بخمسة وعشرين عاماً.. انها حياة كاملة.. ولا يعلم وقت الخروج أو متى سيكون؟.. وأذكر أن الولد اسمه فتحى.. ويعمل الآن بإحدى المحلات بشارع الصحافة.. بجوار أخبار اليوم ولتقى سويماً من أن لآخر.. ففى العيد تلتقى.. ويفطر عندنا في رمضان مرة واحدة..

*** لو أن أحد هؤلاء طلب منك أن تساعد أو تقدم إليه خدمة هل تسارع في تلبية هذا الطلب؟**

– مفيش كلام.. أساعده فوراً.. ليس هذا فقط بل العساكر وضباط البوليس الذين مازال بعضهم على علاقة بى حتى الآن.. وأنا أذكر أنه كان يحرسنا في فترة السجن الأخيرة حوالي تسعين ضابطاً ثلاثة وثمانين منهم يمكن أن تزنيهم بميزان الذهب.. و٧ ضباط يعنى تقدر تقول مش قد كده ومن هؤلاء الضباط الأوفياء على ما أذكر ضابط اسمه إبراهيم العزازى.. رجل بمعنى الكلمة.. وقد خرج على المعاش الآن برتبة لواء ويعمل في الكويت.. وفي كل زيارتي للكويت لا بد وأن يزورنى.. وأخر اسمه نبيل البرقوقي مدير كلية الشرطة للضباط المتخصصين السابق.. وثالث اسمه حسين

حميده.. وهو الآن برتبة لواء.. وقد التقينا منذ فترة قصيرة.. وللأسف لم أعرفه ولكنه عرفنى بنفسه وتبادلنا الضحكات والذكريات..

« وما هي ذكريات محمود السعدنى مع الجلادين داخل المعتقل؟

- ولا حاجة.. تقابلت مع بعضهم خارج السجن.. ولم نتبادل أى حديث.. وأنا أعرف واحدا منهم كان اسمه الأول حلمى وكان شخصية غير مرغوب فيها إطلاقاً من جانب كافة المسجونين السياسيين.. ورغم وصوله إلى أعلى المناصب.. إلا أننى اعتبره لا ينفذ فى أى منصب من هذه المناصب الكبيرة.. وقد تقابلنا فى مرة من المرات أثناء إحدى سفرياتى فى داخل مطار القاهرة.. والتقىنا لقاء فتور.. وبسبب الطبع كان يعرف أننى محمود السعدنى.. وثالث ضابط بوليس لا داعى لذكر اسمه.. أيضاً التقيت به.. وكان من هؤلاء الضباط الاشرار.. وكما ذكرت لك فإن أغلبية الضباط الذين تعرفت عليهم آنذاك كانوا ضباطاً اشرافاً ورجالة.. وظلت علاقتهم قوية ومستمرة حتى بعد انتهاء مدة العقوبة.. ولا بد من ذكر المرحوم فريد شينيشن مأمور سجن الواحات الذى لم يسمح فى فترة وجوده من قتل أى مسجون أو دفنه حياً.. كما كان يحدث قبله.. رغم قسوته فكان منصفاً وحازماً فى الوقت الذى مات فيه الكثيرون من مساجين سجن أبو زعبل فى ذلك الوقت.. هذا الضابط ظلت علاقتى به دائمة ومستمرة حتى وفاته.. حيث كان مديراً لأمّن الدقهلية ثم رئيساً لمجلس مدينة جمصة.. وعائز أقول لك إن أغلب هؤلاء الجلادين كانوا «صولات» ثم ترقوا.. وكان عليهم أن يثبتوا كفاءتهم فى ميدان التعذيب داخل السجن..

« لو قلنا.. كم كتاباً ألفه الأستاذ محمود السعدنى داخل السجن؟

- لم أكتب حرفاً داخل السجن..

« لماذا؟..

- أولاً.. أيام سجن عبد الناصر.. كان ممنوعاً علينا القراءة والكتابة.. وفى سجن القناطر أيام السادات.. كان علينا أن نقرأ فقط باعتبارى أحد المحكوم عليهم فى قضية الخيانة العظمى التى حدثت عندها من قبل.. وكان بالسجن مأمور أعرفه سابقاً.. لذا لم أجد مشكلة فى التعامل داخل الجدران العالية من هذه المرة معه.. وقد أبدى استعداداه لتلبية كل طلباتى من الشاي والقهوة والأطعمة.. إلا السورق والقلم.. فقد قسألها لى

بصراحة.. (ممنوع الورق والقلم.. وإلا هنزعل من بعض).. واتفقنا على عدم مطالبتى
بالورق والقلم.. واستجابتى الكاملة لكل أوامره داخل السجن طلبا لراحة العقل
والدماغ.. لكن مع ذلك كتبت بعض الكتب داخل السجن.. بس فى دماغى.. مثلاً كتاب
«الولد الشقى فى السجن».. كونت فكرته فى رأسى أيام السجن.. وكذلك كتاب «مصر
من تانى».. وعندما خرجت أفرغت ما فى رأسى من أفكار داخل الكتب التى صدرت فيما
بعد..

*** ولو سألنا .. كم كتاب.. أو كم فكرة كتبها الولد الشقى بعد خروجه من
السجن تأثرا بهذه التجربة .. ماذا تقول؟**

- هو كتاب واحد.. «الولد الشقى فى السجن».. وكتاب آخر أنشره مسلسلا بإحدى
المجلات الأسبوعية اسمه «الطريق اللى مشى» عن فترة سجن الواحات.. وقد كتبتة بعد
هذه الفترة الطويلة من منطلق نظرية خاصة بى وهى أن مثل هذه الأحداث لا بد وأن
يكتبها المفكر بعد فترة زمنية طويلة، لأنه بالفعل لن يبقى فى الذاكرة من هذه التجربة إلا
ما يستحق أن يكتب فوق الورق.. والباقى سوف ينساه..

*** هل يعتقد الكاتب الصحفي محمود السعدنى أن فترة السجن بالنسبة
للمفكر يعتبرها فترة سوداء فى حياته أو فترة بيضاء؟..**

- إذا كانت متعلقة بمسألة سياسية فهى نقطة بيضاء ووسام يعلقه فوق صدره..
مادام غير مجرم أو حرامى.. ولا مختلس أو قواد.. انها تجربة رهيبة جدا.. فلا بد من
أن تكرم المفكر وتقيم له التماثيل وتعطيه الأوسمة لا أن تضعه فى السجن.. وأحب أن
أقول لك إن جميع كتاب ومفكرى مصر جاءت عليهم فترة زمنية سجنوا جميعا إلا قلة
قليلة جدا.. مثل فتحى غانم وموسى صبرى ولطفى الخولى ويمكن أنيس منصور أيضا
ومصطفى أمين.. كل هؤلاء وغيرهم ذاقوا مرارة هذه التجربة..

ولعلك سوف تسألنى عن ارتباط أمر اعتقال هؤلاء المفكرين بتوقيع رئيس الدولة..
وأقول لك بأمانة.. انه زمان بالفعل كانت أوامر الاعتقال لا بد وأن يوقعها رئيس الدولة،
وربما يرجع السبب إلى سهولة هذه الطريقة لأن اعتقال أى انسان مسألة صعبة جدا..
بجانب انهم لا يعتقلون إلا المفكر صاحب الرأى المؤثر فى قطاع عريض من الجماهير

والذى له علاقة بأمن الدولة.. وهذا لا يعنى ان الكاتب أو المفكر كان له قيمة.. أبدا.. كانوا يقبضون عليه ويضربونه ويعذبونه بقسوة.. وكل ما فى الأمر أن رئيس الدولة كان ولا بد وأن يوقع على هذه الأوامر حتى يطمئن على عملية القبض على هؤلاء ويستريح من عناء أفكارهم ومشاكلهم لأنه كان يتصور أنهم أعداؤه.. ولا بد من التخلص منهم ومحاربتهم بشتى الطرق.. واسمح لى أن أقول لك إننى رغم حبى لجمال عبد الناصر فقد اعتقلنى كما رويت لك من قبل، ولم أكن ضده فى يوم من الأيام ، ولو تسألنى لماذا حدث كل ذلك.. أقول لك لا أعرف السبب أو الهدف..

وعلى فكرة.. أود أن أشير إلى حقيقة هامة هى أنه حينما تغيب الحرية وتسود الدكتاتورية.. يكثر اعتقال المفكرين.. ويزج بهم داخل السجون والمعتقلات.. ولو كنت مكان رئيس الدولة أو رئيس الحكومة أو حتى مكان وزير الداخلية.. وعرض على كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم.. ومع الفرض أن ذلك لم ولن يحدث.. فإننى كنت سوف أوقع على هذا الكشف بالتنفيذ لأننى أؤمن أنهم وهم فى أماكنهم هذه يرون أشياء لا نراها نحن الذين نجلس خارج السلطة.. وتقديرهم للأشياء غير تقديرنا.. ولو كنت مكانهم.. يجوز كنت أفكر مثلما يفكرون وربما أتخذ نفس إجراءاتهم.. وهذا للأسف من صنع الأجهزة المعاونة.. والحاكم الذى يعطى أذنه للأجهزة لا يكون عادلا.. وأضرب لك مثلا بعبد الناصر الذى أسلم قياد نفسه إلى تلك الأجهزة اللعينة التى قضت عليه فى النهاية.. لأن بعض الضباط من رجال الثورة تصورا أنفسهم أنهم جاءوا للقضاء على الملكية وإحلال ملكية أخرى.. هى ملكية كل منهم.. بحيث تحولوا فى النهاية إلى أمراء وباشوات مصر.. كله يذهب.. وكله يسرق.. وطبعاً كان على رأسهم المشير عامر.. ومكتبه وشلته.. وعاشوا ولا الملوك الأوائل.. وللأسف اتساق عبد الناصر معهم بكل قوته وعقله.. لأنه كان يعتبرهم مماليكه الخاصة..

ولا نبخس قدر أحد.. لذلك أقول إنه رغم ذلك.. كان من هؤلاء الضباط رجال لهم شرف وكرامة.. وعلى سبيل المثال شعراوى جمعه والذى اعتبره من أشرف الرجال الذين عرفتهم طوال حياتى ومحمد فايق وسعد زايد.. وعلى فكرة لو أن جمال عبد الناصر جاء من خلال جماهير الشعب لتغير موقعه تاريخياً رأساً على عقب.. ولترجع على عرش أبطال مصر الذين يشرفون تاريخ مصر طويلاً وعرضاً..

* أنا أعرف أنني قد أثقلت على الولد الشقى بالأسئلة ولكثرتها ولطولها.. لذا أرجوك العفو.. وأن تسمع لي بسؤال آخر يقول:

***ماذا لو كان محمود السعدنى مأمورا لسجن القناطر أو الواحات أثناء فترة اعتقال كاتب مثل محمود السعدنى..؟**

.. لو كنت مأمور السجن في فترة اعتقال محمود السعدنى.. كنت أول حاجة سوف أقوم بها هي أن أضرب محمود السعدنى.. وتعرف لماذا؟ لأننى في منصب المأمور.. وشغلته في الأصل أن يضرب المسجونين لأن السجن في الأصل مؤسسة عقابية.. يعنى مهمتى كمأمور سجن أن أضرب المعتقلين كعقاب لهم..

وعلى الفكرة العقاب ينتج عقابا وللأسف الذى ينتج هذا العقاب ليس المأمور أو المدير.. ولكن عساكر السجن.. الذين اعتبرهم أسوأ فئة خلقها ربنا.. وقد عرفت أحدهم.. وكان يدعى «على حرب» الله يرحمه بقى دلوقت.. كان مشهورا بعصاه الغليظة وقلبه الميت.. واكتشفت وأنا داخل السجن أن أغلب هؤلاء العساكر من أيام زمان.. تقدر تقول من أيام حيدر باشا.. بل أقدم من ذلك كمان..

ولهؤلاء العساكر عذرتهم.. فقد كان الواحد منهم يتقاضى مثلا ١٢ جنيهها في الشهر.. فكيف كان يعيش.. وأنا أذكر لك بالمناسبة أنهم أيام عبد الناصر.. اتفقوا مع خبير يوغسلاقي لدراسة أحوال السجون المصرية فبعد أن لف على كل السجون كتب تقريرا يقول فيه: أنا حتى هذه اللحظة لا أعرف كيف يعيش المسجون المصرى داخل هذه السجون؟.. وأنا أقترح أن تتركوها كما هي الآن.. لأنه لا حل لها.. إن السجون في مصر سيئة جدا ومسئولية خطيرة جدا.. ولا بد من نظرة جذرية لحالة السجون حتى لا تفرز مجرمين آخرين.. وحتى تؤدي دورها في علاج المجرم بدلا من أن تساعده على العودة إلى عالم الإجرام..

كما يكون دورها أن تحول المجرم إلى مواطن صالح يخدم المجتمع بدلا من أن تنتقم منه.. لأننى اعتبر أن هذه المشاكل هي أخطر ما يواجهنا على طريق التنمية.. فكل واحد منا معرض أن يدخل السجن لأي سبب وفي أى لحظة.. فإذا دخله بالوضع الذى كان عليه.. حتما سيدخل مرة أخرى وثالثة ورابعة.. ولا تتخيل أنني حين أكون مأمور

سجن سوف أصلح.. أبدا.. لأن المأمور أو المدير يعمل وفق لوائح وقوانين مفروضة عليه..

ولعل اسمه يدل على وظيفته.. إنه يا سيدي مأمور.. ووفقا لذلك لا بد من تغيير هذه اللوائح والقوانين.. ولا تتخيل أنه توجد بهذه اللوائح ما يسمى بعلاوة الإجرام.. تصور يكافئون المسئول داخل السجن بعلاوة وزيادة في المرتب كلما زاد اجرامه.. وأنا أعتقد أن مثل هذه الصور الآن بدأت تتغير كثيرا.. كما أعتقد أن هناك رغبة أكيدة لدى المسئولين لتطوير سجون مصر وتحويلها إلى أماكن منتجة تساعد المسجون في حياته داخل السجن وخارجه.

* وهل يوجد في مصر الآن مسجون سياسي؟..

— أبدا.. فعلا مصر الآن خالية والحمد لله من المساجين السياسيين.. ولا أعتبر الموجودين الآن داخل السجن من أفراد جماعات التطرف من هذا الصنف.. لأننى سبق وقلت إن المفكر السجين السياسى هو الذى لا يستخدم السلاح.. وإذا لجأ إلى السلاح فإنه يتحول إلى إرهابى.. وبالتالي لا بد من مقاومته بالسلاح أيضا..

وهذا القول لا ينطبق على أناس بعينهم أقول لك أى واحد يحمل السلاح فقد خرج من تصنيف المسجون السياسى وصاحب الرأى، وتحول إلى مقاتل وإرهابى.. ولعلمك لا توجد جماعة عبر التاريخ حملت السلاح ووصلت إلى السلطة.. لأن السلاح يولد السلاح.. والنتيجة هى الحرب.. ويسا قاتل يا مقتول.. التاريخ يقول ذلك.. إننى أبعثها رسالة من خلال هذا اللقاء أقول فيها لا بد أن نتحاور باللسان والقلم..

الحكاية الثالثة يروها د. عبد الصبور شاهين:

لم يستطع السجن أن ينزع مابداخلي من أفكار

كنت ومازلت مثل المئات غيري.. بل إن شئت قل مثل الآلاف من البشر الذين يتابعون بين الحين والآخر أستاذنا العالم الجليل الدكتور عبد الصبور شاهين ويلاحقون علمه الغزير الذى يفيض علينا وينقله إلينا من عدة مناسفد، ما بين منابر المساجد وموجات الإذاعة وشاشات التليفزيون.. وكانت علاقتى به قبل إجراء هذا الحوار مثل هؤلاء الذين يتشوقون إلى متابعة أعماله وسماع صوته الرزين الذى يدل على أصالته وعلمه وشدة إيمانه..

وفجأة احتل هذا العالم الجليل كل كيائسى.. وبات شغل الشاغل لئس من حيث علمه وأعماله ومؤلفاته المتنوعة.. بل من حيث هو إنسان عاش وقاسى وجرب.. وأيضاً دخل السجن.. فما أقسى هذه الكلمة على النفس.. ولكنها الحقيقة المرة التى لفحت وجهى.. وأنا أمد هذه السلسلة الطويلة من الحوارات.. وتساءلت فى داخلى.. عن البداية لأننى وكما سبق أن قلت.. إن أسخف عبارة اكتشفتها منذ تفكيرى فى إجراء هذه الحوارات.. أن أقول لضيفى.. العالم الجليل أو الصحفى الكاتب المفكر أو أستاذ الجامعة حامل مشاعل العلم والنور كم مرة دخلت فيها السجن؟

ومنذ نجاحى فى الحصول على تليفون منزله.. وأنا أراجع نفسى وأحاول أن أختار الكلمة تلو الأخرى... وتوكلت على الله فى القيام بالمحاولة الأولى.. وجاء صوت الدكتور عبد الصبور شاهين رجل الدين المثقف عبر الأسلاك الصماء.. هادئاً فيه رقة الأب نحو ابنه.. وأقولها بصدق لقد شجعنى على المضى قدماً فيما أقدمت عليه.. وعرضت على مفكرنا الجليل فكرة الحوار.. ومضمون موضوعه والهدف منه.. صحيح أننى لم

أحصل على موافقة سريعة.. ولكنى أخذت وعداً بالاستجابة لفكرتى حين معاودة الاتصال.. وقد كان.

ومما ساعد على سرعة إجراء هذا الحوار.. أننى فى حديثى عبر التليفون ذكرت للدكتور عبد الصبور.. أن أحد أصدقائه الأعماء هو الذى حكى لى جزءاً من حكايته فى السجن.. عندئذ خرج صوته الهادىء يضحك.. مصمماً على أن يرانى كى يحكى لى هو التجربة.. واتفقنا على موعد اللقاء.. وكان اللقاء فى منزله القابع فى بداية شارع الهرم ناحية محافظة الجيزة.. وداخل شقته حيث الأثاث الأنيق والاستقبال الحافل وأكواب الليمون التى قوبلت بها عند باب الصالون.. والجلبات الأزرق الذى يفضل أن يجلس به عندما يفرغ من عمله وعلمه..

وبعد لحظات الاستقبال المعتادة.. انتقلنا إلى الصالون الكبير الذى تحيط به تحفا إسلامية نادرة.. كان أبرزها سجادة باكستانية كثيراً ما حدثنا عنها أستاذنا العالم الجليل.. وعندما فكرنا بنية تصويره كى تكون الصورة مصاحبة لحديثه معنا.. انتقل على الفور إلى حجرة نومه.. حيث استعد ببدلة جميلة.. وهنا اكتملت كل مظاهر الود والحب.. وبات الاستعداد وشيكاً من أجل تشغيل شريط التسجيل كى يسجل لى ولكم وقائع كلمات هذا الحوار.. وتجربة أحد علماء مصر ومفكرها مع السجن والاعتقال..

فى هذه المرة بالذات.. وعند تسجيل هذا الحوار.. وجدت نفسى أتحدث بكلمات اعتذار كثيرة لإحساسى أننى قد أثرت فى نفس محدثى شجون الماضى التى ربما عفى عليها الزمن.. وخشيت أن أصيب بداخل مفكرنا الألم وإعادة نزيق جرح قديم.. وعلى ذلك تصورت أن مثل كلمات الاعتذار هذه ربما تخفف من وقع ما سوف يأتى من أسئلة.. وللمرة الثانية أحسست بصلاية الدكتور عبد الصبور شاهين وترجييه الزائد عن الحد من أجل أن أبدأ الحديث.. وحتى لا يشعرنى بمزيد من الحرج يادرنى قبل أن أسوق إليه أسئلة الحوار..

فى الحقيقة هناك أمران.. الأمر الأول: أن ما كان هو من اختيار الله سبحانه وتعالى.. وما اختاره الله هو الخير.. حيث قال أحد المريدين لشيخه أسأل الله لك العافية.. قال له إن العافية ما اختار الله سبحانه وتعالى ورسولنا الكريم حينما سسأل ربه العافية ممن عليه بأكلة خبير.. وهى الشاة المسفومة التى قيل إنها

أحد أسباب وفاته صلى الله عليه وسلم..

أما الأمر الثاني أن كثيرين ممن أعرفهم قد ذاقوا وييلات السجن أكثر منى.. ولا يحبون أن يتحدثوا عنه.. وأنا شخصياً أعذرهم والسومهم لأن دخولنا السجن لم يكن لعب فينا ولم يكن لقضية شخصية.. حتى نقول إننا لن نتحدث خوفاً من الرياء وضياح الأجر.. لقد كان دخولنا السجن لقضية البلد.. لقد كانت قضية فكر هدفها رفض الدكتاتورية.. ومن أجل ذلك ينبغي أن يعرف شباب مصر أن بها رجالاً وعلماء قد رفضوا العيش في ظل الدكتاتورية وهي في عنفوانها.. وأن هؤلاء الرجال مازالوا رجالاً.. لم يستطع الطاغية أن يؤثر على قدراتهم وعطائهم الفكرى ماداموا قادرين على العطاء وإبداء الرأى والفكر..

ليسمح لى أستاذنا الداعية الإسلامى والمفكر الكبير الدكتور عبد الصبور شاهين أن أقول إن الألم ما زال يعترضنى حين أسأل بصراحة كم مرة دخل فيها أستاذنا السجن؟

- ثلاث مرات.. أول مرة فى عام ١٩٥٤ وبالضبط من أكتوبر حتى منتصف ديسمبر عام ١٩٥٤.. أيامها كنت فى الليسانس وكان عمري وقتها ٢٦ عاماً.. وقد سبق اعتقالى فى تلك الفترة هروب طويل فى الشوارع.. خوفاً من أهوال السجن.. كنت أعيش فى القاهرة، وبالضبط فى الإمام الشافعى وأهرب فى عابدين.. والسبب يرجع إلى انتمائى الى الإخوان المسلمين.. وفور حل الجماعة فى عام ١٩٥٤ بدأت مطاردة العناصر النشطة بالجماعة وكنت وقتها من هذه العناصر.. حيث تم إغلاق مسجد الشاطبى الذى كنت أخطب فيه.. وبذلك أصبح لا موضع لى إلا السجن، فهربت..

ومن كثرة حالات هروبي وتنقلى هنا وهناك أشفت على من كنت أهرب عندهم، لإحساسى بما لديهم من حرج حين أبيت عندهم، فعدت إلى بيتى فى الإمام الشافعى وهناك وجدت المخبر ينتظرنى فاستسلمت له.. وذهبت معه إلى السجن.. واعتقلونى لمدة أربعة أيام أو خمسة على ما أنكر.. .. وحين خرجت من السجن دخلت امتحان الفصل الدراسى الأول، فى أول تجربة لتقسيم سنوات الدراسة إلى عدة فصول.. وكان الهدف من ذلك أن يبتعد الطلبة عن السياسة.. وهذا ما كانت تهدف إليه حكومة عبد الناصر.

أما الاعتقال الثاني فكان في ٢٥ مارس عام ١٩٥٥.. وكنت الأول على دفعتي في الفصل الدراسي الأول.. وبقيت بالسجن إلى آخر فبراير عام ١٩٥٦.. ثم دخلت الفصل الدراسي الثاني.. فتخرجت من دار العلوم في نفس العام متأخرا عاما عن زملاء الدفعة بسبب هذا الاعتقال.. ومكثت خلالها أحد عشر شهرا ما بين سجون القلعة وسجن قنا.. حين أخرجوا تجار الحشيش ووضعونا بدلا منهم.. أي والله.. لقد كنا نشم رائحة الحشيش داخل الزنزانة.. من تأثير وجود هؤلاء التجار قبلنا.. وفي المرة الثالثة سجنتم عام ١٩٦٥.. وكنت وقتها قد حصلت على الدكتوراه.. ومكثت بالسجن آنذاك أربعة أشهر.. وكانوا يطلقون على حينئذ معتقل بدرجة دكتوراه..

*** ما هو تأثير تجربة السجن خلال هذه المرات الثلاث على أستاذنا المفكر الدكتور عبد الصبور شاهين.. أولا كمفكر وثانيا كإنسان.. وثالثا كمصري؟ ***

.. - أولا يجب أن نفرق بين حالتين.. حالة أن يكون الإنسان داخل السجن وحالة أن يرى الإنسان نفسه داخل السجن وهو خارج السجن فالرؤية هنا تختلف.. فأنت داخل السجن تعيش بإحساس غريب يجعلك لا تريد أن تخرج منه.. والسبب يرجع إلى أننا كنا نشعر ونحن داخل السجن أننا في أمان.. وقد لا ينطبق هذا الإحساس على المرة الأولى حيث كنت محتجزا بقسم الخليفة.. ولكن في المرة الثانية وهي مدة الأحد عشر شهرا تلك التي قضيتها داخل الاعتقال بدون سبب أو اسم أو عنوان أو أي هوية.

وأنا أتذكر حين وقع الاعتقال.. أنهم قد دخلوا إلى بيتي ليلا وأنا أذاكر تحت لمبة جاز وطلبوا مني الذهاب معهم لمدة خمس دقائق.. وبعدها استمرت الحبسة لمدة أحد عشر شهرا.. وفي المرة الثالثة على ما أذكر اعتقلت وأنا كنت مشرفا على أحد معسكرات الطلبة بحلوان.. وقتها كنت أستاذنا بكلية دار العلوم وكنت ممثلا لها في الإشراف على هذا المعسكر الذي أقيم تحت رعاية الاتحاد الاشتراكي.. واعتقلت في ظروف اعتقال الداعية الإسلامي المرحوم سيد قطب.. لاحظتها كنت أبيت تحت الخيمة.. وفي الصباح جاءوا حيث أنام.. والقوا القبض على.. وأنا سوف أقول لك شيئا مضحكا بهذه المناسبة.. إن هذا المعسكر قد أقيم كما ذكرت تحت إشراف الاتحاد الاشتراكي، واشترك فيه الطلبة وأساتذة الجامعة من الذين تصوروا أنهم يؤيدون الثورة المباركة ومبادئها

الاشتراكية.. وحقيقة لا أعرف كيف اختاروني وعلى أى أساس .. ربما جاءوا ببى إلى هذا
المعسكر كى يكون من السهل عليهم اعتقالى وبعد أربعة أشهر أفرجوا عنى..

أعود وأقول لك.. إننى فى تلك الفترة كنت أرحب بالسجن أكثر من وجودى خارجه..
لإحساسى بالأمان وأنا بداخله .. وقتها التقيت داخل السجن خاصة الاعتقال الأخير..
بالاستاذين كمال رفعت والدكتور عبد العزيز كامل.. وقد جىء بهما من أجل القيام
بعملية غسيل مخ لكل المعتقلين.. وطبعاً وأنا منهم رغم أننى وكما سبق أن قلت لك كنت
حاصلاً على الدكتوراة.. وعندما أحسوا بذلك.. قدموا لنا الاعتذار.. وبعد نهاية اللقاء
طلبت منهم أن يتوسطوا لدى المسئولين حتى لا يفرجوا عنى.. رغم أننى كنت فى غاية
الشوق للخروج.. فأثار طلبى هذا تعجبهم واستياءهم عندئذ أكدت لهم.. أننى حين
أخرج سوف أعيش فى سجن آخر.. إذن أفضل العيش هنا فى هذا السجن الصغير بدلا
من السجن الكبير.. هذا السجن الذى تعودت عليه.. لأننى حين أخرج سوف يراقبوننى
ويضايقوننى فى حياتى وفى معيشتى.. بجانب أننى سوف أشعر بعزلتى السياسية..
لأننى كنت محروماً من الإدلاء بصوتى..

خلاصة القول.. كنت سوف أفقد حريتى.. إذن أنا هنا أعيش فى أمان أكثر.. بعيداً عن
الشعور بالمطاردة.. وكنت قد جربت تأثير ما بعد الاعتقال على حياتى فى الفترة التى
أعقبت المرة الثانية التى اعتقلت فيها عام ١٩٥٦ وهى آثار خطيرة جداً..

مثلاً.. كنت فى الفرقة الرابعة من الليسانس.. وحين تخرجت التحقت بكلية التربية..
وكنت وقتها فى حاجة إلى أن أعمل كى أعيش وعلى ذلك حاولت كثيراً أن أجد عملاً..
فكنت أتقدم للمسابقات التى يعلن عنها فى الوظائف الحكومية.. ورغم أننى كنت أتفوق
على زملائى المتقدمين الآخرين فى نفس الوظيفة.. إلا أنهم كانوا يرفضون تعيينى.. وفى
مرة من هذه المرات تقدمت لمسابقة مترجم بالإذاعة عام ١٩٥٧.. وحصلت وقتها على
المركز الأول.. ومع ذلك رفضوا تعيينى..

إننى وقتها كنت متفوقاً فى اللغة الفرنسية التى أتقنتها فى فترة اعتقالى.. واستطعت
وأنا داخل السجن أن أترجم بعض الكتب الإسلامية من اللغة الفرنسية إلى اللغة
العربية، وعلى وجه الخصوص للمفكرين الجزائريين.. ومرة أخرى دخلت امتحان
الملحقين السياسيين بالجامعة العربية رغم أننى كنت من خريجي دار العلوم لأننى

دارس للحقوق السياسية ومتفوق كذلك في اللغة الفرنسية.. وأيضا لم أوفق في الالتحاق بهذا العمل.. وقد تتعجب حين أقول لك إنه في المرة الأولى التي دخلت فيها امتحان الإذاعة.. خرجت علينا مجلة الإذاعة والتليفزيون بأسماء الناجحين في الامتحانات.. وكنت أنا الأول ثم أمين بسيوني وآخرون..

وقبل أن يقرروا تعييني.. طلبوني بالمباحث العامة.. من أجل أن أعلن تسويتي وتنصلي من أفكار الإخوان المسلمين.. حتى يوافقوا على هذا التعيين.. فرفضت.. ورفضوا هم كذلك.. بل أبلغونني بأن هناك أكثر من ذلك.. فما دمت متمسكا بأفكاري هذه فلن أعتز على أي عمل في أي مكان في مصر.. خوفا من تأثيري المدمر على الثورة على حد تعبيرهم لقد أصدروا حكما بإعدامي فيما يتعلق بلقمة العيش..

من هذه اللحظة كان على أن أعتمد على نفسي لأنني وقتها كنت متزوجا وأعمل.. وماداموا قد أعلنوا عن هذه النية فلا رجعة عنها من جانب حكومة الثورة.. وأحب أن أؤكد لك أنني في هذه الفترة رغم اشتغالي بالفكر السياسي إلا أنني كنت مهتما بالعلم ومتفوقا فيه.. خاصة في اللغات الأجنبية وهي التي نفعتني في هذه الشدة من منطلق إحساسي أن رجل السياسة لا بد وأن يتفوق في مجالات حياته المختلفة.. ولإيماني بأن الزعيم يجب أن يكون أكثر الناس ثقافة وفكرا بخلاف ما اعتدنا عليه طوال التاريخ من أن يكون الزعيم متخلفا من منطلق أن الزعامة لا تفرضها غوغائية الشوارع.. بل تفرضها إمكانياتهم وكفاءتهم ودورهم في خدمة الآخرين..

ولا تتصور تأثير هذه المواجهة على حياتي.. حين أبلغونني بهذا القرار.. من ناحية كان المفروض على وقتها أن أخرج من مصر مثلما خرج غيري من العلماء والمثقفين أمثال الدكتور يوسف القرضاوي وآخرين.. أخرج هروبا وبحثا عن لقمة العيش.. ولكنني أصررت على البقاء رغم هذا التحدي ولن أتترك مصر.. وعلى ذلك فكرت في الالتحاق بأي عمل لا تتحكم فيه سلطة الحكومة.. فبعد تجربتي مع الإذاعة والملحقين السياسيين.. عينت مدرسا فرفضوا.. وعينت معيدا أيضا رفضوا.. بل طردوني.. و أكثر من ذلك تم ترشيحي للسفر خلال أربع بعثات دراسية في خارج مصر.. وأيضا رفضوا هذا الترشيح ولم يوافقوا عليه..

ولا تتخيل حين أقول لك مدة هذه الحرب التي أعلنتها على حكومة ثورة ٢٣ يوليو..

لقد بدأت منذ عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٦٥ تسع سنوات كاملة والحرب دائرة ضنرى وتقودها سلطات حكومة الثورة.. لقد طردت بالفعل من أربع وظائف.. حتى قيد الله لى الرجل الطيب المرحوم الشيخ أحمد حسن الباقورى الذى رغم عدم معرفتى به وعدم لجوئى إليه من أجل الوظيفة، فتوسط لى لى لدى المسئولين حتى وافقوا على تعيينى بالجامعة مرة أخرى.. وكما قلت من قبل إننى كنت قد قررت الاعتماد على نفسى والتكسب من الترجمة حيث معرفتى بالطيبة باللغة الفرنسية.. وأنا أذكر أن أول كتاب ترجمته كان بعنوان «شروط النهضة» للمفكر الجزائرى مالك بن نبي.. ذلك الكتاب العظيم الذى ألفه هذا الداعية باللغة الفرنسية.. ثم ترجمت له الكتاب الثانى وخرج بمقدمة كتبها المرحوم الرئيس أنور السادات والكلام ده كان عام ١٩٥٧ فى ديسمبر ١٩٥٧..

أما الكتاب الثالث الذى ترجمته فى ذات السلسلة فقد صدر عام ١٩٥٨.. وكنت وقتها قد عدت من جديد الى التدريس بعد أن طردونى منه وبعد أن توسط المرحوم الشيخ الباقورى لدى زكريا محيى الدين.. ومن جديد بدأت أكافح من أجل العودة الى الجامعة .. وبالفعل عينت معيدا فى سبتمبر عام ١٩٥٨.. وكان عندى أربعة كتب مترجمة من الفرنسية..

وفى هذه المرحلة كنت قد ملكت ناصية الترجمة كفن.. ونذرت نفسى آنذاك لاستخدامها فى نقل الكتب الإسلامية فى الوقت الذى كان فيه من المحرمات أن يكون لديك كتابا عن الإسلام.. وقد وفقنى الله حيث كان الداعية الإسلامى الجزائرى من بين الرجال الذين كانت ترضى عنهم حكومة الثورة فى ذلك الوقت، وبالتالي كانت كتبه هى الكتب الإسلامية الوحيدة التى كان من المسموح اقتناؤها وقراءتها.. وكنت أرى أن ترجمتى لهذه الكتب الإسلامية يمكن أن تعوض الشباب المصرى عن ضياع الكتب الإسلامية ومحاربتها من جانب حكومة الثورة..

لقد كان الداعية الإسلامى مالك بن بنى هديق الضابط كمال الدين حسين.. وحين أصل بك الى الحديث عن تأثير تجربة عام ١٩٦٥ كأخر مرة دخلت فيها المعتقل.. أقول لقد كانت فترة اعتقالات عن طريق الكشوف بمعنى أن الزعيم عبد الناصر كان يزور روسيا فى تلك الفترة فوقف على باب الكرملين رحمة الله عليه أو لعنة الله عليه.. وأعلن

للصحفيين أنه تم اعتقال ٦٥ ألف مصري الليلية الماضية.. وأنه استطاع أن يجمعهم في ليلة واحدة وأنه قد قرر أن يضعهم في السجن الى الأبد.. ولن يخرجوا من المعتقل إلا بوفاة.. ويبدو أنه لم يكن يدري أن الله كان بسمعه.. فلم يطل به المقام وعجل بنهايته كما عرفناها جميعا..

لقد تأثر الرئيس عبد الناصر كثيرا بموجات الإلحاد والشيوعية التي كانت سائدة في ذلك الوقت للدرجة التي أعمته عن رؤية مشاكل شعبه وأهله.. بل إنه قد ابتعد في تلك الفترة عن مناهج الله وتعاليم الدين الإسلامي.. واتضح ذلك كثيرا فيما اتخذه من قرارات كانت ضد هذا الشعب المسكين.. والسبب أيضا يرجع إلى هؤلاء الذين أحاطوا به وأوهموه بأن الشيوعية هي الحق.. هؤلاء لا يزال بعضهم يعيش بيننا حتى هذه اللحظة.. والحمد لله فقد أمد الله في أعمارنا حتى رأينا سقوط الطاغوت الأصغر.. والطاغوت الأكبر حيث انهارت دولة الشيوعية ورحلت إلى غير رجعة..

* كم كتابا أفتتموه داخل السجن أو خارجه تأثرا بهذه التجربة؟

— أنا لم أعمل في مجال السياسة كمحترف ولا كتبت كل ما عندي ولكنني قد تفرغت للعلم.. وجعلت ما عندي من أمور السياسة يخدم طبيعتي العلمية.. وأعتقد أنه قد أن الأوان بالنسبة لي أن أجلس كي أكتب هذه التجربة.. وسيكون مجيئك إلينا هنا هو البداية.. ولم تكن فترة السجن كلها اطلاع وتحصيل فقط.. بل كنت وقتها أترجم كتبا إسلامية.. وأرسلها إلى الخارج كي أنشرها.. أيضا كانت فرصة السجن طيبة كي أتقن اللغة هذه من منطلق إحساسي بأهمية اللغات بالنسبة للدعاة الإسلامي.. وندرة وجود الفكر الإسلامي الذي يعرف لغة الآخرين.. وهذه كانت في رأيي كارثة.. فكيف يكون الداعية الإسلامي جاهلا بلغات القوم الآخرين.. والدعاة في مصر بالذات كانوا لا يتمتعون بهذه الصفة الهامة.. واللغة الفرنسية كانت في رأيي هامة جدا لارتباطها بالعديد من الكتب الإسلامية التي كتبت بها سواء في شمال أفريقيا أو في أوروبا.. وكانت الدافع بالنسبة لي من أجل إتقان هذه اللغة هو نقص العارفين بها آنذاك وإحساسي بأنها تخدم الدعوة الإسلامية.. وحين نعود من جديد للرد على سؤالك بخصوص تسجيل تجربتي في السجن.. أقول لك إنني من كثرة مشاغلي في مجال الدعوة

الإسلامية لم أفكر في هذا الأمر.. ولكننى وكما سبق أن قلت أنفا أنه مشروع قائم إن شاء الله..

حتى المقالات لم أضمنها هذه التجربة من قريب أو بعيد.. وقد تتعجب حين أقول لك إن هذه أول مرة أتحدث فيها عن تجربتى في السجن والاعتقال، وصدقنى لم أتحدث عن هذه التجارب لأحد غيرك من قبل، ولا أحب أن أصرح بها بعد ذلك.. ولكننى على ما أتذكر في مرة من المرات قد ألفت فصلا في أحد كتبى عن لغات أهل الإجماع الذين التقيت بهم داخل السجن ولكنه كتاب بشكل علمى.. سجلت من خلاله بعض الالفاظ التى كنت أسمعها من هؤلاء القوم الذين عاشرتهم طويلا خلف الجدران العالية..

ولو قلنا بالنسبة لرأى المفكر الاستاذ الدكتور عبد الصبور لماذا يسجن المفكر؟..

- لأن أخطر شيء على الطاغية الدكتاتور الذى لا يملك شيئا سوى قوته بنفسه وبمن حوله.. وثانيا أنه يمتلئ خوفا ورعبا ممن يملكون العقول.. عندئذ يصبح شغله الشاغل القضاء على عقل الأمة ومفكرىها ولعلنا نميز هذه الحقيقة فيما يخص عصر الرئيس السادات.. الذى كان رحمة الله عليه عندما مات عبد الناصر قد تولى السلطة بفكر آخر.. حيث كان الوجه الآخر من العملة.. ففى مصر بعد الثورة ظهرت العملة بوجهيها الأول وجه الدكتاتور أيام حكم عبد الناصر.. والوجه الثانى حين تولى مسئولية الحكم الرئيس السادات وسعى بكل ما يملك من أجل مقاومة فكر الدكتاتور والقضاء على زبانيته..

فجاء هذا الوجه مقاوما لهذا الفكر المتخلف.. وأنا أقول لك بمناسبة الحديث عن الرئيس عبد الناصر أن كل الذين يدافعون عنه، إنما يدافعون عن أنفسهم لأنهم مدانون مثله فيما اقترفته أيديهم حين ساد وجه الدكتاتورية اليفيضى.. ولأنهم فى الحقيقة هم الذين صنعوا بداخله الدكتاتور باستخدام أساليب النفاق والتفعية.. ولو كان هناك فكر حر لما خلقوا بداخل هذا الرجل الدكتاتور الملعون.. بل ربما قد تحول إلى رجل مفكر وعادل وإنسان يعمل لصالح شعبه ولصالح أمته.. لكن المشكلة أنه قد وجد فى الفكر صعوبة.. وأفهموه أن الدكتاتورية أسهل.. وانظر إلى الفرق بين الراعى الذى يتعامل مع قطيعه باللين والحسنى حتى يستطيع أن يتحكم فيما يرعاه..

أما الدكتاتور الجزائر.. فليس أماسه سوى العقاب حتى يهرب قطعانه.. ويتغلب عليهم.. وأعتقد أن الفرق كبير وواضح.. وطبعاً في هذا الجو الإرهابي نجد الفكر يتراجع أو على الأقل يختفى لحظات.. ثم سرعان ما يعود.. والدكتاتور يفهم ذلك جيداً.. ولهذا يبادر من تلقاء نفسه من أجل القضاء على هؤلاء المفكرين حتى لا يعودوا من جديد.. ويكون رحيلهم بغير رجعة توجع قلبه وتسبب له المتاعب.. فالدكتاتور يحاول أن ينعم بحياته في غياب هؤلاء المفكرين..

لذا عادة ما يكون مصيرهم القتل والاعتقال والنفي وأشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل.. ولكن لله حكمة عظيمة جداً.. فإله سبحانه وتعالى حين يجعل للإنسان محنة يجعل له في طيها منحة.. وأعطيك مثالا واحدا أيام عبد الناصر.. حين قبضوا على المفكر والداعية الإسلامية سيد قطب.. كانت فرصة كي يستكمل دراسته الهامة التي صدرت فيما بعد تحت عنوان « في ظلال القرآن » وبقي نشر الكتاب.. فكان لا بد وأن يسخر الله الطاغية كي يكون سبباً في نشره.. فأخذوا الداعية سيد قطب وأعدموه.. فيتحرك تفسير سيد قطب من مصر إلى العالم كله..

وبالفعل قد تمت ترجمته الى كل اللغات الأجنبية في أوروبا وفي العالم الإسلامي كله، ولينتشر سيد قطب في آفاق العالم كله أكثر مما كان عليه وهو حي.. ودعني أقول لك.. هل هذه من حسنات عبد الناصر؟..

إن عبد الناصر فعلاً له دور كبير في نشر فكر سيد قطب وفكر غيره من علماء الدين الإسلامي دون أن يدري أو يتدخل..

« ما هي أهم اللقطات الإنسانية التي عايشها مفكرنا الكبير الدكتور عبد الصبور شاهين داخل السجن خلال هذه المرات الثلاث.. وما هي أهم الشخصيات التي تعرفتم عليها هناك؟.. »

- أولاً اللقطات الإنسانية كثيرة جداً أهمها أن السجن هو في الحقيقة مطبخ يوحد بين المسجونين على اختلافهم.. وأنكر أنني كنت وأنا في سجن مصر أتعاطف مع الشيوعيين مع العلم الأكيد بأنهم أعداء الدين وأعداء الإنسانية..

وكان من أهم أصدقائي في السجن مثلاً الكاتب الكبير المرحوم الدكتور يوسف إدريس الذي سجنته معه في عام ١٩٥٥ .. حيث كان يعيش في دور (٩) بسجن مصر

بالزنزانة رقم (٤) وأنا كنت في دور عشرة وفي الزنزانة رقم ١٩٠٠ وكانت تقابل زنزانة يوسف إدريس.. وكنا دائما نتبادل التحيات ونتجالس سويا حتى داخل الزنزانة.. وكان معه على ما أذكر طبيب يدعى حمزة البسيوني.. ليس الجلاد اللسواء البسيوني قائد السجن الحربى.. بل طبيب يحمل نفس اسمه.. وقد استمرت علاقتنا متصلة حتى بعد الخروج من السجن.. وعلى ما أذكر أننى دعوته في مرة من المرات في عام ١٩٧٠ كى يتحدث في برنامج كنت أعده بالتليفزيون اسمه « ندوة العلماء »..ولكن ظروفه الصحية لم تساعد على تلبية هذا الطلب.

لقد كان يوسف إدريس رجلا عاقلا.. ولم يكن شيوعيا.. بل هو فنان.. يبحث في كل شىء مختلف في الحياة.. ولذلك كنت على ثقة من إمكانية تقديم الدكتور يوسف إدريس كعالم إسلامى يتحدث للناس في ندوة العلماء.. كما أتذكر ونحن نحضر سويا لهذه اللقاءات أن الدكتور يوسف إدريس قد اختار بعض الشخصيات المعروف عنها الميول الشيوعية.. وأكد أنهم في أعماقهم علماء مسلمين وليس كما هو معروف عنهم.. وبالفعل تحول بعضهم الآن إلى دعاة للإسلام في كل مكان:

وانذكر أن أحدهم يدعى الدكتور عودة وهو شقيق الأستاذ عبد القادر الشهيد الإسلامى العظيم.. وكذلك ذكر لى الأستاذ أنور عبد الملك من أجل استضافته في برنامج ندوة العلماء.. وعرفت من الدكتور يوسف إدريس أنه يتحدث عن الدين الإسلامى بسماحة العالم الجليل.. وعرفت من الدكتور يوسف كذلك أن معظم الشيوعيين المصريين لم يكونوا كذلك إلا من أجل الانتصار في بعض القضايا.. وحين يبلغون مآربهم يتراجعون عن طريق الشيوعية فورا.. وداخل السجن أيضا تعرفت على شخصية اقتصادية مصرية تتمتع بسمعة عالية في تخصصها.. إنه الأستاذ الدكتور محمود أبو السعود.. ثم الدكتور توفيق الشاوى الذى كان يعمل أستاذا للغة الجنائى بالجامعة ولا يزال حيا متعه الله بالصحة وطول العمر.. وكانت طريقة التعارف فيما بيننا أنهما كانا يعرفان اللغة الفرنسية التى كنت أحبها في ذلك الوقت.. وكان وضعهما في السجن في أعوام ١٩٥٥ و ١٩٥٦ متميزا.. لذلك وجدت لديهما مجموعة كبيرة من الكتب الفرنسية والتى عن طريقها قويت هذه اللغة.. واستطعت أيضا من خلالهما الاطلاع على الفكر العلمى الذى كان يكتب أيضا باللغة الفرنسية في مختلف ألوان المعرفة وعلى وجه الخصوص علم النفس التحليلى لفرويد..

وهذه المرحلة وكما سبق وأن ذكرت لك قد نفعتنى كثيرا حتى بعد خروجي من السجن.. فقد تمكنت بهذه اللغة من العيش عن طريق ترجمة الكتب حين أعلنت الحكومة الحرب على العبد لله وطردته من كل الوظائف الحكومية.. وهؤلاء العلماء الذين ذكرت لك بعض أسمائهم قد دفعوننى إلى المزيد من الاطلاع والقراءة.. ورغم أن الكتب كانت في هذه الفترة وفي هذه الظروف ممنوعة، إلا أنني كنت أحصل عليها من العساكر بالرشوة.. وكنت على يقين أن عددا كبيرا من الضباط الذين كانوا يشرفون علينا داخل السجن كانوا يتعاطفون معنا كثيرا.. حتى مأمور السجن نفسه الذى مازلت أذكر اسمه إنه اللواء محمود صاحب الذى كان بداخله تعاطف غريب مع المفكرين المسجونين لديه في سجن مصر..

وأنا أقول لك إن من بين الشخصيات العظيمة التى تعرفت عليها داخل هذه الجدران والذى تأثرت به وبأفعاله كثيرا.. فقد حضر إلى في يوم من أيام العيد وأنا مسجون انفراديا بسبب هتافى ضد عبد الناصر.. جاء إلى الزنزانة يحمل لى كعك العيد.. ثم مالئث ان أخرجنى كى أنضم الى زملائى فى الاحتفال بهذا اليوم العظيم.. وأخذ يخطب فينا وقتها.. مبينا تعاطفه معنا ويكفيه القول بأنه قد رحمننا ورفض قتلنا مثلما كان يفعل غيره من ضباط السجن الآخرين لاننا فعلا كنا لديه داخل السجن بلا أسماء أو عناوين وحتى لو كنا قتلنا على حد قوله.. قلن يلومه أحد.. فقد كانت هذه هى سنة السجن فى مصر آنذاك.. وأنا أذكر الكلمة التى قالها لى بالذات.. أنت هنا بدون إيصال.. ومن الممكن الا ترجع إلى بيتك..

ومن غير المفكرين.. أنا لا أنسى الولد «بورق».. فقد كان مدرسة وحده.. شهرته «بورق».. وكان مجرما متمرسا.. تعرفت عليه حينما كان يأتى إلى زنزانتنا من أجل تنظيفها.. وقد قدم لى خدمات عديدة منها توصيل الرسائل إلى الأهل حين زيارتنا.. بل وتوصيل الرسائل عبر بعض العساكر إلى المنازل فى مقابل أجر ثابت.. بأمانة لقد كنا نعيش مع هؤلاء فى أمان نوعا ما.. وقد لعب الأخ بورق دورا عظيما فى هذا الشأن هذه الشخصية تعرفت عليها عام ١٩٥٦.. فقد كان مجرما ممارسا عاما وليس متخصصا.. وكانت لديه آلاف الألفاظ والمصطلحات الخاصة بعالم السرقة والإجرام.. وكم تعلمت منه الكثير من هذه المصطلحات.. تلك التى استفدت منها كثيرا فى كتابى عن اللغات الخاصة..

فقد خصصت لتلك المصطلحات فصلا كاملاً في هذا الكتاب بعنوان « علم اللغة العام».. وكان أيضاً له الفضل في أن يكون لنا نحن المعتقلين السياسيين من المفكرين لغة خاصة.. فعلى سبيل المثال كلمة «خشب» كانت تعنى الضابط.. أما العسكرى فكانت إشارته الحذاء.. وهكذا.. أكثر من ذلك عرفت بعض المصطلحات الخاصة به وبالعالم السرقة مثل كلمة «ذهوب» كانت تعنى الجنيه.. وهكذا..

«ما هو تصور الدكتور عبد الصبور شاهين للطريق الأمثل نحو معالجة الرأي الآخر أو الرأى المعارض للحكومة أو للحاكم؟ غير عقوبة السجن؟..»

- يجب أولاً أن يكون لدى الحاكم استعداد للفهم.. وليسمع وجهات النظر المختلفة.. لأن الحاكم من وجهة نظري هو مملوك للجماهير وللشعب وللرعية.. فلا بد أن يستمع إليها.. مؤيدين ومعارضين.. في ظل إيمانه بالحرية للجميع.. لأن الإنسان يمكن أن يصبر على الجوع والعطش ولا يصبر أبداً على سلب الحرية.. ولذلك فإن أكبر جريمة يرتكبها الحاكم أن يصادر حرية الناس من منطلق أن رأى الحاكم لا يمكن أن يكون صادقا أو صائبا على طول الخط.. وكذلك المؤيدين له.. وأيضا المعارضين..

والمصيبة أن تغيب هذه الحقيقة عن الواقع.. ويحاول كل من يتصل بالحاكم أن يشبع بداخله شهوة الانفراد المصحوبة بالرأى الصائب.. دون الالتفات لرأى الآخرين.. ودعنى أذكر لك مثالا من تاريخنا المعاصر.. فالرئيس السادات حينما جاء بعد فترة حكم طويلة من الدكتاتورية، كان يحكم عقله وثقافته وكان يستمع لرأى الآخرين.. ولذلك نجده قد احترم المفكر والمفكرين وقربهم إليه.. وحينما غدر عليهم.. وضعهم في السجن.. وضع نهايته بيده.. وعجل بهذه النهاية لأنه تخاصم مع الفكر والمفكرين.

إن هاتين المرحلتين مختلفتان في عهد الرئيس السادات ولعلنى أذكر أيضاً فيما يخصنى بعلاقتى بالرئيس السادات أنه في فترة من الفترات السابقة التى ارتبطت ببداية حكمه.. كنت دائماً أخطب في أحد المساجد.. ولا أمل أبداً من توجيه الانتقاد لبعض سياسته.. وأقولها كلمة حق وشهادة لله في حق هذا الرجل.. لم يصبنى أى شئ أو سوء من جراء هذا النقد مهما كانت قسوته حتى أصر السادات نفسه أن يحضر لى إحدى هذه الخطب التى كنت ألقياها قبل صلاة الجمعة..

والحقيقة أننى فوجئت يومها بحضوره إلى المسجد.. ولم أغير من خطتى في نقد

سياسته.. ورغم أنه غضب مني.. إلا أن هذا الغضب لم يوصلني إلى السجن مثلما حدث أيام سلفه الرئيس عبد الناصر.. ولعلني أذكر أن أهم نقاط الخلاف التي أكدت عليها أيام الرئيس السادات قوله دائماً.. اننا نطلب السلام من موقع القوة.. فكنت دائماً أرد عليه علانية بأننا لا بد وأن نطلب السلام من موقع الضعف كما أمرنا بذلك رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.. وأعود وأكرر أنني رغم ذلك لم أؤكد لك أن الرئيس السادات قد أخطأ في حق نفسه وفي حق المفكرين باعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١.. وأنا أعتقد أنه شخصياً قد اتخذ هذه القرارات ضد رغبته.. فلم يكن قراره من داخله.. بل كان قراراً نابعا من داخل نفس زوجته..

إنني ما زلت أعتقد ذلك، فهي التي قادته إلى هذا الفعل لأنه كان أنزه من أن يتخذ مثل هذا القرار.. عارف لماذا؟ لأنه أي الرئيس السادات قد ذاق مرارة السجن.. ويعلم أن السجن لا يمكن أن يؤدي مفكراً.. أو يجعله يتراجع عما يعتنقه.. ولا أنسى أن أقول لك إنني من هؤلاء الذين فشل السجن في انتزاع ما بداخلهم من أفكار..

وبالمناسبة أرجو أن تسجل عنى هذه الكلمات.. إننا الآن ننعم بقدر كبير من الحرية والاستقرار.. وأؤكد أن ما أقولسه الآن وكل أسبوع في جامع عمرو بن العاص.. لو كنت أقول عشر معشاره أيام عبد الناصر لطارت رقبتى.. وهذه شهادة مني بذلك.. إن هذه الحرية التي نعيشها الآن.. هي استمرار لجو الحرية الذي عشناه في السنوات الأولى لحكم الرئيس السادات.. ولولا اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١.. لكنا قد سجلنا تاريخاً مورياً عريقاً على طريق الحرية.. ولكن والحمد لله نحن مستمرين في الطريق وندعو الله أن نصل إلى آخره حيث تسود الحرية أكثر وأكثر..

*** لماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر بتوقيع الرئيس أو رئيس الحكومة دائماً في دول العالم الثالث؟..**

- لأن الحكم والسلطة في هذا العالم الثالث مسخرة وموجهة لخدمة شخص واحد فقط هو رئيس الدولة.. فأمنه هو أمن الدولة.. وفزع هو فزع الدولة.. ولعلك تذكر الآن أن كثيرين قد كتبوا وما زالوا يكتبون هذه الأيام أن أجهزة الأمن في الدولة قد انصرفت للحفاظ على الأمن السياسي وتركت الأمن الاجتماعى.. وهذا في تصوري صحيح.. ويرجع إلى أصل الموضوعات كاسباب لأخطر مشاكلنا الاجتماعية التي

نعانى منها هذه الايام.. إن الاهتمام بالأمن السياسى حقيقة قد جعل الأجهزة تتصرف كلية إلى الأمن الاجتماعى..

وفى واقع الأمر أنه حين تسود الديمقراطية فى أى بلد من بلدان هذا العالم.. فعلا لن يكون هناك اعتقال لمفكر سواء بتوقيع رئيس الدولة أو بتوقيع غيره.. مادام هذا الفكر لا يحمل إرهابا أو تدميرا لصالح المجموع والمجتمع.. واننى على يقين أننا هنا فى مصر من بين دول العالم الثالث المؤهلين فى الواقع لحمل مشاعل الحرية والديمقراطية.. لأننا نعبد الحرية ونقدسها ونحترم الحاكم الذى يقدمها لنا مادامت فى حدود التشريعية وخدمة المجتمع.

وفى ظل هذا الحوار دعنى أقول لك إننى أرى ضرورة إلغاء حالة الطوارئ الآن.. لأن مثل هذه القوانين الاستثنائية تثبت الرعب فى قلب الحاكم أكثر من الرعية ولعلك هنا تتعجب.. ودعنى أحكى لك حكاية من واقع ذكر قانون الطوارئ.. وقد عرفتها داخل السجن..

لقد كنا نسمع داخل جدران السجن أن الحالة الآن (ج).. ولن تنزل إلى الحالة (ب).. لأن ضباط السجن كانوا يستفيدون ماديا من الحالة الأولى.. من أجل ذلك كانت حالة الطوارئ تستمر مفروضة علينا داخل السجن لا لشيء إلا من أجل زيادة مرتبات وبدلات القائمين على السجن.. وأنا اعتقد أن مثل هذه الأمور كانت صميمة الى حد بعيد فى عهد الرئيس عبد الناصر..

*** وهل ترون أن يكون للمفكر سجنا خاصا به أم يزرع به وسط بقية المجرمين؟..**

– بالنسبة لى وفكرى.. أنا أرى أن العمل بالشريعة الإسلامية لن يبقى على وجود السجنون إطلاقا.. لأن الحدود والتقارير تحسم القضايا.. وأنا أتصور أن هذه السجنون والمعتقلات من سيئات القوانين الوضعية..

وعلى شماعه هذه السجنون يعلق فشل القسانون الوضعى فى معالجة الجريمة، أو فى توفير الأمن أو فى حماية الحرية.. إذن لا بد من الواجب أن نفرق بين الفكر وبين أنواع الجرائم الأخرى.. ومما يزرى السلطة ويدينها.. أن تضع مثل المفكرين مشاعل الثقافة والرأى مع غيرهم من القتلة والمجرمين.

لا بد من الفصل بين الإثنين.. وإن كان من الضروري قيام مثل هذا الاختلاط.. فانا أرى من الضروري أن يعين المفكر داخل السجن حتى وهو سجين في وظيفة معلم لغيره من المجرمين.. وعلى ذلك يكون له احترامه ويمارس فكره داخل السجن.. لأنه سوف يمارس هذا الفكر شاءت السلطة أم أبت.. وكل ما هنالك أنه في مثل هذه الحالات.. يتم التنبيه على المفكر أنه سوف يتم حجب فكره عن العامة أى عموم الشعب والجمهير.. ومن حقه ممارسة هذا الفكر داخل السجن.. ويمكن له أن يوظف فكره هذا في إصلاح أحوال بقية المسجونين على ذمة قضايا الإجرام المختلفة وقد يكون ذلك نوعاً من الإنسانية..

«وما رأيكم في سجون مصر الآن؟»

— لدينا نوعان من السجون.. نوع يتسم بالأشغال الشاقة وهى أمور تمارس خلالها حرف وهى في السواقى أشياء عملية.. ولكن هناك أنواع من السجون ربما خصصت لبعض المدللين.. مثل المضبوطين في قضايا أخلاقية أو إلى آخره أو المدمنين.. وكلها أمور تدخل في إطار التخبط لأن السجن لا بد وأن يكون فقط سلب لحرية الإنسان لفترة محددة.. وأن يمارس خلالها إنسانيته وحياته.. بعيداً عن التعذيب والإهانات.. لأن السجن إذا أراد أن يصلح مجرماً.. فلن يصلحه إلا بالتكريم وبالتربية الصالحة داخل السجن وإشعاره بالتأنيب.. ولا بد أن يفهم السجين أنه رغم خطئه ضد المجتمع.. فالمجتمع يعامله بخلاف الجرم الذى ارتكبه.. هذا من ناحية السجن كعقوبة.. أما أنا فأساساً أرفض حتى وجود عقوبة السجن من وجهة النظر الإسلامية.. لأن السجن في ظل التشريع الإسلامى لا وجود له إلا على سبيل الحجز في انتظار الحسم وفقاً للشريعة الإسلامية.. وليس للعقوبة طويلة المدى.. فإن أقصى عقوبة معترف بها شرعاً هو تغريب عام بعد مائة جلدة.

ولا تخص هذه العقوبة القتل فإن من يقتل لا بد وأن يقتل، لأن الحدود في الإسلام أساسها صلاح حالة الرعية.. والهدف منها الردع وليس التشويه وأيضاً لمنع الجريمة.. وهنا دعنى أحدثك عن ضرورة وجود المجتمع الإسلامى الصحيح القائم على أسس صحيحة، منها التربية السليمة التى يكون أهم رسالتها خلق إنسان مسلم يبتعد كلما استطاع عن ارتكاب الجريمة.. وفي ظل أوضاع السجون الآن لا أجد غضاضة في

القول بأنها تساعد على إفران الجرائم أكثر من كونها أداة إصلاح.. وأنها بالفعل من وجهة نظري مدرسة تخرج المجرمين أكثر إجراما وأكثر تخصصا..

فالمجرم سارق الفراه يخرج منه أكثر خبرة فيتحول إلى سارق الشقق أو سارق بنوك.. إنه مدرسة حقيقية تخرج مجرمين متمرسين في الإجرام..

وذلك عكس ما نتمناه وننشده.. لأن السجن معناه ردع المجرم وتخويفه حتى لا يرتكب الجريمة مرة أخرى.. وهذا للأسف مالا يحدث في سجوننا الآن.. وهذا التصور ليس بعيدا عن الواقع والممارسة.. بل أقول لك أكثر من ذلك.. إننى عرفت أوضاع هذه السجون قبل دخولها.. من قراءتى لمذكرات صول فى البوليس يعمل سجانا.. وكنت وقتها طالبا بالثانوية.. وجاء لى بهذه المذكرات من أجل أن أصحها له لغويا قبل طبعا.. وعرفت منها أن السجن باعتراقات هذا الرجل هى بحق بؤرة فساد قدرة وعالم رهيب. وما شاهدته خلال رحلتى عبر السجون فى المرات الثلاث أكد لى ما قرأته وربما أكثر.. ودعنى أؤكد لك أن الأمن السذى يختل فى الشوارع فى المنازل وفى الأتوبيسات مصدره الحقيقى أصحاب السوابق الذين حولهم السجن إلى مجرمين متمرسين.. وتقدر تقول إنهم من نتاج صورة السجون السيئة وأوضاعها التى هى فى حاجة إلى مزيد من الرعاية والإصلاح..

وماذا لو كان الدكتور عبد الصبور شاهين مأمورا للسجن؟

- أنا.. أنا كنت حولت السجن إلى جامعة.. والمسجونين إلى تلاميذ.. وأضع بين يدى كل منهم أستاذا فى علم النفس كى يسجل لهم تقدمهم على طريق الإصلاح والتوبة.. وهجران الجريمة إلى الأبد..

*** وأخيرا ماذا لو كان الأستاذ الدكتور عبد الصبور رئيسا للحكومة أو وزيرا للداخلية.. وعرض عليه كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم ماذا كان يفعل؟**

- عارف أقوم باستعراض أسماء هذا الكشف وأطلب فورا منح كل منهم وساما من الدرجة الأولى..

الحكاية الرابعة يرويها الدكتور ميلاد هنا:

دخلت السجن أستاذاً جامعياً وخرجت منه.. سياسياً ومفكراً

لا شك أن الحياة داخل المعتقلات حافلة وغريبة، ومليئة بالأعاجيب ورغم ما كتب عنها إلا أن المكتبة المصرية مازالت بحاجة إلى رؤى جديدة من خبرات مختلفة لما جرى في سبتمبر الغاضب.. ولأن سبتمبر هذا هو خبرتي الأولى في الاعتقال أرجو أن تكون الأخيرة بحكم السن.. والموقع والتاريخ.. وقد تصادف أن كنت من ثمرات القطعة الأولى للمعتقلين، وتصادف أيضاً أن كنت من المجموعة الأولى التي تم الإفراج عنها كي تنتقل من زنازينها إلى قصر رئيس الجمهورية مباشرة.. وبين تاريخ اعتقالى وتاريخ الإفراج فى قصر الرئاسة تدفقت فى النهر مياه كثيرة تروى حكايات بالغة العمق والدلالة..

هكذا بدأت كلمات الدكتور ميلاد هنا تنساب منذ اللحظة الأولى لإدارتى لشريط التسجيل الذى حمل إلينا نص هذا الحوار.. وكثيراً ما توقفت عند كلماته قبل التسجيل وبعده.. مثلاً عند قوله: «أمضيت تسعة أسابيع مع الأساقفة والكهنة المسيحيين، فكان احتكاكاً جديداً بالنسبة لى، إذ أن اعتقال وسجن رجال الدين المسيحي فى مصر غير مسبوق فى تاريخها المكتوب، وعندما ما أعلنت احتجاجي على ذلك لما يمثله من شرخ فى جدار الوحدة الوطنية تم نقل إلى سجن آخر مع السياسيين.. فكان احتكاكاً أكثر حدة وأكثر طرافة..

مثل هذه العبارات والجمل التى كان يخرجها الدكتور ميلاد هنا أستاذ الهندسة والسياسى الشهير، كانت تحمل فى كل كلمة يقولها معنى المصيرية والحب المتأصل فى دماء هؤلاء المصريين الذين يعشقون تلك الأرض الطيبة بصرف النظر عن الدين.. وحين تراه وهو يحكى ويقول لك لا بد وأن تتوقف وتستمع حتى تستفيد.. وتعرف لأن حبه للحياة العملية والعلمية لم يجعله ينفصل عن حبه الأول للعمل السياسى من أجل مستقبل جديد.

وما نحن نتوقف مرة أخرى أمام كلماته قبل أن يدور بنا شريط التسجيل.. وتراه

يحدثك بصوت العالم الواثق من كل معلوماته وأحاديثه.. وهو في كل ما كان يرويه صادق إلى حد بعيد.. ولقد شغله العمل السياسي كثيرا حتى وهو في منصبه الجامعي.. ففي عام ١٩٦٩ على سبيل المثال كان نشاطه السياسي قد اتخذ أشكالا واضحة مما دفع جهات الأمن إلى طلب القبض عليه.. بل وطلب فصله من الجامعة.. بل تجاوز الطلب حد وضعه تحت الحراسة.. ولكن ذلك لم يحدث لأسباب سوف نحكيها فيما بعد.

المهم دخل الدكتور ميلاد حنا المعتقل... وأول شيء صادفه ذلك الموقف الذي يحكيه بقوله: عندما انتهى الضابط من تسجيل مضبوطات الكاهن في محضر رسمي وطلب منه التحي جانبا على أن يظل واقفا... سأل الضابط... هل هناك معتقل ثان.. قلت نعم.. أنا ذلك الثاني وأسمى ميلاد حنا..

وحين يدور شريط التسجيل.. وتبدأ في سماع كلمات هذا الحوار بأسئلته التقليدية يخرج علينا صوت الدكتور ميلاد حنا وهو يحكي الذكريات وكأنما يعزف على أوتار أحباله الصوتية.. وبدون الدخول في تفاصيل ذكر الأسئلة وإجابتهما.. علينا من هذه اللحظة الإنصات جيدا من أجل تتبع واع لما سوف يرويه لنا هذا المفكر عن تأثير تجربة السجن والاعتقال في حياته..

وقبل أن يظهر صوت الضيف عبر جهاز التسجيل سبقته كلمات كاتب هذه السطور مقدما إياه بعبارات الود والتحية... مثل قوله: بسم الله الرحمن الرحيم إننى في غاية السعادة لإجراء مثل هذا الحوار مع أحد المفكرين المصريين الذين لم ييخسوا ولو بحبة عرق من أجل مصر.. سواء في الجامعة أو في ميدان العمل السياسي والعمل العام.. وأستاذنا الدكتور ميلاد حنا هو من المفكرين الذين أعطوا ولا يزالون يعطون من فكرهم لتلاميذهم في كل مكان. والذين وقع عليهم الاختيار ضمن المفكرين المصريين الذين ذاقوا مرارة السجن والاعتقال رغما عنهم أو بإرادتهم.. وهذا ما سوف نعرفه بعد لحظات وهذا حوار سيكون الأستاذ الدكتور ميلاد حنا ضيفا فيه من خلال مجموعة من الأسئلة.. وتدور جميعها حول مفهوم الفكر وأرتباطه بالقضايا والسجون.. فأهلا بك معنا ومع هذه الكلمات كي تبعدنا بأصول هذه التجربة مع اعتقادنا بأنها تجربة مريرة وأليمة.. من منطلق أن مرارة جيل المفكرين الحاليين.. هي خير المصائب التي تنير للأجيال القادمة طريق الفكر وتكون دافعا قويا من أجل المزيد

من حرية الرأي..

وبعد عبارات الترحيب التقليدية.. بدأ الدكتور ميلاد حنا ذكرياته بقوله: أنا سوف أحكى لك بدون قلق.. وبداية أقول لك: لكل مرحلة تاريخية سمة من سمات النضال والكفاح.. فأنت ترى في سابق الأزمات الخصوم السياسيين كانوا لا بد وأن يختلفوا.. وبطرق مختلفة ومتنوعة.. مثلاً كانوا يوضعون فوق خازوق ثم يوضعون في الزيت ثم يصلون إلى مرحلة العدم.. ولا يعرف عنهم أحد أى شيء ولا أى مصير.. ولكن في زمن الحضارة وظهور الاستعمار اتجه الفكر الاستعماري لانجلترا إلى النفي.. وتستطيع أن تقول إنها كانت مرحلة ثانية أو مرحلة أرقى من سابقتها..

وعرفت مصر الصراع السياسي آنذاك ضد الاحتلال البريطاني.. وكان مصير هؤلاء المفكرين الوطنيين هو النفي إلى المستعمرات البريطانية في دول وقارات أخرى مثل مالطة وسيشيل وما شابه ذلك.. أما في خارج مصر.. فقد نفوا نابليون إلى أن مات في نفيه. أما في العصور الحديثة ماذا يستطيع الحاكم أى حاكم في ظل دولة مستقلة أن يقاوم خصومه السياسيين والمفكرين.. وهذا الحدث ينقلنا إلى المرحلة الوطنية التي مرت بها مصر بعد حصولها على الاستقلال يعنى تقدر تقول الكلام القادم نخص به مصر فقط التي شهدت في المرحلة التي تلت الاستقلال اختفاء صفة نفي هؤلاء الخصوم.. ومن ثم الجديد هو لجوء الحكام الى فكرة بديلة.. وهى الاعتقال.. أو السجن أو أسماء مختلفة.. وأنا أنكر لك بالنسبة لحالتي.. كان الإسم الرسمي لاعتقالي هو «التحفظ عليه».. وطبعاً كان ذلك هو الاسم المستتر للسجن أو للاعتقال.. إذن أنت منذ هذه اللحظة أمام ظواهر جديدة ومختلفة.. ولو عدنا إلى تأصيل هذه الإجراءات ولما لفهوم اللغة العربية نجد أن ما تسميه أنت الاعتقال وما أسميه أنا التحفظ يعنى لغويًا «التوقيف».. أى إيقاف هذا الإنسان عن الحياة.. وهذا الوصف ينطبق تماماً على اعتقال الرئيس محمد نجيب.. الذى تم اعتقاله في مكانه.. في بيته.. أى تحديد إقامته.. إذن تجد أنك أمام مفاهيم مختلفة لهذا الفصل في العصر الحديث..

جانب آخر من جوانب اختلاف المفاهيم هو التعذيب فتجد التعذيب أيضاً يختلف من مكان إلى مكان.. بالنسبة للمعارضة الوطنية.. وأصحاب الفكر الذين هم في صدام سلمى مع الحكومة..

وأحب أن أؤكد لك أنه رغم ما سوف أحكيه من تجاوزات ارتبطت بمفهوم السجن أو الاعتقال فإن مصر العظيمة وخاصة في العصر الحديث.. لم يسمح أى حاكم أن يقتل معارضاً له.. مهما وصلت هذه المعارضة إلى الخصومة..

والصراع العلني يعكس ما كان يحدث ولا يزال في بعض الدول العربية وعلى سبيل المثال في دولة مثل العراق.. هناك لا يعترفون بهذه الخصومات وبالتالي تجد المصير معروفاً وهو التصفية الجسدية المستمرة لأولئك المعارضين وأصحاب الفكر الحر.. وبصرف النظر داخل هذا البلد عن اسم الحاكم أو شخصه.. إنه هناك يعتبر اتجاهاً عاماً وسياسة معلنة.. ولعلك سمعت مثلي عما يحدث في بعض الدول العربية التي تستعين بقواتها الجوية من أجل تصفية المعارضين..

ودافعى الحقيقى لاستعراض هذا الامر في عمومياته.. حتى يكون أمام الشباب بانورما لما يمكن أن يحدث تحت مسمى الاعتقال أو التصفية الجسدية.. أو تحديد الإقامة.. أو التحفظ.. أو أى مصطلح من هذه المصطلحات التي اخترعت من أجل معاقبة المفكرين والخصوم السياسيين..

ودعنى أقول لك وبشكل عام.. إن أنواع القضاة.. مختلفة وإن معاملة الخصوم السياسيين والمفكرين وأصحاب الرأي المخالف.. كانوا يعاملون بشكل أكثر احتراماً أيام الاحتلال الانجليزي عما كان عليه أيام ثورة ٢٣ يوليو.. بصرف النظر عن التسميات التي أطلقناها على تلك الفترة.. ولا دخل لي بأن ذلك كان استعماراً أو غير استعمار.. المهم شكل المعاملة التي يلقاها هؤلاء المفكرين.. وكان ذلك يحدث من منطلق أن العادات والتقاليد السياسية الانجليزية لم تكن تسمح حتى داخل إنجلترا نفسها بمعاملة المعارض أو الخصم أو المفكر الذي يقف في صف المعارضة معاملة سيئة.. لقد كانوا يعاملونهم معاملة حضارية راقية.. ويكفى أن أقول لك وأصف سجن الأجانب والمعاملة الحضارية التي كانوا يعاملون بها المسجون السياسى بداخله..

* بعد هذا السرد التاريخى.. نريد أن نعرف من الدكتور ميلاد حنا.. كم مرة دخل فيها السجن.. بمفاهيمه المختلفة؟..

ملحوظة: ربما لاحظ القارئ أنني منذ البداية قد اخترت أن يقول لنا هذه المعلومة

الدكتور ميلاد حنا ونقلها بحروفها كاملة من الكتاب الوحيد الذى سجل فيه مذكراته عن السجن بعد خروجه بست سنوات.. ومع ذلك تعمدت أن أكرر السؤال.. وأن يجيب عليه الدكتور ميلاد حنا.. لإحساسى بأنه يمكن أن يضيف الشيء الجديد.. ولسوف ترى بعد ذلك بلحظات من كتابة هذه الكلمة.. وفى رده قال لى:

- لا بد لى أن أقول لك خلفية تاريخية.. أنا تربيتى الإنسانية يسارى.. ومن ثم فقد كنت جزءاً من الحركة الوطنية اليسارية ورغم ذلك لم أكن منضمماً إلى أية منظمة يسارية آنذاك وكنت متعاطفاً مع بعضها ومتبرعاً لبعضها بالمال.. وتقدر تقول ده كان سنوات ٤٣، ٤٤، ٤٥، ١٩٤٦. ثم كنت جزءاً من حركة الطلبة والعمال.. فى نفس التيار اليسارى فى ذلك الوقت وذلك لأن أى مفكر أو سياسى لا يبدأ من فراغ.. وفى هذه الفترة تعرفت على العديد من أعضاء الحركة الوطنية اليسارية فى ذلك الوقت مثل خالد محيى الدين وآخرين.

ثم ذهبت إلى جامعة الاسكندرية وعينت بها معيداً بقسم الهندسة عام ١٩٤٥ وكانت الحركة اليسارية فى ذلك الوقت على أشدها وفى ازدهار.. وفى هذه الفترة تعرفت على عزيز فهمى الذى كان يمثل ما يسمى بالطليعة الوفدية وكنت جزءاً من هذه الطليعة.. حتى سافرت إلى بريطانيا.. وهناك كنت عضواً فى اللجنة الوطنية للطلبة المصريين، ثم انتخبت عضواً فى مجلس إدارة نادى الطلبة المصريين عام ١٩٥٣.. وهناك وبعد معرفتنا بأحداث الثورة كنت أحد الذين طالبوا بعودة الجيش إلى مكانته بعد نجاحه فى القيام بثورة ٢٣ يوليو وأخذت موقفاً عنيداً جداً ضد عبد الناصر من منطلق أننا لا بد وأن نبعد عن حكم العسكريين.. وتوقع الكثير من زملائى أننى حين أصل إلى مصر سوف يتم اعتقالى فوراً وفقاً لهذا الموقف..

أما الذى حدث أن الله قد سلم ورجعت إلى مصر من جديد واستلمت عملي بالجامعة فى هندسة عين شمس منذ عام ١٩٥٤ وحتى هذه اللحظة.. وظللت كذلك أستاذاً جامعياً.. وبعدت بعض الشيء عن مجال الحركة السياسية المصرية آنذاك.. لأننى عرفت أن عبد الناصر قد أمم العمل السياسى.. ومن ثم أتجهت إلى الفكر السياسى أكتب عنه وأمارسه.. وفى عام ١٩٥٩ على ما أذكر أن كل زملائى من رفاق العمل السياسى اليسارى قد تم اعتقالهم جميعاً وكان على قمتهم الدكتور عبد العظيم أنيس.. وفى عام ١٩٦٠ جاء عبد الناصر بحركة التأميمات التى نالت إعجابى الشخصى..

مما جعلنى أشعر أن عبد الناصر قد تجاوز فكره العسكرى.. وهو يحاول أن ينقل مصر إلى المعسكر الاشتراكى وفقا لمبادئ اليساريين.. ومن ثم تمت اتصالات بينى وبين الثورة، وعلى أثره دخلت الاتحاد الاشتراكى وكنت عضوا نشطا فيه.. إلى الدرجة التى كنت وقتها مرشحا وزيرا للإسكان.. وكان ذلك عام ١٩٦٢.. ولكنه لم يحدث لاعتراضى على وجود كافة الشيوعيين المصريين آنذاك فى السجن.

وبعد هذا السرد التاريخى الذى أميل إليه كثيرا.. أستطيع أن أقول لك إن أول مرة أدخل فيها السجن معتقلا فكريا وسياسيا كانت عام ١٩٨١ ضمن اعتقالات سبتمبر الشهيرة.. ومع ذلك تستطيع أن تقول إننى قبل هذا التاريخ كنت مؤهلا لدخول السجن فى أى لحظة.. وعلى ما أذكر كان ذلك عام ١٩٦٨ حينما قدمت الطلبة بالجامعة وأنا أعمل أستاذا بها كزعيم لهم.. ووقتها أشيع أننى قد اعتقلت بالفعل.. ولكن ذلك لم يحدث.

ومرة أخرى عام ١٩٦٩.. كان نشاطى السياسى فى ازدياد مستمر ويميل بدرجة ٩٠ درجة ناحية تزعم مطالب الطلبة آنذاك.. مما دفع جهات الأمن إلى طلب القبض على وفصلى من الجامعة.. بل تجاوز الطلب حد وضعى تحت الحراسة.. وما أن اقترب القرار من دائرة التنفيذ حتى تمكن أحد أصدقائى من ترتيب لقاء بينى وبين شعراوى جمعة وزير الداخلية آنذاك.. وبدلا من فصلى أو وضعى تحت الحراسة تصادقنا.. وأصبحنا نلتقى كثيرا لا لمناقشة أحداث الجامعة بل لمناقشة كل ما كان يدور حولنا فى المجتمع.

وحين أعود لأحدثك عن ظروف اعتقال عام ١٩٨١ كأول وآخر مرة، أقول لك إننى دخلت تجربة الاعتقال تحت مظلة.. وعبر تاريخ سياسى طويل اهتم بثلاث قضايا هى بالترتيب: قضية إسكان الفقراء فى مصر.. وهذه مشكلة اجتماعية لم تسبب لى أى مشاكل على الإطلاق.. بل أعطتنى رصيذا كبيرا من الحب.. والقضية الثانية: قضية الديمقراطية فى مصر.. وقد أوجدت لى متاعب كثيرة مع عبد الناصر ومع غيره.. ولا أقصد بها الرأى والرأى الآخر لأننى أعتبر هذه العبارة هى تسطيح لمفهوم الديمقراطية وذلك من منطلق إيماني أن الديمقراطية هى نظام متكامل يسير بالية منتظمة.. وما الرأى الآخر إلا مناظرة تتم تحت مظلة الديمقراطية.. بمفهومها الواسع.. لأن الخلاف فى الرأى يتم أيضا ضمن أعتى الأنظمة الديكتاتورية.

إن مفهوم الديمقراطية في خيالي هو نظام شامل ومتكامل يدور بألية منتظمة تابعة من المجتمع وأفراده ووعيه.. وفي مفهومها العميق ما يسمح بتداول السلطة وفقا لرأى الجماهير.. هذه القضية الثانية التى أحدثك عنها وأعنى بها قضية الديمقراطية هى شاغل الشاغل الآن.. وفي المستقبل كما كانت في الماضى.. تلك القضية التى سببت لى العديد من المشاكل مع نظام الرئيس عبد الناصر ونظام الرئيس السادات.. أما القضية الثالثة التى أزعجتنى قد اعتقلت بسببها.. هى قضية الوحدة الوطنية.. التى أعتبرها إحدى ركائز المجتمع المصرى فى كل العصور.. وهذه الألفة بين المسلمين والأقباط التى عشتها فى حياتى المبكرة منذ أن كان والدى عضوا بارزا فى حزب الوفد الذى كان يمثل عنصرى الأمة ووحدة الهلال مع الصليب.

ومع نهاية العهد الملكى.. ووصول أيام الثورة وعبد الناصر.. تلك الأيام التى لم تثر فيها مثل هذه القضية، ولم نشاهد أية مشاكل بين المسلمين والأقباط فى ذلك الوقت.. وربما يرجع ذلك إلى العديد من الأسباب مثلا أولها يرجع إلى امتداد تأثير أفكار الوفد الذى استمد وجوده من عنصرى الأمة.. وثانيا: قيام عبد الناصر بتأميم العمل السياسى الوطنى لكل المصريين سواء المسلمين أو المسيحيين.. فلم يكن يسمح لتحرك سياسى على أعلى مستوى من هذه المستويات.. واستمر هذا الوضع الهادئ داخليا مستمرا فيما يخص الوحدة الوطنية المصرية أعوام ٧٢ و٧٤ و١٩٧٥.. وعندما جاء الرئيس السادات إلى الحكم ودفع بالجماعات الإسلامية إلى الساحة السياسية.. وظلت الصراعات الطائفية تستثرى فى مصر منذ حريق كنيسة الخانكة عام ١٩٧٢.. حتى أحداث الزاوية الحمراء عام ١٩٨١.

والذى حدث بالنسبة لى تحديدا.. أن هذا الموضوع قد أثارنى، وأحسنت أن مصر على حافة الهاوية من ناحية الشرخ الطائفى بين الأقباط والمسلمين.. وهذا الأمر من أساسه مرفوض لأننا قد نختلف سياسيا أو اقتصاديا.. أما الاختلاف حول المبدأ الطائفى فكان من الممكن أن يحول مصر إلى لبنان أخرى.. وندرة الأحداث فى رأى كانت عندما أعلن الرئيس السادات فى عام ١٩٨٠ أنه رئيس مسلم لدولة مسلمة.. هذا الموضوع أثارنى إثارة شديدة للدرجة التى جعلتنى أقرر النزول إلى الشارع السياسى والشارع الفكرى فى مصر من أجل إيقاف هذا الشرخ الذى ربما يتسع فى لحظة من اللحظات.. ويأخذ فى طريقه الأخضر واليابس.

وكانت الاستجابة خرافية من جانب عنصرى الأمة حيث لم يوافق الاغلبية منهم على مثل هذا الموقف.. باعتبار أن مصر للجميع.. ولا فرق بين مسلم وقبطى ما داموا يشربون من ماء النيل.. ويعملون من أجل صالح مصر داخليا وخارجيا.. وقد برهن المسلمون المصريون أن الاقباط المصريين هم جزء من هذا المجتمع ومن أساسيات وجوده.. وفي وسط هذا المجهود الذى كنت أسنله من أجل الحفاظ على مجتمعنا المصرى بعنصره.. كنت لا أمل من ترديد عبارة وصلت وقتها إلى السادات.. أقول فيها: سيدي الرئيس أنت لست رئيسا لدولة مسلمة.. بل رئيس مصرى لدولة مصرية.. ثم تصادف وقتها بجانب ذلك أن جمعت مادة علمية بسيطة وبسرعة طبعتها فى كتاب صدر وقتها تحت عنوان «نعم اقباط.. ولكن مصريون».. وقد تصور الرئيس السادات أننى بهذا الكتاب أرد على ما جاء فى خطابه السياسى الذى قاله آنذاك.. وقد حاولت استغلال كل الظروف السياسية التى كانت سائدة فى ذلك من أجل توصيل صوتى عاليا إلى الرئيس السادات.

ووقتها لاحظت أن قبضة الرئيس أصبحت شديدة.. وأنهم يحرصون على تسجيل كل ما أقوله من أجل نقله إلى الجهات المسئولة فى مصر.. وكان النبوى إسماعيل وزيرا للداخلية فى هذه الأونة.. وقد حذرنى بعض زملائى فى حزب التجمع الذى كنت أحد قياداته فى تلك الفترة.. من عدم التعرض فى أحاديثى لوزير الداخلية.. لأنه يملك المعتقلات والسجون.. وقد اعتبرت هذا التحذير نبوءة مبكرة لدخول السجن بالفعل.

وبالفعل فى مساء يوم الأربعاء ٢ سبتمبر عام ١٩٨١ وكنت فى اجتماع روتينى بالحزب للجنة العلاقات الخارجية.. وكنت رئيسها.. جاءت إلينا أخبار من بعض المسجونين اليساريين فى مزرعة طرة أن هناك ترتيبات داخلى السجن لاستقبال عدد كبير من المعتقلين الجدد.. وعلينا أن نحذر.. وعندما علمت بالخبر، ظننت لأول وهلة أن الرئيس السادات سوف يعتقل بعض الجماعات الدينية قبل خطابه فى ٥ سبتمبر كإجراء وقائى، ولا مانع من اعتقال بعض شباب التجمع المعروفين.. ولم يدرك فى خلدنى للحظة واحدة أننى شخصا على رأس قائمة الاعتقالات الجديدة.

*** وهل لا يزال الدكتور ميلاد حنا يتذكر لحظات اعتقاله؟**

— طبعاً مفيش كلام.. ودعنى أحكى لك بعض تفاصيلها.. لقد اقتحمت القوات الخاصة من رجال الأمن منزلى.. وألقى القبض على.. وفى حراسة الشرطة أخذونى إلى

قسم الدقى ثم إلى سجن الاستقبال بليمان طره.. وهناك تعذر استقبالى بسبب التفرة الدينية، فتوجهنا من طره إلى سجن المرج شمال القاهرة.. وفى غرفة المأسور تجمعنا نحن المعتقلين الأقباط وكانت بشائر الفجر قد أطلت علينا.. وقد أمسك بكل منا حارسان أحدهما يتأبط الذراع اليمنى والآخر يتأبط الذراع اليسرى وسرنا جميعا فى هيئة طابور يجمع بين الكهنة والعلمانيين.

وتأكدت من عمق الشرخ الذى أصاب مصر آنذاك بعد أن أعدت وزارة الداخلية سجن المرج لاستقبال الأقباط وحدهم.. وبخطوات منتظمة تتناغم مع خطوات رجال الأمن الذين أمسكوا بنا.. وقد سرنا جميعا إلى السجن الداخلى وتوقفنا عند سجن التجربة وهو سجن داخل السجن.. وفى زنانات باردة دفعوا بنا إلى ساحتها القذرة.. لقد كانت توحى إلينا بالرغبة والعقاب معا.. كما كانت توحى أيضا باستحالة الهرب.. وعلى وسادة من الكاوتش وبنفس الملابس التى غادرت بها منزلى ألقيت بجسدى المتعب وأنا فى حالة من الذهول وانعدام الوزن.. وقتها لم أستطع النوم.. وبعد أقل من لحظة قصيرة.. فإذا بطابور جديد وإذا بهم يدفعون كاهنا للإقامة معى فى زنانتى.

*** ما هو تأثير تجربة السجن التى عاشها الدكتور ميلاد حنا طوال الثلاثة والثمانين يوما.. ضمن اعتقالات سبتمبر عام ١٩٨١؟**

.. هو أولا.. عندما يفرض على الإنسان حبس لمدة عدد معين من السنوات، لا بد أن يؤهل نفسه لمثل هذه الحبسة.. ولكن وجهه الجمال والقهر معا فيما واجهته من اعتقال هو أننا دخلنا إلى المجهول.. فلم نستطع فور دخولنا السجن أن نعرف لماذا حبسونا.. وظللنا نضرب أحماسا فى أسداس حول هذا السؤال.. وتساءلنا عن المصير.. باعتبار أن ذلك كان من أصعب الأسئلة التى واجهتنا فى تلك الفترة.. إنه المجهول بعينه.. وبمجرد اعتقالى وإيداعى سجن المرج فى الساعة الثانية صباحا.. فى الفجر.. ودخلت الزنانة مع بداية الشروق.. وكان معى بها أحد الكهنة من رجال الدين المسيحى.

وكما ذكرت من قبل.. كان ذلك بداية تفرة عنصرية.. الأمر الذى جعلنى أقوم بإضراب داخل السجن على هذه التفرة.. وهذه كانت تفاصيل دقيقة كتبها الأستاذ هيك فى كتابه.. وكذلك أنا كتبته كذلك.. المهم.. هو أننى حين كنت فى طريقى من غرفة مأمور السجن إلى الزنانة بين حارسين من حراس السجن.. أحسست بنشوة غريبة..

وشعرت أنني قد انتقلت من الأستاذية الجامعية.. ومن رجل الفكر إلى النضال السياسي.. وأنتى سأكون شخصية تاريخية بدلا من أن أكون شخصية جامعية علمية.. وما إن دخلت إلى الزنزانة وكانت انفرادية وكريهة الرائحة ومظلمة.. تخرج منها جيوش من الحشرات من كل الأنواع.. حتى نمت نوما عميقا.. لم يحدث لي من قبل.. لأننى كنت قبل ذلك بأسبوع منفعلا بشدة لما حدث لمصر خاصة بعد أحداث الزاوية الحمراء.. وشعرت بأننى كان من الممكن أن أموت لو لم أدخل السجن في هذه الفترة.. واعتبرت اعتقالي منقذا لي من مثل هذا الموت المحقق..

وبالفعل تركت لنفسي ولجفونى الفرصة.. ونمت كما لم أتم من قبل.. ولا أذكر متى استيقظت لأن الزنزانة كانت مظلمة في كل الأوقات.. حتى جاء الحارس والسجان يكاهن آخر يزاملنى بالزنزانة.. بعدما عشت بها ساعات طويلة منفردا.. وكان اسمه القمص «اثناسيوس بطرس».. ولم يكن بينى وبينه معرفة مسبقة ولكنه قابلنى بترحاب شديد.. وعشنا معا داخل هذه الجدران واعتبرنى أستاذا له.. وما زالت تربطنى به صداقة حتى الآن.. وكان رجلا دينيا من القاهرة ومن حى المطرية.. وعرفت فيما بعد أن كل من دخل السجن من الكهنة والأساقفة كان بسبب مشكلة «الخط الهمايونى» وإمكانية بناء كنائس بطريقة معقولة.. وهذه كانت قضية سياسية ربما نتعرض لها فيما بعد.

*** وبشكل عام.. هل يمكن أن نقول لنا.. ما هو تأثير هذه التجربة على الفكر الإنسانى قديماً وحديثاً؟**

*** ابتداء.. في تقديرى أن كل مسجون سياسى يعتبر السجن بالنسبة له في مراحل الأولى هو فترة الرجوع إلى الذات.. وتصحيح المسار.. وهى وقفة إجبارية ممتازة.. لأن الإنسان خارج السجن من النادر أن يقف مثل هذه الوقفة نظرا لمشاغل الحياة الكثيرة.. ومن هنا.. فمجرد أن دخلت السجن.. كانت توجهاتى على محاور مختلفة عندما كنت مع نفسى.. أولا تساءلت من أنا؟.. وإلى أين سأكون؟ وما هو مصيرى؟.. وما هى فلسفتى في الحياة؟**

إذن السجن هو المدرسة الكبيرة للفكر والفلسفة.. وأى مناضل سياسى لا يستغل فترة السجن في المزيد من التفكير والفلسفة.. وفي إعادة حساباته يخطيء في حق نفسه..

ويجد نفسه دون أن يعود إلى نفسه، وهذا خطأ شديد جدا.. والمسجون السياسي أو المفكر السدى يخرج من السجن ويناضل في نفس الطريق وبنفس الحماس وبنفس التجربة.. هو سجين لا يستحق أن يكون مفكرا.. ويمكن أن نلقبه بالمشاغب دون أن يكون مبدعا أو سياسيا أو أى شىء نافع لنفسه أو لوطنه.. وبالتالي.. لا بد من اعتبارها فترة تصحيح مسار.. وبالنسبة لى كانت كذلك.. فقد بدأت أراجع تاريخ حياتى كله وأخذت أستعرض شريط ذكرياتى وأضع خطوطا حمراء تحت الأجزاء المضيفة وغير المضيفة.. ولا بد لى هنا أن أقول.. إننى قد اكتشفت نفسى من جديد.. وتستطيع أن تقول إنها «بيروسترويكيا الميلادية» نسبة لى.. وخرجت ولدى نقد شديد فى نواح كثيرة.. منها النواحي السياسية بالذات وموقفى من حزب التجمع حيث وجهت إليه نقدا شديدا واختلفت مع مبادئه، لأنه يدعو إلى الاشتراكية من نهج ماركسى ويستبعد النهج الديمقراطي.

ومن هنا بالفعل قد أثر فى تأثيرا شديدا.. ورفضت أن أكون فردا فى قطيع، ورأيت أن تكون لى هذه الخصوصية فى المزج بين الاشتراكية والديمقراطية.. وتجدى من هذا المنطلق قد اخترت طريق التعامل مع حزب الوفد.. وحرصت فى الفترة الأخيرة أن أكون كاتباً ومفكراً فى صحيفة الوفد لفترة طويلة.. لأننى أؤمن وما زلت أن طريقى الوحيد يرتبط بالاشتراكية والديمقراطية كنهج واحد ومشترك.. لأنه لا يكفى أن تطعم الإنسان.. بل لا بد وأن تعطيه حرته فى الاختيار وحرية المطالبة بحقه فى الحياة.. هذا هو البعد الأول.

أما البعد الثانى.. فهو أننى قد نشأت وتربيت فى بيت قبطى فى حى شبرا فى جزيرة بدران وفى شارع مسرة بالتحديد، حيث توجد أقدم كنيسة بنيت فى شبرا فى عام ١٩٢٤ وهو تاريخ ميلادى.. وكان جدى لأمى من الأثرياء حيث كان يرعى هذه الكنيسة.. وبالتالى كانت نشأتى دينية خالصة.. ارتبطت بحفظ الكتب الدينية والتراتيل.. ثم كنت قائدا لإحدى مدارس الأحد فى منطقة جزيرة بدران.. ومصر القديمة.. حيث كنت زعيما فى سن السادسة عشرة من عمري، وتعرفت على المناورات السياسية وغير ذلك.. ثم تعرفت على «نظير جيد».. الذى أصبح فيما بعد البابا «شنودة».. حيث كان القائد فى الجهة الأخرى من شارع شبرا وفى المنطقة المقابلة لى من نفس الحى فيما كان يعرف بالترعة البولاقية.

ثم سافرت إلى بريطانيا.. وهناك قرأت عن الفكر السياسي الحديث ثم أصبحت بعد فترة وجيزة عضوا بارزا في حزب العمال البريطاني.. وربما يكون انتمائي إلى الاشتراكية الديمقراطية يعود لتلك الجذور.. ومن ثم ابتعدت عن الفكرة الدينية.. وأصبحت علمانيا مفكرا وسياسيا.. وتحول انتمائي القبطي إلى انتماء أسرى واجتماعي أكثر منه انتماء كنسي ديني.. ولكن عندما اعتقلت مع الأساقفة والرهبان.. أرجع هذا الاختلاط من جديد تراثي الديني السابق وأثار في وجداني كل مشاعر الطفولة.. وعلى الفور استعدت قسراتي على قول التراتيل وقراءة الإنجيل.. وعلى هذا أصابت الدهشة كل من حولي.. لأنني كنت في أذهانهم أمثل الرجل العلماني الشيوعي.. وخلاصة القول أن هذه الحبسة قد أشعلت في وجداني مرة أخرى التراث الديني المسيحي، وربطتني من جديد برجال الدين.. لأنني كنت بالنسبة لهم المدافع عنهم وعن حقوقهم الدينية والفكرية داخل القضبان وأمام مأمور السجن.

*** وإذا ما عدنا إلى الحديث عن فترة وجودك بحزب العمال البريطاني ماذا تقول عنها بالتفصيل؟**

.. أنا قعدت في حزب العمال البريطاني أعوام ٤٨ و ٤٩ و ١٩٥٠ وانتخبت انتخابا حرا سكرتيرا للجنة الطلبة الاشتراكيين في الجامعة.. ثم انتخبت ممثلا عن هؤلاء الطلبة في المؤتمر القومي الذي عقد آنذاك في مدينة مانستر وكانت لدى حتى فترة وجيزة مكاتبات ورسائل بيني كممثل لهذه الجماعة وبين مستر بيفين وزير الخارجية البريطاني.. وكذلك مستر بيغان وزير الصحة البريطاني.

ولكنني للأسف أحرقت هذه الأوراق كلها خوفاً من الاعتقالات في وقت عبد الناصر وخشيت أن أتهم بالعمالة.. ولكنها كانت في رأي أوراقي تاريخية مهمة بالنسبة لي وبالنسبة لمصر.

*** نتوقف عند نقطة مهمة.. وليسمح لنا الدكتور ميلاد حنا إثارتها.. وهي تتعلق بالشخصيات التي تعرفت عليها داخل السجن وخارجة.. ومدى تأثيرك كمفكر سياسي هؤلاء؟**

.. كان من الطبيعي داخل السجن.. وداخل هذه الجدران السوداء أن يسقط الزمن، ونفقد إحساسنا به.. فلا جرائد.. ولا معلومات.. وأصبحت الأيام كلها متشابهة، فلا معنى لأسمائها أو تواريخها.. ورحنا جميعاً نعيش بحياتنا داخل السجن ونتصيد

الأخبار بين الحين والحين..

وفي أيامنا الأولى لم تكن يعرف بعضنا البعض.. فالاتصال ممنوع والاختلاط مستحيل والغموض يسيطر على المكان.. حتى جاء صباح أحد الأيام وسمعنا صوتا يصيح أننا اسمى سمير تادروس.. صحفى فى أخبار اليوم ولا بد أن يعرف بعضنا البعض، لأن أيام الاعتقال قد تمتد سنوات.. وكانت أبواب الزنازين من الحديد المصمت من الصاج، وبالجزم العلوى منها فتحة صغيرة لا يتعدى مقاسها ١٠ فى ١٠ أسميناها «الطاقة».. فهى مصدر النور الوحيد أثناء النهار.. وعن طريق هذه الطاقة عرف بعضنا البعض.. وعرفنا أن السجن به ٢٨ زنزانية وساكنوها هم الأساقفة والقساوسة والأفراد العاديين.

وقد حاول القمص بولس باسيلي عضو مجلس الشعب عن دائرة شبرا فى أيام الرئيس السادات أن يخفف عنا.. وكان رجلا بليغا فأطلق على الزنزانية اسم «القلالية» وبذلك عرفنا أسماء الموجودين بالقلاليات وعددهم، حيث كانت الزنزانية عندما استقرت الأمور تضم اثنين وبذلك يصبح عدد المسجونين فى سجن التجربة ٥٦ رجلا.. وقد لاحظت آنذاك أن إدارة السجن قد استبقت جميع الأساقفة والكهنة فى سجن المرج.. وفى يوم من أيام سبتمبر.. انضم إلينا زميل جديد وهو أسقف بورسعيد.. إنه الأنبا تادرس.. الذى كان فى مؤتمر خارج مصر أثناء حملة الاعتقالات، وما أن علم بها حتى رفض الإقامة بالخارج وآثر العودة وبالفعل اقتادوا الرجل من المطار إلى السجن.

وفى وسط هذا الظلام.. كان السؤال الذى ظل يطاردنى طوال الأيام الأولى من الاعتقال: ترى ما هى التهم الموجهة لنا؟ وهل هذا تحفظ أم سجن؟ وما علاقة ذلك بالتكليف القانونى.. وعلى ما أذكر كان فى الزنزانية المقابلة لى.. كان يقيم محام من سوهاج اسمه الأستاذ وصفى، وكان يصر دائما على ترديد حقيقة أنه كان عضوا بارزا فى الحزب الوطنى.. وكان الرجل فى حالة من الذهول فهو أكثر الأعضاء داخل الحزب تأييدا للسادات فى كل تصرفاته، ويظل يضرب كفا بكف على هذه المفارقة الغربية والموجعة.. ودعنى أحكى لك ذكريات يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٨١.. ففى هذا اليوم دخل علينا الصول خليفة بملابسه المدنية إلى عنبر سجن التجربة.. وقال لدينا إشارة من وزارة الداخلية بأن الأنبا صموئيل سوف يأتى إلى السجن للاجتماع بنا..

وكان السادات قد عينه رئيساً للجنة الخماسية البابوية التي انتقلت إليها سلطات البابا عقب قرار عزله.. ثم أضاف بأنه لم يعرف بعد ما إذا كان مجيئهُ قبل أو بعد انتهاء العرض العسكري بمدينة نصر.

ثم عاد الصول ليعلن أن الزيارة تحدد لها موعداً في الثالثة ظهراً بعد العرض العسكري.. وجاءت الثالثة ولم يأت الأنبا صموئيل.. وفي الرابعة عاد الصول خليفة يحمل نبأ تأجيل الزيارة لصعوبة المرور عقب احتفالات أكتوبر.. ولم يكن أحد منا يعلم أن الزيارة قد تأجلت إلى الأبد.. وطبعاً السبب معروف.. وفي مساء نفس اليوم جاءنا النقيب مجدى طبيب السجن وأخبرنا أن هناك تعليمات بفتح أبواب الزنازين للجلوس والتسامر.. وبالفعل كانت سهرة ممتعة.. وظل النقيب محتفظاً بهدوئه وقوة أعصابه ولم يقل لنا أن مصرنا الغالية كانت تعيش أحداثاً رهيبية في تلك الليلة.

وليلتها لم أنم.. فقد كنت على موعد زيارة أسرتى في الصباح وجاء صباح اليوم السابع من أكتوبر.. وفجأة انفتح باب الزنازاة ودخل مأمور السجن كي يبلغنى بإلغاء الزيارة والسبب إعلان الأحكام العرفية.. وعندما سألته هل السادات مات؟ صمت.. ولم يرد.. وبعد دقائق صدرت الأوامر بفتح أبواب الزنازين على أن يقف كل منا أمام باب زنازنته بلا حركة.. وفوق كرسي في منتصف العنبر وقف مأمور السجن.. كي يعلن أن السادات قد مات.. وأن الأحكام العرفية قد أعلنت.. لقد لفنا الذهول جميعاً في تلك اللحظة.. ونحن مسمرون في أماكننا.. ولم ننتبه إلا على صوت الحرس بإدخالنا الزنازين مرة ثانية وممنوع الكلام.. لحظتها أحسست أن نسائم الحرية تقترب، وأننى ساعيش وسوف أعود إلى منزلى.. ولم تعد ثمة مسافة كبيرة بينى وبين يوم الإفراج عنى.

وبعد أن هدأت الأمور.. ودخلنا إلى الزنازين علمنا بوفاة الأنبا صموئيل في حادث المنصة.. وفي يوم الأربعاء ١٤ أكتوبر فوجئنا بالأوامر أن نستعد للرحيل.. البسطاء منا قالوا إنه الإفراج.. والآخرون قالوا سوف ننتقل إلى القلعة أو إلى طرة للمحافظة على حياتنا.. وفي انضباط صارم وخطوات محسوبة خرجنا من سجن المرج إلى سجن وادى النطرون.. وكنت حتى هذه اللحظة لا أعرف الفرق بين السجن والليمان.. وهناك كان المكان أرحب والهواء أنقى والسما صافية.. وشاهدنا المساجين بملابسهم الزرقاء وأدركنا أن في مصر إذاعة تسمع حتى في السجون.. فكل مسجون لديه راديو صغير..

كما شاهدنا كذلك داخل سجن وادى النطرون التليفزيون.
وكانت إقامتنا في هذا السجن في غرفة واحدة واسعة ولكنها كانت مهجورة من قبل
تملؤها الفيران والصراصير وبداخلها دورة مياه قذرة وحقيرة.. ورغم ذلك فقد سعدنا
بها أكثر من سجن المرج.. وكان عددا داخلها ٥٦ مسجوننا.. وقد جاءتنا مأكولات
وكتب من الأديرة المحيطة بنا.. وشعرنا بقرب الإفراج للمرة الثانية.

هؤلاء هم الأساقفة الذين تعرفت على بعضهم داخل سجن المرج.. وهناك
شخصيات أخرى كانت لي علاقة قوية بها داخل السجن أيضا.. ولكن ليس في سجن
المرج.. ولا سجن وادى النطرون.. ولكن في سجن ليمان طرة كان لقائى بالقادة
والزعماء والسياسيين.. ولانتقالى إلى هذا السجن قصة أخرى تستحق أن أرويها لك..
ففى يوم الأربعاء على ما أذكر الموافق ٤ نوفمبر عام ١٩٨١.. وفى لهجة حازمة.. طلب
منى أحد الضباط أن أجمع أمتعتى وأشياءى.. فد تقرر نقلى إلى ليمان طرة.. حيث يقيم
السياسيون فى مبنى «الملحق» وهو أحد العنابر الموجودة بسجن طرة.. وكانت الدولة فى
عهد عبد الناصر قد أنشأته خصيصا لهذا الغرض.. وقد تتعجب حين أقول لك إن هذا
كان أول مطلب لى منذ اعتقالى مع الآباء والأساقفة فى سجن المرج.. وكثيرا ما أردت
التعبير عن هذا المطلب بالاحتجاج على تقسيم المعتقلين إلى مسلمين وأقباط وما يعنيه
هذا التقسيم من وجهة نظرى من أنه تقسيم لمصر كلها.. وليس للمعتقلين.. ولما كان
الإضراب فى السجون له قواعد وأصول فقد جاءت محاولتى غير مدروسة وباءت
بالفشل الذريع.. الأمر الذى جعلنى ألجأ إلى محاولة الانتحار.. حتى أنبه المسئولين فى
السجون إلى رغبتى هذه.. والحقيقة أن محاولتى لم تنجح فى الانتقال إلى سجن
السياسيين والزعماء إلا بعد اغتيال السادات حين وافقت وزارة الداخلية بإتمام نقلى إلى
ليمان طرة مع باقى السياسيين.

وتضم منطقة طرة ثلاثة سجون كبيرة بها حوالى ٦٠٪ من السعة الفندقية للنزلاء..
الأول ليمان طرة ويطل على الكورنيش.. أما السجن الثانى وهو مزرعة طرة ويقع فى
الخلف شرقا مواجها سلسلة الجبل فى امتداد المقطم ويبدو وكأنه مخصص لإقامة
المساجين الأقل عنفا والمحكوم عليهم فى جرائم مخففة.

أما السجن الثالث فهو مبنى جديد تماما وليس بسجن الاستقبال حيث يتم بالفعل استقبال المساجين.. وما إن دخلت سجن الملحق هذا حيث يقيم السياسيون حتى شعرت أنني في سجن ، خمس تجوم ، فهو سجن له سور خاص ومعزول تماما.. وفيه يقيم بعض من حوكموا في أحداث ١٥ مايو عام ١٩٧١ مثل علي صبري وشعراوى جمعة وسامى شرف.. أما أبرز الأسماء التي ارتبطت بها بهذا السجن من رموز العهد الناصري هما محمد فايق وفريد عبد الكريم فقد عاشا في هذا السجن عشرة أعوام.

كذلك من الشخصيات السياسية المصرية التي التقيت بها داخل نفس السجن.. الأخ العزيز فؤاد سراج الدين الذي احتضنتني بقوة وشعرت نحوه بمودة وإعزاز وبلقائى به نسيت أنني في السجن.. فعلى الرغم من أن الرجل تعود حياة القصور ومارس السلطة في شبابه وزيرا في أهم وزارات مصر.. المالية والداخلية.. إلا أنه كان صلبا في مواجهة السجن.. أيضا من الشخصيات الأخرى التي كانت لى علاقة قوية بهم.. الكهل العنيد عبد الفتاح حسن باشا الذى راح يقاوم بشدة كافة أشكال الظلم.. ولعل اللقاء الحار الذى جمعنى بزميلى العزيز المرحوم عبد العظيم أبو العطا.. كان أكثر هذه اللقاءات تأثيرا لما تربطنى به من علاقة خاصة.. لقد عرفت عبد العظيم أبو العطا في عام ١٩٤٦ أثناء عملى في كلية الهندسة.. وفي أحداث الحركة الوطنية إبان فترة مقاومة اتفاقية صدقى - بيغن عام ١٩٤٩ تصادقنا واستمرت صداقتنا حتى فارق الحياة.

وفي الملحق العظيم داخل نفس السجن التقيت بالصديق القديم محمود القاضى وبالدكتور اسماعيل صبرى عبد الله والدكتور فؤاد مرسى.. كذلك الرجل الشجاع الدكتور محمد أحمد خلف الله بشعر رأسه الأبيض الفضى.. ونقطة أخرى مهمة أذكرها لك في سياق هذه الذكريات أنه قد جاءت إقامتى في الزنزانة رقم «١١» بالدور الأرضى مع الزعيم فتحى رضوان.. وكان ثالثنا أحمد فرغل الصحفى وعضو مجلس نقابة الصحفيين وعضو مجلس الشعب عن حزب العمل الاشتراكى.

وشمة اعتراف يجب أن أبسج لك به.. فقد كانت أشهى الأطعمة وأخضرها تلك التي تعدها السيدة هدايت حرم الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل.. فقد كان الرجل يصر دوما على أن أتناول غداءى معه كل يوم.. وكانت غرفة الأستاذ هيكل في الطابق الأعلى باعتبار أنه من أوائل المعتقلين الذين قدموا إلى سجن ملحق طرة.. وحيث اتفق الجميع

على ترك الدور الأرضي للمسيوخ والكهول الذين لا يتحملون صعود السلالم.. وغير هؤلاء.. هؤلاء.. عرفت المحامى عبد العزيز محمد وعبد العظيم المغربى الذى كان مسئولاً عن الإذاعة المحلية داخل السجن.

*** فى ضوء عقوبة السجن المرفوضة.. كيف ترون الطريقة المثلى لمعالجة الرأى الأخر أو الرأى المعارض؟**

.. طبعاً قصة السجن مع أى مفكر سياسى تختلف باختلاف الظروف والأوقات وهى بالتالى جزء من تاريخ مصر.. وبالنسبة لى كنت حالة خاصة.. حيث اعتقلت فى ظروف غير عادية.. بمعنى أنه وكما سبق أن ذكرت لك.. أنه حين اعتقالى حدثت تفرقة ضريبية بين المسلمين والأقباط فى سجن المرج.. ومن بعده انتقلت إلى سجن وادى النظرون ثم إلى سجن ليمان طره.. وفى هذه الحقبة.. كنا قيماً يسمى بسجن التجربة.. وهو نوع من أعتى أنواع السجون وفيه يجربون المساجين الجدد داخل السجون كى يكتشفوا ويجربوا مدى تحملهم لهذه العقوبة.

ثم جانباً آخر هو السجن الذى يضعون فيه المحالين للأشغال الشاقة إلى الإعدام.. وقد قضيت فيه من ٢ سبتمبر عام ١٩٨١ حتى ١٥ أو ٢٠ أكتوبر من نفس العام.. ونعود للإجابة على سؤالك.. بالقول إنه سيأتى وقت ليس ببعيد عندما سيضحك الناس ويتندرون علينا لأننا نضع أصحاب الرأى المعارض داخل السجون لمجرد أنهم يعارضون بأرائهم وأفكارهم فقط، وهذه قضية مبدئية وخطيرة.. ونحن الآن ندهش بنفس القدر حين علمنا أن بعض أجدادنا فى البشرية كانوا يضعون المعارضين لهم فى أقفاص معلقة مع الاسود كوجبة شهية عقاباً لهم على آرائهم المعارضة.. أو وضعهم فى زيت مغلى أو وضعهم على خازوق.

إذن هى سممة من سمات تطور البشرية.. وفى كل فترة زمنية تختلف الوسائل.. ولكننا نلاحظ أنه كلما تقدم وتحضر الإنسان كلما قبل الخلاف فى الرأى ورحب بالمعارضة.. ولكنى أزعج أنه أمامنا شوط طويل على هذا الدرب فى مصر.. والسبب يرجع إلى أننا مررنا على عصور قهر شديدة ومتنوعة ووجود مثل هذه الفترات بدءاً من أحداث التعذيب داخل السجن الحربى وخلافه.. ليست ببعيدة ولا خافية علينا.. أيضاً ما يعاناه الآن بعض فئات المعارضة الأخرى رغم اختلافى معهم.. إلا أننى لا أقر عقوبة السجن أو التعذيب ما دامت التهمة هى الرأى والفكر.. ولا بد لنا أن نفرق هنا بين

موضوعين أساسيين الأول: محاولة قلب نظام الحكم بالقوة ومن هنا لابد على النظام سواء مصرى أو غيره أن يدافع بالقوة عن مثل هذه المحاولات.. لأننا في هذه الحالة أمام نوع من المعارضة التى تستخدم العنف والسلاح والتأمر.. أما أن يحبس الإنسان لأن لديه عقيدة أو فكريا.. فإن ذلك فى منتهى الخطورة وهذا هو الموضوع الثانى المتعلق بأصحاب الراى الحر المستنير حتى ولو كان يتعارض مع راى النظام.

وفى يقينى أن الزج بأصحاب الراى والمفكرين داخل السجن مجرد أنهم يعارضون يولد داخل أنفسهم العنف والحقد على النظام نفسه.. وبالتالى نجد أن النظام فى هذه الحالة.. يخسر ولا يكسب، وخسارته تكون كبيرة وعلى المدى البعيد.. وخذ مثلا واحدا على ذلك.. عبد الناصر حينما اعتقل كل الإخوان المسلمين وأدخلهم السجن.. هذه العقوبة أفرزت بداخلهم العنف الذى تمثل فى ظهور جماعات دينية متطرفة مثل الجهاد وآخرين.. ولعلها دعوة أوجهها.. دعنا نتحاور ونختلف ما دمنا لا نستخدم السلاح.. لأن المحاورة تولد الأفكار الجديدة.. والعبرة فى الاختيار للفكرة الأنسب والأصلح للمجتمع من منطلق أننا مقبلون على عصر قبول الاختلاف فى الراى وأنه لا يحتكر أحد الحكمة وحده.. وأنه لا غلبة لأصحاب الراى بالقهر.

وهل ترون أنه من الضرورى أن يكون هناك سجون خاصة للمفكرين وأصحاب الراى.. أو أن يزج بهم وسط المجرمين والقذلة؟

.. شوف.. لقد كانت هذه قضيتى وأنا عضو مجلس الشعب.. وتجربة السجن التى عايشتها كانت وما زالت ماثلة أمامى.. وقد أليت على نفسى طوال وجودى داخل المجلس آنذاك أن أحقق هذه الرغبة فطالبت أولا بفصل السجون عن وزارة الداخلية ونقل تبعيتها إلى وزارة العدل، لأنها جزء من تطبيق العقوبة.. هذا بالنسبة لجميع الجرائم فلا ينبغى أن يكون السجن برئاسة ضابط يقهر النفس الإنسانية وإنما ينبغى أن يكون قائم السجن أستاذا جامعا أو دارسا لعلوم النفس وعلوم الجريمة حتى يتحول السجن من مجرد أداة للعقوبة فقط إلى أداة للعقوبة والإصلاح فى آن واحد.. ولا مانع من قرار العقاب كجزء من العودة إلى الذات.. ولا بأس من العزل.. حتى يفكر الإنسان فى مصيره وفى أسباب وجوده هنا.. ولكى يصحح مساره.. هذا جزء أساسى من العقوبة.. و طالبت به كحق للمسجون العادى.. أما المسجون السياسى ورجل الفكر الذى ترى الحكومة أيا كان نوعها أن فى وجوده خطرا عليها لأنه صاحب فكر معارض..

وتود أن تعزله فلا بد أن يوضع في مكان أمين وآدمى، ويعامل معاملة إنسانية جيدة كأن يتم عزله في أحد القصور الملكية مثلا ويكرم.. ولا يتم تعذيبه أو إهانته.. ولقد عاهدت نفسي ومنذ خروجي من السجن أن أناضل وأكافح من أجل حياة أفضل لكافة المسجونين.. وعلى رأسهم المسجون صاحب الرأي وصاحب الفكر.

« نريد أن نعرف كم كتابا.. ألفه الدكتور ميلاد حنا داخل السجن أو خارجه تأثرا بهذه التجربة؟

.. في الحقيقة أنا خرجت من السجن في انفعال شديد.. ولم يكن لدينا أي وقت على الإطلاق لتأليف كتب.. وانغمست في حياتي السياسية داخل حزب التجمع.. وبسرعة شديدة جاء عام ١٩٨٤ واختارني الرئيس مبارك عضوا بالبرلمان.. ثم تم اختياري رئيسا للجنة الإسكان.. ومن ثم انخرطت في حياتي السياسية بالكامل.. ولم أفكر في تسجيل هذه التجربة في كتاب إلا في عام ١٩٨٧.. عندما حل البرلمان.. وهجرت العمل السياسي لشهور عديدة.. أي بعد خمس سنوات بالضبط.

وعلى عجل استطعت أن أعيد الذاكرة من جديد.. وأحاول تسجيل ما شاهدته وشعرت به من خلال هذه التجربة.. عندئذ خرج كتاب «ذكريات سبتمبرية».. وكان أول الكتب التي سجلت فيها هذه الفترة وهذه التجربة.. بخلاف ذلك عكفت على تأليف كتب أخرى في مجال الإسكان.. ثم كتاب آخر متأثرا بتجربة السجن وأصالة الإنسان المصري.. وخرج بعنوان «العمدة السبعة للشخصية المصرية».. وهذا بخلاف كتبي العلمية المتعلقة بتخصصي في فرع الهندسة.. وأقولها لك كما كتبتها في ظهر غلاف أحد كتبي لقد دخلت السجن أستاذنا جامعي.. وخرجت منه ممارسا سياسيا ومفكرا.

وفي ختام حديثي أقول: إنه عندنا في مصر الإنسان لا يكون سياسيا أو مفكرا أو زعيما إلا إذا دخل السجن.. فهو البوتقة ذات الحرارة العالية المكثفة التي تولد وتفجر طاقات في النفس الإنسانية التي يصعب اكتشافها بدون تجربة السجن.

الحكاية الخامسة يرويها: لطفى الخولى:

اعتقلت ١٢ مرة.. خمس في عهد الملكية.. والباقي في عهد الثورة

يبدو أننا سوف نقضى معظم الوقت داخل هذه الأوراق البيضاء عند حدود كلمات الحوار الذى أجرته مع الكاتب الصحفى والمفكر والأديب الأستاذ لطفى الخولى، وذلك لأنه لم يفعل كما فعل أغلب المفكرين السذيين التقيت بهم.. من حيث إسرارهم فى تسجيل تجربة السجن فى حياتهم فى كتاب..

والشئ الجديد الذى اتبعه الأستاذ لطفى الخولى على هذا الدرب أنه عندما خرج من المعتقل آخر مرة حرص على تجميع تجربته هذه التى سجلها فى قصص قصيرة وأصدرها فى مجموعة كبيرة صدرت فى عام ١٩٨٧.. بمعنى أنه قد لجأ إلى الأسلوب الروائى فى نقل تأثير تجربة السجن والاعتقال على حياته الفكرية والسياسية.. وأسفر هذا الأسلوب عن كتابة مجموعتين قصصيتين هما «رجال وحديد» وقد كتبها لطفى الخولى فى سجن بنى سويف عام ١٩٥٣.. ثم مجموعة «ياقوت مطحون» التى كتبها ما بين سجن القلعة ومعتقل الفيوم والقصر العينى على امتداد أعوام ١٩٥٩ و١٩٦٠.. وقد نشرت هاتان المجموعتان منفصلتين أعوام ١٩٥٣ و١٩٦٤ على التوالى..

وقد يبدو هذا المدخل للحديث عن الكاتب والمفكر لطفى الخولى غريباً للبعض منّا.. وربما يرجع سبب الغرابة إلى أننا جميعاً نعرف الأستاذ لطفى الخولى ككاتب سياسى فى المقام الأول.. وصاحب رأى وفكر فى هذا الميدان.. فله عدة دراسات سياسية تبلغ تسعة كتب كبيرة.. بجانب مقالاته السياسية المعروفة على هذا الدرب.. ولكن ما كتبته منذ لحظات لا يبدو لى غريباً على الإطلاق خصوصاً وأننى اكتشفت أن لطفى الخولى يتسم بصفة الأديب أكثر من صفة الكاتب والمفكر السياسى.. وليس هذا الاكتشاف من اختراعى.. بل عرفته من السيرة الذاتية للمفكر لطفى الخولى.. ومن التعرف على بدايات

كتاباتة في هذا المجال.. وعلى حد قوله لي أثناء الحوار.. إن كل كتاباته الأدبية قد أفرزتها تجربة السجن والاعتقال.. فبجانب المجموعتين السابقتين هناك ثلاث مسرحيات هم: «قهوة الملوك» و«القضية» و«الأراذب»..

وهذه المسرحيات الثلاث شاهدها جمهور القاهرة في منتصف الستينات من هذا القرن.. بجانب ذلك فهو أيضا كاتب سيناريو مبدع.. كتب أكثر من عشرة سيناريوهات لأفلام روائية طويلة نذكر منها على سبيل المثال «ثمان الحرية» إخراج نور الدمرداش.. «القاهرة ٣٠» إخراج صلاح أبو سيف و«العصفور» من إخراج يوسف شاهين..

ورغم أن الأستاذ لطفى الخولى قد ابتعد قليلا عن ميدان الأدب الذى أبدع فيه.. وكانت بدايته الحقيقية على أرضه.. حيث انشغل طويلا بهوم الفكر السياسى.. إلا أنه كان يعود من حين لآخر إلى ميدان الأدب والفن، فقد حرص على رئاسة وإدارة الدراسات التى نظمتها مؤسسة السينما الفرنسية بباريس عام ١٩٧٢.. ونفس الشيء حدث لحلقات الدراسة عن السينما والعالم الثالث التى نظمها مهرجان قرطاج عام ١٩٧٤..

لهذا كله.. لم أجد أى غرابة في حديثي عن الأديب لطفى الخولى كمدخل لحديث المفكر وتجربة السجن.. ورغم أننى لم أعتز على أية ورقة سجل فيها لطفى الخولى تجربة السجن كذكريات مباشرة إلا أننى حاولت العثور على هذه الكلمات من خلال الخوض وراء سطور عباراته التى سجل بها انطباعاته عن تجربة السجن في مجموعته القصصية التى صدرت منذ عدة أعوام.. وقد سطر بعض هذه الانطباعات في المقدمة التى حرص على كتابتها مشيرا إلى هذه التجربة والتي قال فيها: في تجربتي قصة من فصلين: فصل أسميه «ما قبل السجن».. كانت نيران الحرب الشانسية على وشك أن تتحول من ساخنة ملتهبة إلى باردة عاصفة في منتصف الأربعينات، عندما رحلت أدرس القانون، وأحضر نفسى للمحاماة.. يؤرقنى مع شباب جيل المتفجر هموم وطن محتل مطحون يسعى للخلاص بطرق شتى صاخبة.. ولأن المحامى أو المناضل السياسى سلاحه الكلمة وفن الخطابة.. أو هكذا تفتحت الرؤيا في أعماقى.. لجات إلى الأدب والفن قراءة ومشاهدة.. وإذا بسى أدخل عالماً جديداً، الواقع فيها غير محسوس، بيد أنه أكثر

حيوية من الواقع المحسوس خارج الذات..

والفصل الثاني تحركت أحداثه بين فراغات الحرية وسط قيود السجن حيث تقزم القانون الذى حسبته يوماً سيداً عملاقاً، لا يرقى إليه إنسى ولا جنى.. انسخط أمام عيني عبداً ذليلاً يطيع بلا تردد أدنى إشارة من أصبع الشاويش.. انحشر في الزنازين أكوام من البشر، تدل عليهم أرقام معدنية.. وجاءوا من سراديب العالم السفلى.. سرق قانون المجتمع حقهم في الحياة.. وكنت حينما كان يغرق السجن في لجة الصمت بعد غروب كل شمس.. كنت أقبع في زنزانتى المنفردة، أجلس مع خبزي الجاف في الظلمة.. وحيداً إلى نفسى كأنها ذلك الآخر الذى عاد فجأة بعد غربة التشرد في الزمن العتيق الذى لا عمر له.. في هذا الجرح السجين، تفتتت أولى كلماته الأدبية.. كانت قصة قصيرة بعنوان «وصرت رجلاً».. نشرتها فيما بعد في صحيفة في الخمسينات كتبتها آنذاك بقلم «كوبيا» في حجم عقلة الصبغ على ورق «البفرة» الرقيق الذى كان يستخدم في لف السجاير..

ولسوف نجد أرضية مشتركة من الفهم إذا ما تعمقنا في كلمات الأستاذ لطفى الخولى.. وتعبيراته.. ولعلها تنقلنا بصدق إلى واقع الألم والظلم الذى لاقاه المفكر لطفى الخولى من جراء هذه التجربة.. وكانت التهمة هي القلم والكتابة وحرية الرأى.. ولسوف نلمس ذلك أكثر حين نتتبع بشكل واع كلمات هذا الحوار.. التى لم تخرج عن صلب موضوعنا الذى اخترناه عبر هذه الصفحات.. وهو تأثير تجربة السجن أو الاعتقال على الفكر المصرى بشكل عام والمفكر بشكل خاص..

وضيفنا هو الكاتب الأستاذ لطفى الخولى.. مع وعد غير مؤكد من جانبنا يتمثل في محاولة الاستعانة ببعض الجمل والعبارات التى صور من خلالها الأستاذ لطفى واقع هذه التجربة مستخدماً أسلوبه الأدبى في قصصه القصيرة التى نشرها.. ونوهنا عنها منذ لحظات.. كما سنحاول أيضاً أن نقف خلف الأسئلة.. وربما لا نقولها صراحة.. حتى نفسح المجال أكثر لنص الحوار ويحاول القارئ من جانبه أن يقف على نصوص هذه الأسئلة من واقع تتبع كلمات الضيف.

وقبل أن ندير الشريط لابد أن نذكر أن هذا الحوار قد سجلناه في حلقتين.. وفي يومين متتاليين بناءً على حماس الأستاذ لطفي الخولي ورغبته في أن يقول لنا كل تفاصيل هذه التجربة..

يقول الأستاذ لطفي الخولي: لو حسبنا مجموع السنوات التي سجدت خلالها تقدر تقول «دستة».. يعني ١٢ مرة.. بخلاف «الفكرة».. وإذا حاولنا تفصيل ذكر هذه المرات أقول لك.. لقد اعتقلت خمس مرات في العهد الملكي.. المرة الأولى منذ تفتح الوعي السياسي بداخله وانشغالي بهوموم مصر آنذاك وبهوموم الوطن في إطار الحركة الوطنية ابتداءً من عام ١٩٤٤ أو ١٩٤٣.. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية وكان عمري في ذلك الوقت أربعة عشر عاماً..

وتراها بداية مبكرة.. والسبب أنني قد تربيت في بيت سياسي.. فقد شاهدت فيه مناظرات ومناقشات سياسية من مختلف الاتجاهات والأحزاب من ناحية والدي الذي كان انتمائه للحزب الوطني.. وخالي الذي كان من الوفد وعمى البهى الخولي أحد رجال مصر التسعة الذين أسسوا حركة الإخوان المسلمين. في ذلك الوقت المبكر من عمري كان منزلنا يضيح بالمناقشات السياسية.. كما ترى على اختلاف ألوانها واتجاهاتها..

أضف إلى ذلك وجود تيار تاريخي آخر متمثل في حكايات والدي عن تاريخ مصر الوطني وأبطال هذا التاريخ وعلاقاته مع زعماء الحزب الوطني ودورهم السياسي آنذاك.. وكذلك كان هناك كثير من الكتب والصحف التي كانت تعبر عن مختلف هذه الاتجاهات الفكرية والسياسية.. أضف إلى ذلك انتعاش الحياة العامة مثل المظاهرات التي كانت تطالب بالانسحاب والحريات العامة التي كانت متوفرة آنذاك والتي في ظلها كنا وراء أبنائنا نطالب بمحاربة اغتياح الحرب وهم الفئة القليلة التي أفرزتها الحرب العالمية الثانية..

كل هذه المؤثرات قد شكلتني في بداية حياتي السياسية.. وجعلتني أعيش هذا الواقع وأنا مازلت صبيًا.. وأذكر أن أول مرة اعتقلوني قد سبقها موقف من جانب والدي.. حيث شاهدني أشارك في مظاهرة من تلك المظاهرات التي كانت تطوف شوارع القاهرة.. والتي نجحت خلالها في الإفلات من رجال البوليس.. بينما قبضوا على غيري..

هذه المرة حين عدت إلى منزلنا فوجئت بوالدي الرجل الوطني المخلص الذي قدم لمصر الشيء الكثير.. يعنقني على اشتراكي في هذه الأعمال.. وهنا كانت علاقتي بالوالد علاقة متميزة.

فرغم هذه الوطنية.. وهذه الأعمال الجليلة إلا أنه كان ينظر إلى كابن يريد أن يبعد به عن هذا التيار.. فقد كانت تغلب عليه مشاعر الأبوة للدرجة التي هددني فيها بأنهم لو أمسكوني فسوف يتخلى عني ولن يسعى لإخراجي من السجن.. والشيء الغريب أنني أعرف نبرات صوت الوالد.. وأقهم منها ميوله وحالته النفسية.. وما يريد أن يقوله صادقاً أو غير صادق.. وفي هذا الموقف بالذات فهمت أن والدي لا يعنقني من أجل أن أبتعد عن الاحساس الوطني والمشاركة في أحداث بلادي.. ولكن كان هدفه وكما سبق أن قلت كان يخاف علينا جداً.. لقد أحسست بالفعل أن هذا التهديد قد خرج من وراء قلبه وعقله..

وفي المرة الثانية.. رغم هذا التحذير اشتركت في المظاهرات وقبضوا على وسجنت.. وأذكر أن أول علاقة لي بعالم السجون والاعتقالات كان حجز قسم السيدة زينب.. وكان ذلك عام ١٩٤٣ أو أوائل عام ١٩٤٤.. وفي هذه التخشيبية التقيت لأول مرة مع قادة الحركة الفكرية والوطنية المصرية فكان معي الإخوان المسلمون.. والشيوخيون والوفديون والأحرار الدستوريون.. وفي هذه التخشيبية رأيت أيضاً والدي يأتيني مسرعاً.. بالطعام والشراب بخلاف ما كان منه سابقاً..

واسمح لي أن أعود بك إلى السوراء قليلاً حتى أقول بعض المعلومات عن أسرتي وأصلها.. إنني رغم ولادتي بالقاهرة إلا أن جذور أسرتنا من القرشية بمحافظة الغربية.. وهي قرية لعبت دوراً كبيراً في تاريخ مصر.. وفي منتهى الأهمية.. ففي هذه القرية اختفى عبدالله النديم ثماني سنوات.. وتستر عليه أهل القرية ورفضوا تسليمه للسلطات آنذاك رغم المكافأة السخية التي أعلنتوا عنها.. وقد قضى عبدالله النديم هذه السنوات الطوال داخل القرية معلماً للأهالي على لمبة جاز.. وقد أثرت هذه الواقعة في نفسي.. تأثيراً كبيراً.. امتدت إلي سنوات طويلة.. فقد اتخذت مع آخرين شعار «الحصيرة ولبة الجاز» من أجل ثقافة وطنية.. وطبقناه عملياً بإنشاء دار نشر لتحقيق

هذا الهدف.. بجانب ذلك تمتاز قرية القرشية بإنجاب شعراء رومانسيين على مستوى عالٍ أمثال الشاعر أحمد الكاشف وكان من أكبر المعاصرين لأمير الشعراء أحمد شوقي..

المهم.. في هذا الإطار بدأت أتعرف على التيارات السياسية الموجودة آنذاك.. وتأثرت أولاً بتيار الوفد الذي امتاز في هذه الفترة بدفاعه عن كل المساجين والمفكرين السياسيين من كل التيارات الأخرى بدون تفرقة.. فكان يوكل المحامين بما في ذلك للإخوان وللشيوعيين وكل التيارات التي تخالف تعاليم حزب الوفد.. من متعلق ما كان يردده النحاس باشا آنذاك من أن الوفد ليس حزباً.. وإنما هو يمثل الأمة المصرية كلها.. ومع ذلك فقد كنت أرى حزب الوفد تتوقف طموحاته السياسية عند التحرر من الاستعمار ووطنية الحكم، ولم يصل بفكره آنذاك إلى الأفكار التي بدأت تجتاح الساحة السياسية والتي كان يمثلها الشيوعيون..

بجانب الأفكار التي طرقتها آنذاك الإخوان المسلمون والتي كنت أراها تمثل تيار الأصالة والمعاصرة من حيث التمسك بالقديم.. والبحث عن كل ما هو جديد.. لكن مع ذلك كنت تشعر أنهم يقدمون مواضع.. وليست رؤى للمستقبل.. وهذا في حد ذاته كان خلافاً مع عمى الذي كان من رجال الإخوان في ذلك الوقت والذي كان له الفضل الكبير في تربيتي الدينية.. ولعلك تستغرب حين أقول لك: إنني دخلت المعتقل لأول مرة متأثراً بأفكار الإخوان المسلمين.. صحيح أنني لم أكن عضواً معهم.. ولكنني كنت قريباً جداً من فكر هذه الجماعة بحكم تأثير عمى.. للدرجة التي كنت أذاكر فيها دروسى بمسجد السيدة زينب حتى لا يفوتنى أى درس من الدروس الدينية..

وتوالى عمليات الاعتقال.. بعد ذلك إلى أن أمسكوا بى في حريق القاهرة عام ١٩٥٢ حيث أصبحت عضواً نشطاً في الحركة اليسارية المصرية آنذاك أو ما يمكن أن تسميه الحركة الشيوعية أو الماركسية.. وكنت قد اكتشفت عند إلقاء القبض على بسبب حريق القاهرة أنه ليس هناك حركة ماركسية واحدة.. بل عدة حركات مختلفة ومتنافرة في هذا الإطار..

وفي هذه المرة.. ساقوننا إلى معتقل روض الفرج ولا أستطيع أن أحدد لك بالضبط عدد الأيام التي قضيتها في هذا المعتقل.. لكننى أستطيع أن أؤكد لك أن المرات الاثنتى عشرة التى دخلت فيها السجن يمكن أن تصل إلى حوالى ثلاث سنوات ونصف فقط.. فى حين أن لى زملاء قضوا فى سجن متصل ومرة واحدة أكثر من اثنتى عشرة سنة..

وأنا أعتبر نفسى فى هذا المجال سعيد الحظ.. ليس فقط من ناحية المدة.. ولكن من حيث تنوع عدد مرات السجن واختلاف أماكنها.. وكان لكل مرة ومكان تأثير خاص على مسار حياتى السياسية والفكرية.. وأنا أذكر أن آخر مرة دخلت فيها السجن.. كانت أيام جمال عبد الناصر.. حين زرعوا التسجيلات فى بيتى بعد مناقشة سياسية.. وبالتحديد فى عام ١٩٧٠ وقبيل وفاته.. حتى إننى كنت معتقلا بسجن القناطر حتى بعد وفاته وفى حبس انفرادى..

*** لو قلنا.. ما هو تأثير تجربة السجن طوال هذه المرات على فكر لطفى الخولى؟..**

- شوف.. أنا فى السجن أولا تعرفت أكثر وبعمق وبشكل مباشر على المجتمع المصرى.. كما لم أكن أعرفه من قبل.. لأنك داخل هذه الجدران الصماء تتعرف على أنماط بشرية غريبة ومتنوعة.. رغم أن ذلك لم يكن من جراء الاختلاط.. لأنه كان هناك عزل تام بين المسجونين السياسيين وبقية المسجونين بتهم وجرائم أخرى.. وهذا العزل كنت أراه بدرجات مختلفة وكان فى كثير من الأحيان عزلا شكليا.. ولكن المجتمع داخل السجن يكون نفسه رغم هذا العزل.. ويبدأ فى عقد ارتباطات وعلاقات بعضها جيد وبعضها غير جيد.. ولكن بشكل عام هذا المجتمع لديه القدرة على تسيير الحياة داخل السجن أكثر من إدارة السجن نفسها.. بالإضافة إلى أننى لم أجد مجتمعا أنظف من مجتمع السجن.. فى العلاقات الإنسانية فاللص يتخلى عن طبائعه داخل السجن.. فلا يسرق ولا يغش.. وإلا تعرض لعقوبة من زملاء السجن تكون أقسى مما يناله من عقوبات تفرضها عليه إدارة السجن.. وعلى سبيل المثال يمكن أن يحكموا عليه بالسجن داخل السجن.. فلا تعاون معه.. ولا علاقات.. إذن كأنما يحكم عليه بالموت.. أيضا هناك مشاكل أخرى تعرفنا عليها داخل السجن.. المساجين الفقراء.. وأصحاب التجارة الممنوعة.. والإتاوات.. كما اكتشفت أن أسوار السجن العالية قد فشلت فى منع هؤلاء المساجين من الاتصال.. بالخارج..

لذلك تجد كل شيء موجوداً داخل السجن وداخل هذه الأسوار.. أما الحاجة الثانية.. أننى اكتشفت داخل السجن أيضاً أنهم يمنعون عنك الورق والقلم.. وأى شيء يقرأ فيما عدا الكتب المقدسة.. لكن مع ذلك كان هناك إمكانية لتهريب الصحف والورق والكتب والأقلام.. أما أصعب شيء واجهته داخل السجن هو الحبس الانفرادى.. الذى كان يعنى.. أن تكون فى زنزانة وحدك لمدة ٢٢ ساعة.. مع نفسك فقط.. وتخرج لمدة ساعة واحدة فى اليوم لقضاء حاجتك وللتريخ.. وكانوا يسمونها «ساعة شمس».. فأنت طوال هذه الفترة الطويلة تجد نفسك أمام نفسك.. حينئذ تحاول اكتشاف نقاط الضعف والقوة فيها.. وقد صورت هذا الإحساس ونقلته بأمانة من خلال كلمات سطرته فى أحد كتبى الأدبية.. حين قلت:

فى إحدى الليالى الليلية.. أحكموا حبس السجن فى القمقم عندما أعلننا اضراباً عن الطعام.. فلا ورق ولا كتب ولا صحف.. ولا حتى نسمة هواء، تحمل إلينا زقزقة العصفور اليتيم الذى بنى عشه بين الأغصان الجرداء لتلك الشجرة البائسة المصلوبة عند البوابة الكبيرة.. وحين كنت أتوسل فى وحدتى، سماع صوت، أى صوت.. حتى ولو كان ملين صمتى، داهمتنى قوة روحية، لا عهد لى بها من قبل.. راحت تدب الحركة فى أوصالى وتدفعني إلى نزع علامات الاستفهام عن الجدران وزرعها فى النفس العارية.. وأعود وأؤكد لك أن هذه هى إحدى مميزات السجن، وإن شئت قل إحدى مميزات المحن الكبرى.. وفى هذا المجتمع المغلق وأنت مع نفسك تبدأ فى تحديد اختياراتك وتسال نفسك هل ستبدأ الطريق من جديد.. أم ستظل على ما أنت عليه.. المهم أنك تعيد حساباتك من جديد وعلى ضوء هذه الحسابات تعرف هل ستستمر أم لا.. وطبعاً كان من أهم أهداف البسوليس السياسسى فى ذلك الوقت أن تتراجع عن أفكارك وآرائك وميولك.. وكان سبيلهم إلى ذلك مساعدة هؤلاء على الخروج ميكراً.. وكان شرطهم الوحيد أن تقدم تعهداً بعدم الرجوع مرة أخرى إلى تلك الأفكار ولتلك الممارسات السياسية التى يرونها تعارض أفكار النظام.. ويظل هذا التعهد موجوداً بأيديهم سيقاً مسلطاً على رقاب المفكر السياسسى.. حتى لا يفكر فى العودة إلى ما اعتنقه وما أقر على الابتعاد عنه سلفاً..»

بجانب ذلك رأيت داخل السجن ألوانا متعددة من التعذيب النفسى والبدنى.. لذلك يسواجهك الاختيار رغم أنفك.. وتعود وتسأل نفسك هل ستستمر وتحمل كل هذه المشاق.. أم تستسلم وتتخلى عن أفكارك وآرائك..

الحاجة الثانية أنك خلال تلك اللحظات ترى نقاط ضعفك وقوتك وتحاول استخدام هذه النقاط في استكمال النقص الذى قد يعترى نفسك في وقت ما.

والحاجة الثالثة.. أنك تتعلم من مجتمع السجن وترى قيما جديدة تظهر لدى بعض الناس في لحظات معينة.. حينما يتخلسون عن عالم الجريمة ويصبحون مجتمعا آخر يشعر كل منهم بأحاسيس الآخر.. إلى درجة أنك تكتشف وجود أناس ربما تراهم في عالم الحياة لأول مرة بهذه الشهامة وبهذه الرجولة..

ولعلنى أقول لك.. إن أى انسان حينما يدخل السجن لأول مرة.. تتصور أن هذا الإنسان المكبل بهذه القيود الحديدية وأسلوب الحياة الخشن إلى درجة بدائية.. بجانب الضرب والركل وألوان أمتهان كرامة الإنسان ثم التجويع في بعض الأحيان.. عندئذ يعتقد أنه لن يستطيع أن يتحمل ساعة واحدة داخل هذه الجدران.. ثم تقاسجا بمرور الساعة وراء الأخرى ببطء شديد ويأتيك اليوم التالي.. وهكذا.. وبعد مرور عدة أيام تحاول أن تتأقلم داخل هذا المجتمع الجديد.. عندئذ تتفجر في الإنسان طاقات عظيمة تظل مختفية لحين ظهورها في وقت الأزمات والمحن، وأعظمها اللحظات داخل السجن، وتجعلك تتقبل هذه الحياة الخشنة والشاذة والبدائية.. ومن ثم تصير سيد هذا الموقف وتتغلب على هذه المشاكل وتتقبل العيش داخل جدران السجن..

وما أريد أن أصل إليه هو قدرة الإنسان على التكيف مع ظروف حياته الجديدة مهما كانت شاقة وعسيرة.. أيضا بخلاف ذلك تكتشف وأنت داخل السجن مناطق مجهولة داخل نفسك.. وبالنسبة لى.. فقد اكتشفت امكانياتي وقدراتي وموهبتي الأدبية والفنية.. ولعلك تدهش أنتى قد أنجزت معظم مؤلفاتي الأدبية والسينمائية داخل هذه الجدران فيما عدا قصة وحيدة خارج السجن وهي قصة «المجانين لا يركبون القطار».. هذه القصة بالفعل كنت قد كتبتها بعد خروجى من السجن.. أما بالنسبة للقصص القصيرة التى أعادوا طبعها فقد كتبت لها مقدمة.. أوضحت فيها كيف اكتشفت هذه القدرة الكامنة فى داخلى.. وكيف اكتشفت فى نفس الوقت مواهبى الأدبية؟.. ودعنى أقرأ

لك بعض مشاهد قصص مجموعة رجال وحديد.. وهى المجموعة التي خصصتها لنقل مشاعري وعالمى داخل السجن..

تحت عنوان «الليلة الأولى» كتبت أقول: «دار مفتاح في ثقب الباب دورتين صاحبهما صرير رتيب.. وسمع حسن وقد صار وحيدا في الزنزانة رنين طرقة أو اثنتين أحس أنهما من صنع الطرف السفلى للمفتاح الذي أغلق دونه الباب الحديدى.. وتبع ذلك وقع أقدام ثقيلة تبعد وصوت خشن يأتيه من خلال ضجيج المساجين الذين تتكس بهم زنانات العنبر: تصبح على خير يا أستاذنا.. ورغم أن التحية كانت قد نفذت تماما إلى أذن حسن غير أنه لم يستطع أن يحرك لسانه يرد لها إلا بعد مضي شوط غير يسير يستعرض الصور العديدة التي تزاممت في وعاء رأسه من الساعات القليلة الماضية.. وتذكر الزمن فجأة..»

ومن مجموعتي القصصية الثانية.. والتي صدرت بعنوان «ياقوت مطحون».. خصصت إحدى قصصها لنقل صور غريبة شاهدتها خلف القضبان.. وعلى سبيل المثال.. صورة الشذوذ الجنسي.. وعلى ما أذكر أن اسم هذه القصة هو «الصفحة».. ولعلى أقرأ لك منها بعض الجمل والعبارات..

«... وبدأ الشاويش سليمان.. يتحرك ببطء في أرجاء المطبخ وتحركت معه عينا «سنقر» خطوة خطوة.. كانتا في ظهره عندما انحنى يختبر الأعشاب الخضراء المتربة التي يقوم بتقطيعها ثلاثة من المساجين لاعادتها للطبخ على أساس أنها ملوخية خضراء.. وكانتا فوق طرف حذائه الأيمن حين عن له أن يرتفع فجأة دون ما سبب ليركل السجن الهزيل كالعصا الخيزران.. قيد حرجه إلى الجدار مذعورا.. وكان يبدو أن ثعبه حديثا صامتا قد دار بين «سنقر» والشاويش سليمان خلال النظرات المتبادلة وانهما قد وصلا إلي اتفاق.. ولم يبق إلا مناقشة التفاصيل»..

*** وهل هناك ذكريات أخرى تحملها بداخلك عن هذه التجربة؟ ***

— طبعا.. خاصة آخر مرة دخلت فيها المعتقل.. لأنهم سجنوا معى زوجتى.. وعلى ما أذكر أنهم أيضا قد سجنوا سكرتيرة الأستاذ هيكل «مدام نوال وزوجها».. وكل ده كان أيام عبد الناصر.. وقد مات ونحن داخل السجن ثم أفرج عنا..

* نريد أن نعرف من الاستاذ لطفى الخولى.. وبشكل عام لماذا يسجن المفكر؟

– دا بيختلف من بلد إلى بلد.. ومن عصر إلى عصر.. أما بالنسبة لمصر.. فهناك سببان ونوعان من المفكرين.. وبشكل عام ليس هناك شك في أن السجن والاعتقال في اتجاهه العام ضد الفكر ويكبتة.. ولكننا رغم رفضنا لهذا الكبت وندينه.. إلا أننا نعتبره تحد جديد للفكر.. من حيث أنه يثقله ويحدد نشاطه.. ويكشف جوانب خفية جديدة في هذا الإطار وكثيرا ما اعتقد أن فترة السجن هذه تعتبر نقطة تحول في حياة المفكر.. ومع ذلك ليس بالضرورة لكي يكون للمفكر نقطة تحول أن يدخل السجن.. ولكن بشكل عام فإن المحن والمعضلات الحياتية في العالم محليا ودوليا وتصدى الفكر لها سواء في شكل فلسفى وتاريخى أو شكل اجتماعى أو فنى.. هو التحدى المستمر للفكر أو بمعنى آخر أن تدخل في محنة بمعناها الواسع.. وليس كما نفهمها بمعناها الضيق..

وحين تسألنى مثلا.. عن الأسباب التي تؤدي إلى سجن المفكر والزج به وراء القضبان.. أقول لك بشكل عام وطبقا لتجربتي هناك أنواع من سجن المفكر.. المفكر العضوى كما كان يعبر عنه الفيلسوف المفكر الإيطالى «جرامش».. والذي يقصد به ذلك المفكر الذى يعتبر أنه ملتزم بأن يدافع عن فكره اجتماعيا.. ويحشد له الناس في تنظيم أو أن يواجه النظام المعادى لفكره.. طبعاً هنا لابد وأن يصطدم بالنظام و الموروثات والتقاليد ولا بد من أجل ذلك أن يدفع الثمن.. إذن كل مفكر يختار هذا الطريق لعرض فكره داخل المجتمع عليه أن يتحمل نتائج هذا الطريق.. ولا نعتقد أن هذا الموقف قاصر على مجتمع بعينه.. بل تجده في كل المجتمعات المتخلفة منها والمتقدمة لأنك هنا تتحدى النظام.. وعلى القائمين على هذا النظام التصدى لأفكارك ومقاومتها.. وعادة ما يكون المصير هو السجن أو الاعتقال بمختلف ألوانه وأنواعه.. والمفكر في مثل هذه الأحوال لا يتصدى للقائمين على السلطة.. فقد يساهم في تكوين رأى عام كبير هو الذى يتقدم من أجل التصدى للقائمين على السلطة من وحى آراء هذا المفكر أو ذاك الذى ينظم قوى هذه الجماهير لحظة المواجهة والتصدى.. وعلى ذلك فلا بد وأنت كمفكر في هذا الموقع عليك أن تكون مستعداً في أية لحظة لسدفع الثمن.. لأنك هنا لم تتوقف عند مجرد قول الأفكار وترديدها.. بل تنزل بها إلى الشارع في الواقع كى تتحقق..

وهذا هو النوع الأول أو المدرسة الأولى من مدارس الفكر.. وماسميناه في الأول مدرسة الفكر العضوى..

أما النوع الثانى من المفكرين مثل توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وأحمد بهاء الدين يرون أن مهمتهم أن أكتب وأقول رأيى في هذا الموضوع.. وأنتج هذا الفكر.. فمن يريد أن يستفيد منه يقترب منه.. ومن لا يريد بيتعد.. والكثيرون يسمون هذا الاتجاه أو هذه المدرسة.. مدرسة مهادنة السلطة.. وهذا تصور خاطىء.. لأن مثل هذه الخطوات يراها المفكر من وجهة نظره الأصلح للمجتمع.. ولكل تصوره الخاص.. فهم يرون أن مهمتهم تتوقف عند التقيف والتنوير.. وغيرهم يرون أن دورهم لا يتوقف عند ذلك فقط.. بل يمتد من أجل تنفيذ هذه الأفكار في الواقع.. وهؤلاء ينتمون إلى مختلف المدارس الفكرية اليسارية واليمينية والليبرالية وخلافه..

وبالنسبة لأصحاب الاتجاه الأول الذين يرون ضرورة النزول الى أرض الواقع لتنفيذ أفكارهم.. يتوقف نجاحهم على سعة صدر السلطة من حيث وجود بعض التكوينات الديمقراطية.. التى تساعد على تقبل مثل هذه الأفكار رغم اختلافها مع القائمين على السلطة.. هذا أولا.. أما ثانيا: تقبل السلطة أن يستمر هذا الفكر في نشر تلك الأفكار بحرية دون تدخل أو رقابة أو مضايقة ومن هنا تتفاوت ردود الفعل.. ومع ذلك من الممكن أن تحدث حالات لوى ذراع مثلما حدث مع المفكر توفيق الحكيم.. رغم أنه ينتمى الى المدرسة الثانية التى تقف عند حد قول الفكرة دون السعى الى تنفيذها.. ففى إحدى المرات نشر قصة قصيرة.. رأت فيها السلطة أنذاك أنها ضدها.. وكما كان يحكى لنا الله يرحمه.. عاقبوه بخصم نصف شهر من مرتبه.. وقد تصل إلى الايقاف عن العمل مثلما حدث مع الكاتب الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين.. أو إيقافه عند درجة مالية معينة.. ويتساوى هذا العقاب المادى والمعنوى.. وهذا في حد ذاته نوع من العقاب الذى يؤدي إلى الإيلام.. بحيث تشعر في النهاية بأنك مسجون داخل نفسك.. حتى ولو لم تدخل السجن وتعيش داخل جدران.. وفي كثير من الأحيان لا تصل إلى عقوبة السجن أو الاعتقال.. المهم يصاب الفكر في النهاية بالإحباط.. ويتوقف..

وفي هذا الإطار توقف الكثيرون من المفكرين عن العطاء.. وفقا لما عانوه من ألوان التعذيب.. وإذا ما استمر في طرح أفكاره وعاند نفسه فهو يكون أمام أمرين: إما أنه مع

هذا الإصرار في معرفة التصدي لأفكاره يتجه للعمل من أجل تنفيذ هذه الأفكار وبالتالي يتحول إلى الصدام المباشر مع السلطة.. ويكون مصيره في النهاية السجن والاعتقال.. أو أن الدولة تتركه يطرح أفكاره دون التصدي له.. باعتبار أن هذه الأفكار مجرد كلمات جوفاء لا تأثير لها.. وممتنفس ضعيف داخل المجتمع.. ولا خوف منه.. وعندما تشعر السلطة بخطر هذه الأفكار تتدخل فوراً لمحاربتها.. ولو بالسجن أو الاعتقال.. ولكن على العموم لا يجب اعتبار السجن التحدي الأكبر أو الوحيد للمفكر.. وإنما الاغتراب.. والضرب تحت الحزام.. هو أخطر ما يواجه المفكر داخل مجتمعه حتى ولو لم يدخل السجن..

«هل تعرفتم على شخصيات تأثرتم بها في فترة الاعتقال؟»

— طبعاً.. وعليك بقراءة المجموعة القصصية «رجال وحديد».. وقبل أن أقرأ لك ما جاء في بعضها أذكر لك أسماء المفكرين الذين عرفتهم وتأثرت بهم كثيراً على هذا الدرب.. منهم الدكتور محمد الخفيف والمرحوم الدكتور لويس عوض.. ويوسف حلمي وعبد المنعم الغزالي ومحمد قطب أخو الأستاذ سيد قطب..

ومن غير هؤلاء عرفت مثلاً «أبو السباع».. ذلك السجين الذي كان اسمه الرسمي المسجل يدفاتر السجن والمكتوب بمسند أحمد باهت في أعلى «التذكرة» المثبتة بباب زنازنته رقم عشرة بالدور السابع إسماعيل محمد.. لكنهم أقصد كل من اتصل به في حياته العامة أو تلك التي قضاهما خلال الاغلال لم ينادوه يوماً إلا بـ «أبو السباع».. وبالرغم من أن إسماعيل أو أبو السباع هذا.. أو سماعين كما كنت أسميه.. كائن حتى.. يعيش ويتنفس ويدخن وتستطيع بكل سهولة أن تلمسه وتتحدث إليه إلا أنه لو حدث وصافحته مرة تحاشيت طوال حياتك أن تكرر ذلك مرة أخرى.. فإن يدك عندما تغوص في راحة يده الضخمة تحس وكأنك قد أطبقت على ثمرة من ثمار التين الشوكي تحيط بها عضلات ضاغطة في قوة لا عهد لك بها.. فكانها من حديد.. وتحاول أن تخلص يدك بكل ما أوتيت من إرادة حسب الحياة ولكنك تفضل.. فتأوه لحظات وتثن أخرى.. ثم تصرخ.. عندئذ يفرح أبو السباع ويفرج عن يدك وقد احتبس الدم في مواضع متفرقة منها وانبعثت من فمه الواسع ضحكته التقليدي.. والذين اتصلوا

بـ«أبو السباع» يوما أو عاشوا معه ولو ساعات يسيرة يروون عن شخصيته وتصرفاته الأساطير..

ومع الزمن صار معروفا أن للسجن مديرين أحدهما الموظف العمومي الذي يرتدى السترة العسكرية الصفراء والآخر «أبو السباع».. ذلك العملاق الذي يحس الناظر إليه أنه قد أدخل بصعوبة في لباس السجن الأزرق.. ولم تكن الزنزانة التي استقل بها أبو السباع تختلف كثيرا عن محل بقالة صغير وكان هذا المحل يتعامل مع جميع المساجين بأسعار يحددها بعدما راعى في ذلك أن تكون أقل ارتفاعا من تلك التي تسود في السوق السوداء والتي كان يباشرها كثير من السجناء في الخفاء.. ومن هنا كان دائما يدخل في منافسة مع تجار السوق السوداء.. ولكنه كان الرابع دائما.. وكان في كثير من الأحيان يتدخل تارة بيديه وتارة بواسطة «الحاجة» أي العصا الغليظة ليحمى عملاءه من بطش منافسيه عندما يحاولون تطبيق نصوص اللائحة عليهم..

والشخصية الثانية.. هو «أبو دراع».. أو «اللومنجي».. ذلك السجن الذي بدأ حكايته أيضا ولا الأساطير داخل جدران السجن.. فقد نشأ في الصعيد شابا شريفا لا يعرف له أصلا.. ولم يصادف الخوف في حياته.. بدأ عمله في الصعيد حارسا ليليا في منطقة مقابر القرية.. وكان الوحيد الذي قبل هذه الوظيفة بعد أن رفضها الكثيرون غيره.. وفي ذات يوم طلبه العمدة أن يتزعم تنفيذ مؤامرة لحرق أحد حقول القطن.. ثم تطورت هذه الطلبات من جانب العمدة من حرق الحقول وسرقة المواشى وتسميم الدواجن إلى سفك الدماء.. وجاء الوقت الذي خشى فيه أبو دراع أن العمدة يستغله ولا يدفع له.. لذلك قرر الانفصال عن العمدة وأن يسير أعماله العدوانية لحساب نفسه.. وبالفعل كون عصاية أفلحت بصوادثها السدامية في أن تشيع الإرهاب داخل القرية والقرى الأخرى.. ومنذ هذه اللحظة عاش أبو دراع مطاردا رسميا من الحكومة.. حتى تم القبض عليه.. وكان يطلب دائما للمساجين الجدد الاستماع إلى حكاية أبو دراع وهم واقفون في عيادة السجن الطبية ينتظرون العرض على الطبيب وحتى هذه اللحظة لم أعرف السبب..

خلاف ذلك هناك شخصية ثرية جدا تعرفت عليها داخل السجن وهي شخصية الشاويش رجب.. وأنا شخصا أعترف أنها شخصية تهزك بعنف وتتأثر بها بسرعة..

وأنا أعتقد الآن أنه مات.. وعم رجب هذا كان في الستينات من عمره.. وكان العسكري الوحيد تقريبا الذي لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة.. وبالتالي خصصوه لحراسة السياسيين.. وكان يمتاز بإنسانيته الغربية التي أبعدته عن صفات كل عساكر السجن الآخرين.. فلا يقبل نقوداً ولا رشاً ولا أى شيء من هذا القبيل.. لقد كان نموذجاً فريداً يتسم بطبيعته السمحة راضياً بحياته وعيشته.. وبالتالي كان يعتبر الرشوة من أجل أداء الخروج على الواجب وعلى مقتضيات الوظيفة حراماً، وكان اختياره في هذا المكان موفقاً.. لأن السجناء السياسيين كان أول عمل لهم داخل السجن هو تكوين شبكة من العساكر والشاويشية وعن طريقهم يتم تهريب كل شيء يتعلق بالفكر والثقافة.. وطبعاً كله بالفلوس.. إلا مع عم رجب.. بجانب ذلك كان هؤلاء هم حلقة الاتصال بين المساجين السياسيين وبقية المساجين الآخرين ثم بينهم وبين الخارج..

إن عم رجب كان شخصية غير عادية.. وكان مسئولاً عن مجموعة زنازين خصصوها للتأديب بسجن القناطر الخيرية.. وكنت سجين إحدى هذه الزنازين عام ١٩٧٠.. وقد مر عليه عدد كبير من المساجين السياسيين.. مثل فؤاد باشا سراج الدين وآخرين.. هذا الرجل اتصافه بصفة الأمية ووجوده بيننا كان مقصوداً..

تتم عملية التجهيل التامة.. لأننا كنا دائماً في شوق أن نعرف كل جديد في الصحف والمجلات.. فكيف يمكن أن يتم ذلك لنا والحارس لا يقرأ ولا يكتب.. بالفعل لقد كان عم رجب لا يعرف القراءة.. وبالتالي كنا كثيراً ما نفشل في معرفة أخبار العالم من صحف الصباح.. والشيء الغريب أن هذه الشخصية.. قد لفت على جميع السجناء المصرية مصاحباً للمساجين السياسيين سواء في الواحات أو في السجن الأخرى.. وقد تأثر هذا الرجل بمصاحبة هؤلاء السياسيين فتحول مع الأيام رغم أنه كان جاهلاً.. إلى أحد خبراء السياسة المصرية في وقت من الأوقات..

ولأنه بدأ يتعامل مع السياسيين فقد أصبح له موقفاً.. وبدأ يتكون لديه قناعة بأن سجن هؤلاء الرجال غير طبيعي وغير قانوني كما بدأ عليه عدم الاقتناع بالسلطة التي سجنتم هؤلاء.. وبدأ يتكون لديه رأى مؤداه أن هؤلاء لابد وأن يخرجوا على الفور ويمارسوا حياتهم الفكرية دون قيود.. وعلى الناس أن تختار بين فكرهم.. ولماذا لا يكون هو من بين هؤلاء الذين لهم مثل هذا الاختيار.. فبدأ يأخذ موقفاً من السلطة.. كما

بدأ يأخذ موقفا مع أو ضد هذا التيار.. وفقا لاقتناعه بأفكاره.. دون التعرف على صحة أو خطأ هذا التيار أو ذلك.. بل أكثر من ذلك بدأ يتدخل معنا في حوار مثمر وثرى.. كما بدأ يذهب إلى المقهى قبل دخوله إلينا في نوبة حراسته بالسجن.. ومن خلال حواراته مع أصدقاء المقهى.. ينقل إلينا النبض العام لهؤلاء الناس البسطاء.. وكان يشعر أحيانا أن من واجبه أن ينقل إلينا أو يبلغنا بقضية ما.. ويتم ذلك من تلقاء نفسه دون توجيه من أحد منا ودون أن يأخذ أجرا على ذلك.. وبذلك أصبح صديقا لكل المعتقلين السياسيين والمفكرين على اختلاف انتماءاتهم..

ومرة أخذ يحدثنا عن شجاعة وبطولة فؤاد سراج الدين في السجن بدرجة كبيرة.. وكان صديقا لنجم وإمام.. وكان يداري علينا فيما نكتبه داخل الجدران.. وبالنسبة لي شخصيا كان يخفي الأوراق التي كنت أكتبها عن سيناريو فيلم العصفور.. أيضا كان متعاطفا مع الاخوان المسلمين ويساعدهم كثيرا في تلبية طلباتهم رغم تحفظه على بعض آرائهم واختلافه معهم.. يعنى تقدر تقول بخلاف ذلك: السجن مجتمع غنى بالشخصيات..

ويحضرني بخلاف قصتي مع «عم رجب».. قصة أخرى مع أحد صولات سجن الفيوم.. هذه الشخصية طيبة القلب.. رغم مظهرها القاسى.. كان يتعامل معنا بإنسانية غريبة.. ويتغلب كثيرا على التعليمات والأوامر التي تسرى علينا كمسجونين سياسيين.. ودائما كان يكرر أمامنا أنه غليظ القلب وعنيف.. وكنا نلاحظ تكرار هذه العبارات أمام مسئول السجن فقط ولكن حين يخلو بنا.. ينقلب إلى انسان من نوع طيب.. وأستطيع أن أقول لك إنني ظلت على علاقة ببعض زملائي من المسجونين غير السياسيين حتى بعد الخروج ومن الضباط.. وللأسف.. كان منهم بعض الضباط الذين اشتركوا في تعذيبى كما لو كنا أعداء.. هذه العلاقة اتسمت بيننا بسالود حتى إن بعضهم كان يطلب منى خدمات..

وماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر في دول العالم الثالث بتوقيع رئيس الدولة؟

- أنا أعتقد أن رئيس الدولة لا يعلم كل شيء قبل وقوعه.. بل قد يعرف بعد وقوعه.. ويؤكد لك ذلك ما سأروييه بعد لحظات.. فعندما كنت قريبا من الرئيس

السادات وكانت علاقتي به طيبة حتى ١٨ و ١٩ يناير عام ١٩٧٧.. قال لي إن هناك طريقة ما يلجأ إليها الحاكم في حالة وجود ما يعكر صفو النظام.. وكان ذلك ردا على ما أثرته آنذاك من لجوء السلطة إلى تقييد حرية الفكر واعتقاله.. ومنعه من الكتابة دون أن يعرف هو ذلك.. وأحيانا يكون الاعتقال لأمور ملفقة يتم اكتشافها أثناء إجراء التحقيقات في النيابة أو أمام القضاء..

وفي رده على ما أثرته.. قال لي الرئيس السادات الذي كان يمتاز بحسن استماعه حتى لخصومه.. إن آلية هذا العمل يأتي بالشكل التالي: هناك مجموعة ما من الوزارة قد قررت أن تأخذ موقفا ما من كاتب أو مفكر.. مثلا من لطفى الخولى.. فعندما تشوع في كتابة تقاريرها للرئيس عبد الناصر تذكر اسمه بشكل هامشى في إحدى التقارير الامنية.. أنه شوهد مثلا يصافح فلان وفلان.. وهما من أعداء عبد الناصر أو من خصومه.. ثم تمضى أسابيع ويذكر في تقرير آخر أن لطفى الخولى قد اجتمع مع بعض هؤلاء المعارضين.. وقال ضمن ما قال إنه لا بد من إعادة النظر فيما هو قائم من نظام سياسى.. ثم يبدأ بعد سطر وسطرين... ثم إلى فقرة.. ثم إلى ورقة في التقرير.. إلى أن يتم كتابة التقرير كله عن لطفى الخولى وعن تحركاته.. ويلاحظ أن ذلك يتم بشكل مكثف في فترة زمنية قصيرة.. مما يلفت نظر الرئيس عبد الناصر.. الذى يطلب من أحد معاونيه وليكن مثلا سامى شرف.. معرفة حكاية لطفى الخولى بالتفصيل.. في الوقت الذى يكون فيه التقرير جاهزا للعرض على الرئيس وفيه كل ما يدين لطفى الخولى من اتهامات صحيحة وغير صحيحة.. وأحيانا عبد الناصر كان يرى بعد قوات الأوان أن ما جاء في التقرير غير صحيح.. وكان عليه أن يأخذ به لأنه تقرير مرفوع إليه من جهات عليا في الدولة.. وأنا هنا لا أعفى عبد الناصر من المسئولية لأنه كان عليه أن يضع آلية معينة تضمن صحة التقارير التى ترفع إليه بدون تحيز أو اتهامات باطلة لأحد.. بجانب أن الاعتقال بدون تهمة هو شيء مذموم.. أضف إلى ذلك أن ما جاء بهذه التقارير يضعك تحت المراقبة وأحيانا تمنع من السفر ومضايقات أخرى كثيرة..

وفي اعتقادي أن ما يحدث من مثل هذه الأمور هو جزء من الصراع السياسى الذى يعالج بطريقة غير صحيحة وفردية.. وعبد الناصر لم يكن دكتاتورا ولكنه كان حاكما

فرديا.. لا يؤمن بالديمقراطية باعتبارها عقبة معطلة للانطلاق نحو التنمية.. وطبعاً كان ذلك تصوراً خاطئاً إلى أبعد الحدود..

وبإمانسة الكلمة.. أقول لك إن الرئيس السادات في نهاية تعقيبه على ما أثرته معه آنذاك.. قد وعدنى بشكل عام أنه لن يلتفت لتلك التقارير.. وأنه قد قطع عهداً على نفسه بأنه سوف يناقش كل مفكر يأتى ذكره في أحد هذه التقارير.. ومواجهته بهذه التهم..

«وأخيراً.. لو كان الأستاذ لطفى الخولى رئيساً للحكومة أو وزيراً للداخلية وعرضت عليه أسماء مفكرين معتقلين منهم لطفى الخولى.. ماذا سيفعل؟..»

- الحقيقة أنك تضعنى فى موضع مستحيل.. وهذا نوع من الأسئلة الصحفية الذكية.. وأحب أن أؤكد لك أننى لم أجرب أن أكون رئيس حكومة أو وزيراً للداخلية.. ولذلك لا أستطيع أن أقول لك لأن رئيس الحكومة يكون مقيداً بأنظمة أمن معينة ومتطلبات جماهيرية مفروضة عليه.. ولكن بشكل عام أحب أن أؤكد لك إننى ضد الاعتقال على طول الخط لأنه لا يفيد.. ولم تنجح عملية اعتقال المفكرين.. لأنك فى الحقيقة تعتقل الجسد ولكنك لا تستطيع أن تعتقل العقل الذى يخرج منه هذا الفكر.. لأن خروج الفكر من عقل الإنسان حتى فى هذه الحالة يصبح الفكر ملكاً للغير وليس ملكاً للمفكر فقط..

الحكاية السادسة يرويها جمال الفيطناني:

واكتشفت أن صرخات التعذيب داخل المعتقل.. اسطوانة

العثور على كلمة تصلح كى تكون بداية موقفة لثل هذه الحوارات.. مهمة شاقة وعسيرة.. وربما تتبع هذه المشقة من إحساسك بأهمية الموضوع.. وأيضاً أهمية الضيف المتحدث، من أجل ذلك وفي مثل هذه المواقف وهذه المهام العسيرة أستمتع جيداً.. وأقرأ ذلك بنفس الصفة.. أملاً في العثور على ما أبحث عنه وتكوين بداية طيبة ومرضية.. ومعبرة عما سوف أقوله من بعدها..

والكاتب الأديب الصحفى المفكر الفيطناني يجعلك تعيش لحظات رهبة وخوف وقلق حين يحدثك عن مثل هذه التجربة التى أثارت بداخله الشجون.. وعادت بذكرياته ألف عام.. حتى قبل أن يولد.. لأنه لم يكن يتصور في يوم من الأيام أنه سوف يدخل السجن ويعتقل.. ويزج به في زنزانة ضيقة.. وحيداً مكروباً.. ولسوف تشعر عزيزى القارئ بأنك مشدود مثل مع كل كلمة قالها لنا خلال هذا الحوار الذى لم يخل من لقطات إنسانية تذيب القلب.. وتوجع البدن والعقل..

وبالاستماع الجيد والإنصات لكلمات المفكر والأديب جمال الفيطناني من خلال شريط التسجيل اكتشفت أنه قد دخل تجربة الاعتقال، وهو لا يزال صغير السن.. وقبل أن يدخل عالم الصحافة.. فقد كان وقتها لا يزال في بداية الطريق نحو عالم الأدب وعالم الشهرة.. ولولا الإصرار بداخله.. وإحساسه بمرارة الظلم الذى وقع عليه لكان قد انسحب من الساحة كلية وأثر السلامة وأعطى للأدب والصحافة والفكر ظهره.. والتحم بالحياة العملية.. خوفاً ورعباً من تكرار نفس التجربة.. ولكن الذى حدث هو العكس.. فقد ولدت لديه تلك التجربة الرغبة في مواصلة المشوار نحو عالم الفكر والأدب بمفهوم جديد.. لا يقترب من عالم السجن.. ولا يخاف منه.. ولكنه يحاول من خلال قلمه أن يقاومه كظلم يقع على الإنسان.. وتراه في ذلك قد عبر عن هذا العالم الغريب ومأساه المتنوعة في العديد من كتبه ورواياته.. وإن لم يكن بشكل مباشر على طريقة كتابة المذكرات أو تسجيل وقتى لأحداث تلك الفترة..

أضف إلى ذلك أن تعرضه لمثل هذه التجربة وهو في سنه المبكرة دون أن يكون ذا باع طويل في عالم الفكر والمفكرين.. أثار حفيظته وخلخل كيانه.. وفرض على واقع سلسلة طويلة لا تنتهى من الأسطة.. يأتى في مقدمتها السؤال التقليدى.. لماذا؟.. ومن أجل البحث عن إجابة شافية له، قرر أن يدخل المعركة بفكره وبقلمه ينقل الصورة بلا رتوش.. أملا في أن يستفيد غيره من المفكرين من هذه المحنة التى اعتبرها البداية الحقيقية لوجوده داخل هذا العالم.. وبصرف النظر عن الانتماء الفكرى أو السياسى الذى ليس هو مقصدنا من هذا الحوار.. فقد دخل جمال الغيطانى السجن بتهمة الشيوعية.. وهو لم يكن يدري وقتها ضخامة هذه التهمة أو المصير الذى ينتظره من جراء الاقتراب من مجالها.. ولكن ذلك قد حدث وكان عليه أن يقرر وأن يختار..

وفي بحثنا الدائم عن كلمات سطرها المؤلف هنا أو هناك تكون معبرا نظمئن إليه.. في بداية حوارنا كمدخل للحديث القادم.. وجدنا تلك الكلمات نائمة في أحضان مجموعة قصصية.. صحيح أنها ليست الوحيدة من نوعها.. بل كتب غيرها الكثير متأثرا بتجربة السجن.. إلا أنه وبنفسه قد رشح لنا هذه المجموعة كى نبحث بين سطورها من أجل العثور على المطلوب.. ولقد وجدنا ضالطنا في بعض عبارات وجمل هذه القصص مثل قوله في قصة «رسالة فتاة من الشمال»: عبرت الأرض الساخنة الصفراء، حرارة تخرق نعل الحذاء الخفيف وتؤلم باطن قدمى.. لم يقرب موعد الغداء، عندما تتجاوز الشمس منتصف السماء وتميل عنه.. عندما يزحف الظل الرمادى من أول عنبر للنوم متسلقا جدران العنبر الثانى والثالث حتى الرابع.. ينطلق نفير الغداء، بجوار جدار حجرى قصير البناء فكروا يوما في إقامته ثم عدلوا، جلس أربعة زملاء..

وفي موضع آخر من نفس القصة يقول معبرا عن تلك المشاعر التى سجن من أجلها على لسان الفتاة التى بعثت إليه برسالة من بلاد الجليل.. أننى أسفة قد أكون ألتك بهذا الوصف لسذوبان الجليل، لأننى أعرف أنك مقيد، لكننى أحترمك جدا.. ولا أعرف هذه المبادئ التى قيدوك من أجلها ربما لا أميل إليها لكننى أحبك وأحن إليك وإلى من معك.. فأى شىء أعظم من أن يسجن الإنسان من أجل مبادئ يؤمن بها.. إننى فتاة من آلاف يعيشن في بلاد الثلوج البعيدة عنك، ولن ترانى ولن نتصافح بالأيدى.. ولو لم أقرأ اسمك في نشرة الجمعية التى أنتمى إليها لما سمعت عنى أبدا.. كذلك أنا لا أعرف عمرك ولا سنك ولا أوصافك.. لكنى أعرف أنك لاتمشى في الشارع كما تشاء ولا تأكل كما

يجب، ولا تنام كما ينبغي أن تنام.. وأعرف أنك إذا رغبت في رؤية أهلك لن تراهم..
كذلك صديقتك وزوجتك..

وكلمات كثيرة نثرها جمال الغيطاني هنا وهناك.. من أجل أن يصف لنا تجربته مع
السجن.. وفي كل مرة سوف نتوقف عند إحداها.. وعلينا منذ هذه اللحظة أن نعد أنفسنا
من أجل سماع تفاصيل الحوار الذي دام أكثر من ساعتين.. وتم تسجيله على ثلاث
مراحل.. وقد لعبت الحالة النفسية للأديب والمفكر دورا عظيما في تحديد مواعيد هذه
المرات الثلاث.. فلم أكن أتصور ولا هو كذلك أن مثل هذا الحوار سوف يفتح عليه
أبواب التاريخ وذكريات الماضي.. ويقلب مواجع القلب التي لعب الزمان دوره في
شفائها.. وكأنما رأيت لأول مرة وهو يدخل المعتقل.. خائفا مرتجفا.. صحيح أنه رحب
بالفكرة.. ولكننا عندما بدأنا التسجيل.. ومع دوران الشريط.. انفعل بشدة.. وخرجت
الذكريات من فمه مصحوبة بآلام ذلك الماضي القريب والبعيد في آن واحد..

وآه لو كنتم معي حين التسجيل.. وسمعت كلماته التي أخذ رنينها يزداد داخل
الغرفة التي ضمنتنا لحظتها.. فحتما سوف تشعرون بسخونة هذه الكلمات ولهيب تلك
الجميل الاعتراضية العديدة التي نقلت لنا الصورة بدون رتوش.. وكان لابد من
التسجيل.. فهي كلمة للتاريخ بصرف النظر عن الفكرة السياسية أو الانتماء.. مادام
صاحبها ينادى بها في سلام وبعيدا عن استخدام وسائل العنف، لإيماننا بأنه لا يقارع
الحجة إلا بالحجة وأن اللجوء لاعتقال العقل والبدن كوسيلة لإبطال مفعول الفكرة.. هو
تصرف عاجز.. ويدل على القصور في التصرف.. وما هذه الحوارات إلا خطوة على طريق
تصحيح المسار وتنمية الشعور العام والإحساس بأن المفكرين مهما شطحت آراؤهم
وأفكارهم لا يكون مصيرهم السجن ماداموا لا يلجأون إلى العنف من أجل تطبيق هذه
الأفكار.. وحتى لو ثبت عليهم هذا الأمر.. فإنهم لابد وأن يحاكموا وفقا للقانون.. ولا
يصدر ضدهم أوامر فوقية قبل سماع دفاعهم.. أو يزج بهم وراء القضبان قبل النطق
بالحكم.. فالقضاء العادل هو رمز الحرية.. وهو السيف المسلط فوق جميع رقاب
العباد دون تفرقة.. والعبرة هنا بالأدلة..

وكما تعودنا.. سوف نترك للضيف حرية التصرف.. وبداية الكلمة ونهايتها.. ولن

نتدخل إلا من أجل إدارة الشريط وإيقاف دورانه.. أو وضع ملامح لسؤال نراه بداية لحوار جديد.

وكانت بداية الحوار هكذا بعد كلمات الترحيب والثناء المعتادة..
* نريد أن نعرف من الأديب المفكر الصحفي جمال الفيضاني كم مرة دخل فيها السجن؟..

- مرة واحدة فقط. وكانت وبالتحديد في ٩ أكتوبر ١٩٦٦ فجرا، حين طرق الباب واقتحم شقتنا الصغيرة جدا بحى الجمالية ضابط مع مجموعة من العساكر بزيهم المدني.. وكان وقتها عمري لا يتعدى الواحد والعشرين عاما.. تقدم منى الضابط في ذلك الوقت المتأخر من الليل بعد أن فتحت له الباب.. وذكر لي اسما اعتقد أنه اسم غير حقيقى.. وإن كنت ما زلت أنكر ملامح وجهه جيدا حتى هذه اللحظة..

المهم دخل شقتنا ومعه ثلاثة من المخبرين الذى انتشروا بسرعة داخل الشقة التى كانت فى ذلك الوقت غرفتين وصالة.. وبدأت عملية تفتيش واسعة لكل الموجود بالشقة.. ولفت نظرى إصرارهم على تفتيش كل ورقة وكتاب موجود بالشقة.. ويبدو أننى كنت سبب الحظ.. لأن هذا الضابط أخذ منى كمية كتب ضخمة أنا ما زلت حتى هذه اللحظة متحسرا عليها وحزينا بشدة لأن أغلبها كانت كتباً من كتب التراث النادرة.. حيث كانت هوايتى فى هذه السن المبكرة تدور فى فلك كتب التراث القديمة.. وأسعى جاهدا لجمعها ولشرائها بأى ثمن.. أيضا استولى على كمية ضخمة من الكتب الماركسية التى كانت متداولة بكثرة فى ذلك الوقت..

أيضا على ما أنكر استولى الضابط على كمية من الورق الأبيض الذى كنت أكتب عليه وكنت أحصل عليه من عمل أو من أحد أصدقائى العاملين بالآلة الكاتبة.. والغريب أن رزم الورق هذه قد ألفتنى كثيرا وسببت لى أزمة نفسية لأننى أبدا لم أكن أكتب إلا وهى بجوارى.. وتقدر تقول.. ربما يرجع ذلك إلى عدم إحساسى بالأمان فى هذه الآونة والخوف.. وقد تتعجب حين أقول لك إن مجموع ما حصل عليه الضابط من هذه الكتب وهذه الأوراق قد ملأ ثلاث ملايين سرير.. حملها المخبرون فوق أكتافهم حين غادروا منزلنا وأنا معهم فى الفجر..

ولا تتصور أن اعتقالى فى مثل هذه السن المبكرة.. وبهذه الطريقة قد أثار أسرتى

الصغيرة.. وأصابها بالفزع والهلع.. فوالدى رجل كان طول عمره في حاله.. وقد عاش في القاهرة لأكثر من خمسين عاما ولم يدخل خلالها إلى قسم بوليس أو ذهب في مرة من المرات إلى المحكمة.. أما بالنسبة لوالدتي.. فكان هذا الحدث في حياتها بمثابة الزلزال.. أضف إلى ذلك أنه بالنسبة لبقية أفراد أسرتي وعلى وجه الخصوص على أخى الصغير فقد أصيب بصرع منذ هذه الليلة.. وظهرت عليه هذه النوبات ابتداء من عام ١٩٦٧ بعد الإفراج عنى.. واستمرت معه هذه النوبات.. وظل يعالج حتى برأ منها منذ سنوات قريبة..

لقد ولد عنده هذا المشهد الذى رأى فيه هذا الكم من رجال البوليس الخوف والفزع والصرع الذى ظل ملازما له طويلا وأعتقد لمدة ١٨ عاما.. لقد كان ذلك إحدى النتائج المباشرة والعنيفة لعملية الاعتقال.. جانب آخر أن الاعتقال كان يتم في ظروف اقتحام.. ودون أن يذكروا لك أو لاسرتك إلى أين أنت ذاهب الآن.. وهل سترجع أم لا؟.. لقد كنت تذهب إلى المجهول.. وفي حالات كثيرة كان يتم هذا الاعتقال بإهانة ووحشية.. سواء فيما يخص الشخص المطلوب اعتقاله أو أهله.. ومن هذا المنطلق تؤكد لك أن ظروف فيما يتعلق بهذه الخصوصية كانت جيدة.. ولعب الحظ دوره في عدم تعرضى لأي نوع من أنواع هذه الإهانات التى كنا نسمع عنها أو شاهدنا بعضها.. بل بالعكس حاول الضابط وقتها أن يهون علينا هذا الأمر.. فتحدث مع والدى عن بلدته ومولده وأشياء أخرى من أجل التخفيف عليه من وقع هذه المصيبة.. ولكن حينما خرجت فوجئت بأفراد الشرطة وقد وضعونى بين أذرعهم خوفا من الهرب.. والمسدس في ظهري من جانب آخر.. وكانت من المشاهد التى أثارت سخريتى فيما بعد.. فقد تصورت نفسى من المجرمين العتاه.. أو زعيم عصابة.. لم يصدقوا أنفسهم حين اعتقالهم..

وعلى بعد خطوات من المنزل وخارج الحارة في شارع قصر الشوق بالجمالية.. وقفت سيارة شرطة رمادية اللون على رأس الشارع لأنها فشلت في دخول الحارة لضيق ممراتها.. وزكبت معهم وسط حراسة مشددة.. إلى مبنى المباحث العامة.. ومكثت هناك ساعة.. وأذكر وأنا موجود في إحدى الغرف هناك أنني تقابلت مع أحد الصحفيين ويدعى محمود عزمى، وكانوا قد أتوا به مع مضبوطات من الورق والكتب.. وقد لفت نظري داخل هذه الغرفة كذلك صورة تعلق الحائط للسيد زكريا محيى الدين ومن فوقها الآية القرآنية: «رب اجعل هذا البلد آمنا»..

ولقد لصقت بذهنى طويلا للدرجة التى جعلتنى أكررها كثيرا فى روايتى «الزينة بركات».. طبعاً أنا كنت داخل هذا المبنى.. وأثناء تنقلى فى شوارع القاهرة قبل الوصول إليه.. كنت أسترجع الصور الحية للشوارع والأشجار والمباني.. لإيمانى بأننى ربما لن أشاهدها مرة أخرى.. يعنى احتمال القتل أو الموت كان ماثلا فى ذهنى، لأنه كانت لدى معرفة سابقة بأن مثل هذه الأمور تحدث وراء القضبان.. وربما تكون من نصيبى.. وكان السؤال الذى يتردد فى ذهنى وأنا أتجول ببصرى طوال رحلتى داخل شوارع القاهرة قرب الفجر.. وأنا وسط هذه الحراسة المشددة.. هو متى أشاهد هذه الشوارع من جديد؟.. وهل سيقدر لى أن أراها مرة أخرى أم لا؟.. وبعد أكثر من ساعة داخل مبنى المباحث العامة اقتادونى إلى سجن مزرعة طرة الذى كان مقاما فى ذلك الوقت داخل أحد معسكرات الجيش.. ودخلت المعتقل.. وأثناء تدوين البيانات.. لاحظت أنهم كتبوا أمام اسمى «شيوعى» ونسيت أن أقول لك إننى طوال الرحلة من المباحث إلى السجن كنت مقيدا بالكلبشات ولا أعتى المجرمين.. فكان ذلك طبعاً شعورا غريبا بداخلى.. حيث أحسست فعلا أنني تحولت هذه اللحظة إلى زعيم عصاة.. وأنا هنا داخل المعتقل، ومما أثار نفسى أيضا أنني بمجرد دخولى تعرفت على أحد جيراننا بحارة الطبلاوى.. كنت طول عمرى أعرف وأسمع عنه أنه دائم الدخول إلى المعتقلات بسبب أنه من الإخوان المسلمين منذ عام ١٩٥٤.. ووجدته ينظف أرضية السجن ببذلاته الزرقاء التى كانت تختلف عن البذلة التى كنت ارتديها.. وكان لونها الأبيض هو اللون المميز للمعتقلين.. وكان اسمه الأول أحمد..

وفور لقائى به.. أعطانى هدية غالية جدا لم أكتشف قيمتها إلا بعد فترة من وجودى بالسجن.. تعرف ماذا كانت هذه الهدية؟ قطعة جبنه مثلثة الشكل «نستوه».. وأوصانى بضرورة الاحتفاظ بها والى أكلها مباشرة.. وفعلا بعد فترة من وجودى داخل المعتقل اكتشفت قيمتها الغالية على حد تعبير عم أحمد.. وهذه النقطة تجرنا للحديث عن نوع المعيشة والطعام داخل الجدران السوداء.. فالوجبات الثلاث من الفول المهروس بالسوس والزبط.. وكنا نأكله بعد معالجة بالزيت وأشياء أخرى حتى يمكن ابتلاعه بسهولة..

وكانت أنواع الجبن والسالمون.. والمعلبات الأخرى نوعا من الترفيه لا يحصل عليه إلا المحظوظ.. وبوسائل ملتوية.. كنا فى الغالب نحصل عليها بالفلوس لأنها كانت تباع

لمن يقدر على الدفع.. المهتم أنني دخلت حجرة كبيرة جدا.. وبداخلها فوجئت بعدد كبير من أصدقائي خارج السجن وعدد آخر ممن لا أعرفهم.. وعلى ما أذكر كان من بينهم صلاح عيسى الذى كانت تربطنى به علاقة قوية فى تلك الفترة للدرجة التى اعتبرت نفسى فى طريق الاعتقال بمجرد أن عرفت أنه قد اعتقل قبلى. وآخرون سبقونى إلى نفس المعتقل منهم على ما أذكر عبد الرحمن الأبنودى.. وعلى الشوباشى.. لقد كانوا من الكتاب والمتقنين المصريين المستنيرين فى تلك الفترة.. وبعد فترة اكتشفت أن هؤلاء قد اعتقلوا قبلنا ومنذ خمس سنوات.. أما أنا ومعنى الشاعر سيد حجاب كنا ندخل المعتقل لأول مرة.. وهؤلاء كان يجمعهم انتماء واحد يدعى آنذاك «وحدة الشيوعيين».. والذى دخلت السجن بسببه لأول مرة فى حياتى..

فى نفس الوقت تم اعتقال مجموعة من أعضاء الاتحاد الاشتراكى بتهم انتمائهم لتنظيم يدعى «القوميين العرب».. ومنهم مسئولون كبار فى ذلك الوقت.. وعلى ما أذكر منهم الدكتور محمد الخفيف «الله يرحمه».. ولطفى الخولى.. وأمين عز الدين.. والدكتور إبراهيم سعد الدين هؤلاء الذى كانوا على مقربة من النظام فى ذلك الوقت.. الأمر الذى جعلنا نتصور ببلاهة أنه قد وقع انقلاب يمينى فى مصر.. مما أدى بهؤلاء إلى دخول المعتقل..

*** ليسمح لنا الأستاذ جمال الفيطنانى أن نقاطعه كى نسال.. كم مدة قضاها داخل السجن؟..**

.. أنا مش فاكرك. لكن أقدر أقول لك .. إنها بدأت بأسبوعين انقطعنا خلالها عن العالم تماما.. ثم بدأ استدعاؤنا فى مجموعات إلى السلخانة وهو لفظ كان يطلق على سجن القلعة.. للتحقيق ووقتها كنت أصغر معتقل ربما فى مصر كلها، ولذلك لم أكن أملك خبرة فى هذا المجال.. وقد تعرفت فى هذه الأونة على بعض الشيوعيين من الطبقة العمالية منهم مثلا عم منصور زكى ومحمد بدر.. وقد بهرتنى شخصيتهم.. واكتسبت من وجودهم قبل خبرة طويلة.. للدرجة التى جعلتنى مصدر تشجيع دائم لهم طوال إقامتى فى السجن العربى.. حتى وفى فترات التعذيب. أيضا.. المهتم فى ليلة من الليالى.. فوجئت بأنهم ينادون على اسمى.. فخرجت أنا والدكتور صبرى حافظ.. أستاذ الأدب العربى.. وشخص ثالث لا أذكر اسمه.. وتوجهنا إلى إحدى السيارات التى سوف تنقلنا إلى سجن

القلعة للتحقيق.. وأثناء جلوسى بالقرب من ضابط الحراسة وقع بصرى على الجواب الخاص بالترحيل.. وقرأت فيه عبارات تقول: أمر بترحيل فلان وفلان.. وفلان.. تحت الحراسة المشددة مع العلم بأنهم من الخطرين..

وبناء على ذلك شددوا الحراسة علينا وأحاطوا بسيارتنا بسيارات أخرى أمامنا وخلفنا.. وفي هذه اللحظة انتابنى احساس باننى لن أعود مرة أخرى، خصوصا ونحن في طريقنا إلى السلخانة ومعقل التعذيب بأنواعه المختلفة.. وللمرة الثانية أسمع لخيالى بالنقاط صور من الشارع فرميا لن يسعدنى الحظ وأراها مرة أخرى.. وداخل القلعة توقفت بنا السيارة أمام باب أثري عتيق.. وأخذونا معصوبى العينين في طابور، ووضعونى في زنزانة كان رقمها آنذاك (٣٤) وحبست فيها انفراديا.. وقيل أن أدخلها سبقنى إليها أحد العساكر المدنيين حيث قام برش أرضية الزنزانة بماء مثلج.. وأمرنى بعدها أن أدخل كى أنام.. وكنا وقتها في شهر أكتوبر والبرد على أشده.. ولا توجد أغطية سوى بطانية.. والنوم على الأسفلت.. لقد قضيت هذه اللية واقفا..

وحين نعود لحكاية الأكل داخل هذا المعتقل الجديد.. أقولها كلمة حق أن نوع الأكل كان جيدا إلى حد ما عما رأيته في سجن مزرعة طرة، وبعد يومين من وصولى.. بدأت حرب الأعصاب.. فقد بدأت أسمع يومية صراخ طفل يعذبونه.. وعلى ما يبدو كانوا يصعقونه بالأسلاك الكهربائية في بعض أعضائه التناسلية.. وأقول لك إننى لم أسمع في حياتى مثل هذا الصراخ الذى كان يذيب قلبى وعقلى ويهزنى من الداخل للدرجة التى جعلتنى أقضى يومى بأكمله داخل الزنزانة واقفا مرعوبا محاولا أن أبعد عن أذنى هذا الصراخ المروع.. وفي تجربتى أعتقد أن صوت التعذيب أقوى تأثيرا من التعذيب نفسه.. وبعد أن مكثت أسبوعا على هذه الحالة السيئة وداخل الزنزانة الحقيرة التى لا يتعدى حجمها عن أربع خطوات.. استدعيت للتحقيق.. واقتادونى معصوب العينين مع وجبة دسمة من الضرب بالشوم والركل حتى تصل إلى المحقق.. وحتى عندما وصلت هناك دخلت مكانا لم أشاهد معاملة لأننى كنت لا أزال معصوب العينين.. وبعد لحظات انهالوا على جسدى التحيل وفي هذه السن المبكرة ضربا وركلا بطريقة وحشية لم أسمع عنها من قبل..

ثم فوجئت بهم يرفعون عنى عصا العيون ويدخل رجل أنيق طلب منى الجلوس.. بعد أن عنفهم على هذه الطريقة فجلست فوق كرسي بدون ظهر.. ويقف خلفى رجلان

يحملان الشوم.. وبدأ يسألني عن شخصي واهتماماتي الشخصية وانتمائي السياسي..

ولما لم أستجب شتمني بأمرى.. ولا أعالي حين أقول لك أن هذه الشتمة هي أكثر ما ألمني في هذه الرحلة.. ومن بعدها اقتادوني مرة أخرى بنفس الطريقة، حيث زفزانتي من جديد.. وهذه المرة أحسست براحة نفسية بدون أن أعرف السبب.. واسمح لي أن أقول إنه تتابني حالة عصبية كلما أحكى هذه المواقف فاعذرنى..

ثم مرة أخرى استدعيت للتحقيق من جديد وتعرضت لنفس التعذيب.. وبعد أسبوع آخر اكتشفت ولعلك سوف تضحك أن صراخ الطفل الذي حكيت لك عنه منذ لحظات كان مجرد اسطوانة مسجل عليها هذا الصوت وكان الغرض منه إرهاب المعتقلين.. وقد اكتشفت ذلك من تكرار إذاعة نفس الصوت وب نفس الطريقة وربما في أوقات مختلفة.. وكانوا يتعمدون إذاعة هذه الاسطوانة عند قدوم دفعة جديدة من المعتقلين..

ولعل أذكر أنني قد قضيت في الحبس الانفرادي داخل هذه الزنزانة أربعة وثلاثين يوماً.. دون أن يتم أى اتصال بيننا.. ولكن مع الأيام استطعت أن أعرف من هم جيراني من المعتقلين وعلى ما أذكر كان في الزنزانة الانفرادية التي أمامي.. الشاعر عبد الرحمن الأبنودي.. وعرفت بوجوده بالقرب مني عن طريق المخبرين الذين كانوا يتسامرون معه اعتقاداً منهم أنه شاعر الأغنية المشهورة «على حسب وداة جليبي» التي كان يغنيها عبد الحليم حافظ..

وقتها كان الأبنودي شاعراً مشهوراً.. وكان نجما يحاول بعض المخبرين التقرب إليه.. واكتشفنا بعد ذلك أن تلك الحفاوة التي كانوا يعاملون بها الشاعر الأبنودي كانت تتم بناء على توجيهات شعراوى جمعة.. وزير الداخلية.. في ذلك الوقت.. والذي تم اعتقالنا بعد دخوله الوزارة بأربعة أيام تقريبا.. وقد سمعت منه هذه التعليمات.. حين جاء لتعزيتي في وفاة والدتي عام ١٩٨٢.. وقتها تغير الزمن.. وبعدها صرنا أصدقاء خلال فترة السبعينات وما بعدها..

وفي أثناء لقائي معه في سرادق العزاء سألتني.. هل اعتقلوك يساجمال؟.. فأجبت به بالقول: طبعاً.. اعتقلت رابع يوم دخولك وزارة الداخلية بإسيادة الوزير.. وكان هذا اللقاء فرصة طيبة كى يحكى لي كيف تم اعتقالنا.. وكان يركز في حديث لي على وجهة

نظره الأمنية فيما تم اتخاذه ضدي وضد الآخرين من رجال الفكر الذين اعتقلوا معي أو قبلي..

أعود بك من جديد إلى حديث السجن.. فقد نقلوني مرة أخرى إلى سجن مزرعة طرة بعد هذه الأيام السوداء.. ولا أذكر لحظات فرح في حياتي مثل لحظات خروجي من السجن الحربي إلى سجن طره.. وكأنما ولدت من جديد.. ودعني أقول لك إن لحظات الفرح في حياتي تعد على الأصابع منها يوم حصولي على دبلوم الصناعة.. ويوم أن استلمت أول مرتب لي.. واليوم الثالث يوم انتقالى من سجن القلعة.. وعلى ما أذكر حين عودتي وإلقاء الأصدقاء.. وأخذت أتحدث معهم ١٢ ساعة متواصلة وبلا توقف.. وكانت المشكلة لن كانوا معي في السجن الحربي وعادوا معي من جديد إلى سجن مزرعة طره.. هي من الذي له الحق في أن يتحدث أولا قبل الآخر..

وفي طره.. مكثت بالضبط خمسة أشهر وأربعة أيام.. وتم الإفراج عني بعدها حين جاء إلى مصر الفيلسوف الفرنسي سارتر.. وتقريبا كان ذلك في مارس عام ١٩٦٧.. ووقتها كان اعتقالنا له دوى خاص في أوساط المثقفين في أوروبا.. الأمر الذي جعل الفيلسوف سارتر يحمل معه إلى القاهرة طلبا خاصا للرئيس عبد الناصر بضرورة الإفراج عنا.. وتمت الاستجابة لهذه الطلبات، حيث أفرج عنا.. وحين خرجت من المعتقل وجدت نفسي مفصولا بقرار جمهوري من عبد الناصر شخصيا.. وكنت أيامها أعمل موظفا كرسام سجاد في أدنى درجات السلم الوظيفي، وقبل وجودي هنا في أخبار اليوم في مؤسسة التعاون الإنتاجي وفقا لتخصصي كحاصل على دبلوم الصناعة تخصص السجاد..

المهم حينما ذهب والدي لاستلام مرتبي كالمعتاد.. أبلغسوه بأنني أحلت إلى الاستيداع.. ومعنى ذلك أنه سوف أتسلم مرتبي لمدة ستة أشهر ثم أتسلم نصف المرتب لمدة ستة أشهر أخرى.. وقد شاهد والدي بنفسه توقيع جمال عبد الناصر الشخصي على قرار الإحالة والذي كانت تقول كلماته «يفصل جمال أحمد الغيطاني أخصائي السجاد بمؤسسة التعاون الإنتاجي ويحال إلى الاستيداع».

ولا تتصور كيف كان شعور والدي حين عرف بأنني قد فصلت بتوقيع عبد الناصر شخصيا.. فقد اعتقد أنني قد ارتكبت كارثة مثلا.. ضببطت في شبكة تجسس أو اشتركت

في قلب نظام الحكم.. حاجة كدة تساوي توقيع الرئيس عبد الناصر الشخصى على قرار فصل موظف مثل..

*** نريد أن نعرف.. ما هو تأثير تجربة السجن على جمال الفيطنانى كأديب وصحفى ومفكر أولا.. وثانيا على الفكر المصرى بشكل عام؟.**

- شوف.. أستطيع أن أقول لك إننى لأول مرة داخل السجن أخذ فرصة إجبارية للانفراد بالذات.. خاصة طوال الأيام الأربعة والثلاثين داخل الحبس الانفرادى.. لدرجة أننى اكتشفت نفسى معجبة بهذه الوحدة الإجبارية.. ولعلمك الزمن داخل الزنزانة الانفرادية يمر بأسرع مما تتصور لعدم وجود حركة.. إذن الزمن في هذه الحالة قد تم إلغائه.. وفي داخل السجن قسرت ألا يكون لى أى علاقة بأى حزب سياسى.. ثانيا: التفرغ التام للكتابة والفكر.. أما ثالثا: فقد زادت مرارتى من النظام.. الأمر الذى جعلنى أعبر عن هذه المرارة في كل ما كتبت..

ولعلى أذكر لك أننى عبرت عن هذه التجربة في أكثر من كتاب.. على سبيل المثال قصة قصيرة اسمها المفلول وهى موجودة في المجموعة القصصية «أرض أرض».. وفيها تجربة من التاريخ ثم المجموعة القصصية «أحراش المدينة» وأيضا تجد جدوى هذه التجربة تقف وراء قناع من التاريخ في رواية «الزينة بركات».. المهم أن قضية قهر الفكر هذه ظلت شغلى الشاغل فترة طويلة حتى بعد خروجى من السجن، وتمثل ذلك في إحساسى بالمطاردة والخوف من المستقبل، وأيضا كان لها وقعها على نفسى حتى قبل دخولى السجن.. وعلى ما أذكر.. أنه في عام ١٩٦٢.. وكنت وقتها دائم الحضور في ندوة نجيب محفوظ التى كانت تعقد في كسازينو الأوبرا القديمة بميدان الأوبرا ناحية العتبة وتصادف أن دخل علينا وقتها أحد الضباط.. وظل يراقبنا طويلا.. وبعد نصف ساعة تقريبا.. طلب من الأستاذ نجيب أن يكتب له تقريرا عما كان يدور بيننا.

طبعا رفض الأستاذ نجيب وأصر على إنهاء الندوة.. وعندما سألنا عن السبب عرفنا أن الرئيس عبد الناصر في تلك الفترة كان يزور منطقة الأزهر والعتبة ومطلوب من رجال الأمن كتابة تقارير أمنية عن هذه المناطق.. يعنى تقدر تقول إنه في ذلك الوقت كان هناك جو ملائم لحدوث مثل هذه التجاوزات مع المفكرين ومع غيرهم.. والأغلبية

من المثقفين كانوا يعدون أنفسهم لمثل هذه المرحلة.. وقد صورت هذه الفترة في قصة بعنوان «أيام الرعب» ولكنك تستطيع أن تجد تعبيرات مباشرة لى عن هذه التجربة في كتابي «تجليات» بجانب ذلك توجد بكل رواياتي إشارات لهذه الفترة ولهذه التجربة..

« ولماذا يسجن الفكر يا أستاذ جمال؟.. »

.. عندما يتناقض مع واقع النظام.. وعلى عكس ما يتصور البعض أن الفكر العربي منذ أزمان بعيدة دائم الصدام مع السلطة.. وتقدر تقول من أيام محنة الإمام أحمد بن حنبل الذي سجن بسبب اختلافه مع الخليفة في مسألة رأى لاغير.. فكان عليه إما أن يقول مثل قول الخليفة.. أو يسجن.. وقد فضل الاختيار الثاني.. إنها مشكلة موجودة ولا تزال سمة من سمات الثقافة العربية فإن الحاكم عادة ما يحاول أن يفرض رأيه ونظامه أولاً باللين.. والمرأوغة.. وأخيراً بالقهر والعنف..

والمثقف بطبيعة تكوينه قلق ولذلك تجد دائماً بينه وبين الواقع خلاف.. وفي رأينا أنه إذا انتهى هذا الخلاف في داخل الفكر.. يكون مصيره في طريقه إلى النهاية.. في عالم المفكرين.. وفي حالة ما إذا أصبح الفكر مع أفكار السلطة على اقتناع حقيقي وبدون تزيف أو منافقة، فإنه يصبح جزءاً من النظام.. ويبتعد كلية عن طريقه أن يكون مفكراً إلى الأحسن.. أو تقدر تقول إنه أصبح مفكراً موقوفاً.. أما إذا أيد السلطة والحاكم عن عدم قناعة.. فهو في هذه الحالة يتحول إلى نصاب ومهرج.. إن المشكلة الآن في العالم العربي كله.. هو كيف يحافظ الفكر على استقلاليته.. والمشكلة أيضاً هو كيف يفهم النظام في هذه الدولة أن الفكر إذا اختلف معه فهو ليس ضده وأن أفكاره لصالح بقية الناس.. والجماهير.. فكيف مثلاً تقبض على كاتب قصة.. وتسجنه لمجرد أنه قد كتب كلمات ضد هذا النظام أو ذلك.. ليس هذا فقط.. بل تصل في كثير من الأحيان إلى تعذيبه وإهانته.. في إنسانيته وشخصه.. ودعنى أذكر لك واقعة مرتبطة بعالمنا الثقافي.. إننى رغم عدم معرفتي حتى هذه اللحظة بملايسات إعدام الفكر الإسلامى سيد قطب، إلا أننى على يقين أن الحوار معه كان سيكون أفيد وأعظم لمصر وللنظام من إعدامه.. لأن ارتكاب النظام لمثل هذه الواقعة قد فرخ الآلاف من سيد قطب، وأظن الساحة السياسية المصرية تشهد بذلك الآن..

« نعود نسال الأستاذ جمال الغيطانى.. عن عدد الكتب التى كتبها سواء فى مجال الرواية أو فى غيرها داخل السجن أو تأثراً بهذه التجربة رغم أننا عرفنا بعضها أثناء الحوار؟.. »

— طبعا ظهرت تجربة السجن بشكل غير مباشر في قصص قصيرة مثل «الزيفى بركات» وكتاب «التجليات» وفي مجموعة «وقائع حارة الزعفرانى»، وإن كانت في كتاب التجليات تقترب من الواقع قليلا.. أما تجربتى داخل المعتقل لم أكتبها حتى الآن.. وفي داخل المعتقل نفسه لم أتمكن من كتابة أى عمل أدبى.. وذلك لأسباب وكما تعرف منها عدم استطاعة الإنسان التعامل مع الورق والقلم، ومع ذلك فقد تمكنت من كتابة قصة صغيرة علي ورق «البفرة» ورق لف السجاير زمان.. وقرأتها في إحدى الأمسيات التي كنا نعقدتها يوميا داخل للسجن.. ثم نشرتها بعد ذلك.. وكان اسمها «أحراش المدينة».. والغريب أنني كنت مشغولا بفكرة السجن قبل دخوله وقد بدأ ذلك واضحا عندما كتبت قصة بعنوان «القلعة» عام ١٩٦٢.. وقصة أخرى نشرت عام ١٩٦٥ بعنوان «رسالة فتاة من الشمال»..

*** وهل كانت تجربة السجن بالنسبة لك.. فترة تعتبرها سوداء أم كانت نقطة انطلاق نحو عالم أوسع داخل مجال الفكر والرأى؟..**

— في بدايتها كانت فترة سوداء.. ولكنها فيما بعد تحولت إلى دفاع حقيقي نحو الاستمرار داخل عالم الفكر والرأى والأدب.. اننى أعتبرها بحق نقطة تحول.. بعد ما اكتسبت خبرة من واقع التجربة.. وربما يرجع سوادها في بداية التجربة إلى افتقارى لعامل الخبرة والخوف والفرع.. ولكنك حين تندمج في الحياة الجديدة وتخلو لنفسك كثيرا تتحول إلى إنسان آخر.. يفكر بعمق ويقرر أيضا بعمق وروية.. وانتصارك على نفسك في هذه الظروف يكون إحساسك بقيمتك وكيانك.. وبالتالي تقرر أن تواصل المسير نحو هذا العالم بثقة أكبر..

وأعود وأقول لك إننى أعتبر فقط.. فترة التحقيق معى في داخل السجن الحربى هي النقطة السوداء التي لا أحب أن أعود إلى ذكرها لأنه قد صاحبته، وكما ذكرت لك، ألوان من التعذيب لى ولغبرى من المثقفين.. أما في أيام السجن الأخرى فقد كانت خلوة إجبارية تم خلالها عقد صفقة رابحة بينى وبين نفسى، حيث اتخذت مجموعة من القرارات وحددت لحياتى أساليب جديدة.. مازلت أسير عليها حتى الآن.. ومن أبرز هذه القرارات اعتبار الأدب الاهتمام الأول والأخير لنفسى.. وأنه لاشيء يعادل تأثير الأدب بالنسبة للأديب إلا مواقفه المعلنة التي تكمل مسيرة حياته.. وبشكل عام كانت فترة السجن تحديا حقيقيا لنفسى.. ولقدراتى.. وإننى حينما أوضع في مثل هذه المواقف

أكسب لقدرتي على تحمل المنافسة والتحديات لذلك كانت فترة خصبة في حياتي..
واعترف لك أن أكثر الأعمال الأدبية الجميلة التي كتبتها بعد خروجي من السجن
مباشرة تأثرا بهذه التجربة لإيماني أن الشيء الصعب يمكن تحويله إلى دافع له أهمية
يمكن أن يستفيد منه الإنسان بشرط توافر المقدرة لدى هذا الإنسان..

*** لوقلت لك.. مارأيك في سجون مصر الآن.. وهل توابك تطور الجريمة في
مصر الآن؟..**

..السجون في مصر الآن هي وريثة عصور مظلمة في التاريخ.. أيام العصر العثماني
والمملوكي.. وكل ما أتمناه الآن أن تتحول السجون إلى معسكرات عمل للإنتاج..
فتصور لو كل هذا الجيش الكبير أو الطابور الطويل من المسجونين قد توجه إلى
الصحراء.. لاستصلاحها.. طبعا النتيجة معروفة والفائدة كبيرة.. في مثل هذه المناطق
يتم إنشاء وتكوين معسكرات عمل تضم هذه الطاقات المعطلة.. ولا أمل أبدا لتحويل
السجون في مصر إلى سجون فندقية كما يحدث الآن في أوروبا.. في هذه الحالة تخرج
عن وظيفتها كوسيلة من وسائل العقاب والردع.. وبشكل عام فإن عالم السجون لدينا
عالم رهيب ومخيف.. وبالنسبة لنا.. كان لدينا في المعتقل بعض التقاليد ومراعاة بعض
الظروف الإنسانية.. ولكن ما كنا نسمعه عما يقاسيه المساجين الآخرين شيء
لا يصدق عقل..

وفي داخل هذا المجتمع تنتشر الجرائم والردائل.. وبالتالي يتحول السجن في مثل هذه
الظروف إلى بوتقة لتفريخ مجرمين آخرين.. إذن فالسجن هنا لا يؤدي دوره كوسيلة
للإصلاح والتهديب.. بل يساعد على المزيد من الجرائم.. أما فيما يتعلق بخصوصية
تبعية السجون.. فأنا أفضل أن تكون تابعة لوزارة العدل وليس لوزارة الداخلية.. حتى
يكون للوزارة حق التفتيش الدائم.. لأن السجين بعد الحكم عليه يتحول إلى وديعة في يد
الدولة مسئولة عنه حتى يخرج.. وكذلك مصلحة السجون.. لا بد أن تكون تابعة إداريا
لوزارة الداخلية أما تفتيشا وإشرافا فلا بد أن تتبع وزارة العدل..

*** ولو كان جمال الغيطاني مأمورا لأحد السجون الموجود بداخلها مفكرين..
ماذا كان يفعل؟..**

.. في الواقع أنا أنكر أنه كان يوجد في المعتقل في فترة وجودي أحد الضباط اتصف
بالإنسانية.. وعلى أية حال.. فإن مأمور السجن في كل الحالات ما هو إلا رجل منفذ

للتعليمات.. وأقدر أقول لك من خلال تجربتي إننى قد تعرضت لنوعين من السجن..
سجن التحقيق وسجن الاعتقال.. الأول تديره المباحث العامة.. والأخر يديره أحد
ضباط مصلحة السجون واسمه فتحى.. هذا الرجل كان على علاقة طيبة جدا بالمفكرين
وكان صديقا للجميع كما كان يعرفنا جميعا.. ويدخل علينا الزنازين فى أى وقت.. وكان
يتصدى لحل أية مشكلة تواجهنا..

أما فى حالة وجودى كمستئول عن السجن.. سوف أحاول إنسانيا أن أقرب من عدد
أكبر من هؤلاء المسجونين المفكرين.. وأحاول التقرب منهم مع التزامى الكامل
بالتعليمات والأوامر.. ويكون تعاملى مع المساجين فى حدود هذه التعليمات وكذلك فى
التطبيق.. لأننا اكتشفنا فى كثير من الحالات أن هناك تجاوزات عديدة تصدر من بعض
الضباط والبعض الآخر كان ينفذ التعليمات وهو مجبر عليها.. وأحب أن أقول لك إننى
لم أتخيل نفسى ولو فى الأحلام ضابط سجون.. حتى ولو فى أعمال الروائية..
* ولو كنت رئيسا للحكومة أو وزيرا للداخلية.. وعرض عليك كشف بأسماء
معتقلين مفكرين.. ماذا كنت تفعل؟..

... بصراحة.. أسعى للحوار معهم أولا.. وبالعكس بدلا من أن أصدر أوامرى
بالقبض عليهم أو اعتقالهم.. لأننى على يقين أن من يسجن مفكرا أو أدبيا لا يستحق أن
اسميه.. ومع ذلك لا بد أن تعرف أنه ليس هناك أدبيا أو مفكرا فوق القانون.. المهم أن
تحاكمه أولا.. وإذا تمت إدانته يقبض عليه فوراً وينفذ فيه العقوبة.. وهذه تتدرج تحت
حالات الإدانة والتحقيق التى يتعرض لها أى إنسان فى المجتمع.. ولكن إذا كانت التهمة
فكرا معارضا فلا الجأ مطلقا إلى عقوبة الاعتقال أو السجن.. بل أسعى إلى مجادلته
وحواره.. وبالعكس فإن الآراء المعارضة عادة ما تؤدي إلى فائدة كبيرة للمجتمع..
وأضيف إننى إذا كنت رئيسا للحكومة ومقتنعا بالآراء المعارضة أسعى للحوار معها..
فمن المؤكد سوف أختار وزيرا للداخلية يتميز هو الآخر بنفس الصفة بجانب صفاته
الأمنية الأخرى.. ولكن للأسف هذا لا يتم عادة فى دول العالم الثالث.. لأن كل رئيس
حكومة همه الأول إرضاء الحاكم فقط..

الحكاية السابعة يرويها صلاح عيسى:

حكايتي مع السجن بدأت في عهد عبد الناصر!!

لم أجد كلمات تعبر عن محنة السجن بالنسبة للمفكر، فيها الصدق والمعاناة.. والالم والقوة.. سوى ما كتبه الزميل الصحفي صلاح عيسى من كلمات كان ينشرها هنا وهناك بين الحين والآخر.. هذه حقيقة نقلتها بإخلاص ولا أعرف السبب.. فقد حرصت أثناء إجراء هذه الحوارات على قراءة أكبر عدد من الكتب التي طرحها هؤلاء المفكرين.. سواء قبل أن أسجل معهم أو بعد التسجيل.. ورأيت في بعض كلماتهم التي سطرها في هذه الكتب مدخلا دفعني بقوة نحو المضي قدما نحو عالم السجن وتأثيره على المفكر وحياته وتكوينه..

وكثيرا ما كنت أمر على ما كتبوه بسرعة دون أن أتأثر أو يصيبني الغم والهم.. إلا صلاح عيسى.. لقد ظلت كلماته التي قرأتها عن تجربته في السجن وأقفة فوق صدرى ليال طويلة.. وكثيرا ما حاولت الهرب من تأثيرها.. وسرعان ما يهاجمنى هذا التأثير كلما أعاد الكتابة عن هذه التجربة من واقع حوارى معه مثل غيره من المفكرين المصريين الذين كانوا ضيوفي عبر هذه الصفحات.. وكنت أفكر في أن أنقل إليكم بعض هذه العبارات والكلمات، ولكننى تسرّجت في الوقت المناسب.. وعقدت العزم على أن أكتفى فقط بما قاله لى وما سوف أنقله إليكم عبر هذه الصفحات من واقع شريط التسجيل ولكننى ربما أضطر إلى الاستعانة ببعض كلماته وسط الحوار.. كى أنقل صورة صادقة لمعاناة المفكر وأحواله داخل الزنزانة.. تعجبا على تلك الأوضاع السياسية التى تسمح لمن يقتربون منها بأن يتم وضعهم في السجن بلا محاكمة مع اقتناعهم الكامل بأن المفكر هو أئمن رجل في المجتمع.. وبه وبأفكاره يتم إنارة عقول الجماهير.. ولكنها الأزمنة الغابرة التى ترفض وتفرض على الإنسان والمجتمع أوضاعا يكرها.. وإن قبلها فهو القهر بعينه..

وبصرف النظر عن شخصية الحاكم أو فترة الحكم.. فإن الحديث يتناول قضية تأثير السجن على الفكر المصرى ولماذا يلجأ رجال السلطة عادة إلى السجن كعقوبة لأصحاب الفكر والرأى..

قبل كلمات هذه المقدمة بثوان كنت أفكر فى استخدام عنصر الزمن كمدخل لحديث هذا الحوار.. ولكننى اكتشفت فى اللحظة المناسبة أننى قد استخدمته من قبل.. ومن ثم كان علينا أن نبحث عن طريق غيره.. وقد كان.. لقد وجدت فى كلمات صلاح عيسى التى كتبها فى أحد كتبه تحت عنوان «تباريح جريح» خير مقدمة.. تسوجع القلب والعقل.. وتجعلك تخاف من الفكر حياة المفكرين.. ولكنها ضريبة الذين يحملون مشاعر الفكر.. ويحملون بواقع حياة جديدة.. ويتوقعون أيضا حياة النوم فوق الاسفلت وأكل الفول أبو زلط.. مع أنه من العدل أن يعيشوا وفقا لفكرهم ويستفاد بأرائهم مهما اختلفنا معهم.. فإن الخلاف فى الرأى ليس معناه عقوبة السجن والاعتقال..

بقيت لنا كلمة قبل أن ندير الشريط كى نستمتع جميعا لتفاصيل الحوار، إننى لا أبغي من وراء هذا المجهود المصنى سوى تسجيل كلمة حق لله وللتاريخ عن واقع فترة زمنية مرت بها بلدنا الحبيبة مصر.. بصرف النظر عن الاختلاف أو الاتفاق فى الرأى أو المذهب السياسى أو العقائدى.. لأن الفكر لا يفرق بين هذا وذاك مادام الطريق الوحيد هو الكلمة.. ولا شىء غيرها..

والآن حان الوقت كى ندير الشريط ونسمع الأستاذ صلاح عيسى يتكلم وأنا من بعد التسجيل معه أنقل لكم تفاصيل الحوار عبر هذه الأوراق..

* نريد أن نعرف من الأستاذ صلاح عيسى.. كم مرة دخل فيها السجن أو المعتقل أو التحفظ باعتبار أنها الفاظ لمسمى واحد؟..

— أنا اعتقلت فى أول مرة فى ٤ أكتوبر عام ١٩٦٦ والسبب ثلاث مقالات نشرت فى إحدى صحف بيروت وتسمى «ملحمة الحرية».. والمقالات كانت بعنوان «الثورة بين المصير والمسير».. وقد اعتبرها القائمون على ثورة يوليو أنذاك أنها نقد حاد للثورة وقسائدها.. هذه المقالات نشرت من يوليو إلى سبتمبر.. وبمجرد الانتهاء من نشرها اعتقلت.. وكنت ضمن عدد كبير من الصحفيين والكتاب والمفكرين المصريين.. مثل سيد

حجاب وجمال الغيطاني وعبد الرحمن الأبنودي وآخرين..

ورغم أن هذا الاعتقال كان قصير المدة فقد استغرق ستة أشهر، إلا أنه كان كثيف التعذيب في فترته الأولى.. وأفرج عنا في مارس عام ١٩٦٧ ثم أعيد اعتقالنا في مارس ١٩٦٨.. والسبب الاتهام بالمشاركة في مظاهرات الطلبة التي اشتعلت آنذاك من ١٧ إلى ٢١ فبراير عام ١٩٦٨.. وهذا الاعتقال كان أطول من سابقه.. فقد مكثت ثلاث سنوات بالمعتقل وخرجت عام ١٩٧١.. أما المرة الثالثة.. فقد كانت من عام ١٩٧٥ واستمرت كذلك عدة أشهر وفيها قدمت للنيابة من الناحية الظاهرية فقط.. أما في جوهرها فكانت أيضا اعتقال.. ومن عام ١٩٧١ حتى هذه الفترة لم أسلم من المضايقات والتحقيقات وبدا الاعتقال في صورة أخرى مثل الرصد من الوظيفة عام ١٩٧٣..

في هذه المرة الأخيرة التي ذكرت لك فيها أنني مكثت أربعة أشهر تم الإفراج عني فيما يسمى قانونا على ذمة القضية التي لم تتم حتى الآن.. وفي المرة الرابعة عام ١٩٧١ طلبت في التحقيق بمناسبة أحداث ١٨ و ١٩ يناير ولكنني نجحت في الهرب هذه المرة لمدة عشرة أشهر.. فقد جاءوني فعلا من أجل اعتقالني مثل كل مرة.. وفور معرفتهم بي نجحت في الإفلات والهروب إلى أن قبض علي في أكتوبر أو سبتمبر من نفس العام، وقدمت للمحاكمة على ذمة القضية بعد أن مكثت أربعة أشهر داخل السجن.. وكنت من بين الذين برأتهم المحكمة في هذه القضية..

أيضا في عام ١٩٧٩ قدمت للمدعى الاشتراكي للتحقيق معي، ولم يصاحب هذا التحقيق دخول السجن.. وفي يناير عام ١٩٨١ ألقوا القبض علي عندما وزعنا بياناً في معرض الكتاب الذي عقد آنذاك نطالب فيه بمقاطعة الجناح الإسرائيلي في المعرض.. واعتقال هذه المرة لم يستمر طويلاً.. لأنه قد أحدث ضجة في حينها.. وعلى ما أذكر استمر ثلاثة أسابيع.. وتم بعدها الإفراج عني على ذمة القضية.. ولتصفيية حساب هذه الفترة تم اعتقالنا أيضاً لآخر مرة في سبتمبر عام ١٩٨١.. وتم الإفراج عني بعد وفاة الرئيس السادات.. وكنت ربما آخر دفعات هذا الإفراج..

*** يعني نقدر نقول كم مرة يا أستاذ صلاح؟**

.. الحقيقة أنا لم أعد، ولكن تقدر تقول.. ست مرات حتى الآن والحمد لله.. لم يممسنا شيء في عهد الرئيس مبارك.. ولا أظن أنه سيحدث إن شاء الله..
*** في تصور الأستاذ صلاح عيسى.. ما هو سبب كل هذه الاعتقالات؟..**

- طبعا السبب الاساسى هو في معظمه يتعلق بالفكر والموقف السياسى.. وايضا بالصحافة كمارسة.. يعنى المرة الاولى كانت بسبب مقالات نقدية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر.. وكنت اطالب من خلالها بمساحة اكبر مما كان متوفرا للحرية والديموقراطية.. وقد اعتبرها عبد الناصر كما نقل لى بعد ذلك خروجاً على نظام الثورة.. وعارف السبب يرجع إلى تفتح وعيى السياسى قبل الثورة وارتباطه بديمقراطية حزب الوفد.. لقد كانت قبضة الديمقراطية تأثرا بالجو الذى كان سائدا قبل الثورة.. هى شغلى الشاغل.

وعلى فكرة فى المرة الاولى أنا لم اعتقل فقط، بل فصلت، فقد كنت موظفا وأكتب فى الصحف المصرية والعربية.. وجاء هذا الإجراء بناء على مذكرة كتبها السيد على صبرى نائب رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت.. وقدمها إلى الرئيس عبد الناصر الذى وقع عليها بالتنفيذ للاعتقال والفصل..

برضه فى المرات التالية.. كانت بسبب موقفى من الديمقراطية فمثلا فى عام ١٩٦٨.. كانت أول مظاهرات تقوم بعد الثورة ويتقدمها شباب الجامعات.. وفى عام ١٩٧٥ كانت التهمة الموجهة إلى أنسى كنت أذهب إلى الجامعة.. وألقى محاضرات.. وأنادى بالديموقراطية والتعددية الحزبية وفى عام ١٩٧٧.. كذلك ارتبطت بقضية الديمقراطية رغم ارتباطها بانتفاضة الطعام.. وكانت التهمة أننى من خلال الكتابة والمحاضرات كنت أهين الجماهير وأثرهم من أجل هذه الانتفاضة.. وفى وقتها حدث بينى وبين رجال النيابة مناقشات على جانب كبير من الأهمية.. لأننى اكتشفت أن ما أقوله فى المحاضرات وما أكتبه وينقل عنى.. كله فيه تحريف.. من هنا تستطيع أن تقول إن السبب يرجع إلى السعى الدائم من أجل قضية الديمقراطية رغم أننى كنت ومازلت اشتراكيا.. ولكن الديمقراطية فى تصورى هى جزء من الاشتراكية.

*** ما هو تأثير تجربة السجن على فكر صلاح عيسى أولا.. ثم على الفكر المصرى آنذاك؟..**

- هو طبعا تجربة السجن.. من التجارب التى لا يمكن أن يمر بها إنسان وخاصة لأسباب فكرية وسياسية دون أن تترك تأثيرات أساسية فى حياته.. سلبية أو إيجابية حسب طريقة الإنسان فى التفاعل مع التجربة وحسب الظروف السياسية التى تعتقل خلالها.. الحبس مثلا فى عهد عبد الناصر كان سببه معارضته شخصيا.. لأن المعارضة

في أيامه لم تكن مقبولة.. وربما كان يرجع ذلك إلى قوة شخصيته التي جعلت إحساسك بالمعارضة أمامه لا تساوي شيء.. وأيضا إحساسك بأنك ريشة تقاوم تيارا قويا لدولة تملك كل شيء.. ورجل يحكم بمفرده..

وعلى سبيل المثال.. كنت أعمل موظفا في الدولة التي يحكمها عبد الناصر.. وبعد دخولي السجن وخروجه منه.. فصلت من العمل، وحاولت البحث عن عمل في مكان آخر ولم تقلح محاولاتي، لأن الدولة في ذلك الوقت كانت تملك كل شيء حتى مقادير وأرزاق الناس.. فالشركات ملك الدولة.. والحكومة ملك الدولة.. وكل شيء.. مما جعلني أعتبر هذا الرغد نوعاً من الإعدام البطيء.. لأنني كنت موظفاً حكومياً خريج جامعة.. وأعمل أخصائياً اجتماعياً.. ولو كان في يدي مهنة أخرى لكنت مارستها.. ولكنني خلقت هكذا موظف وكاتب ومفكر.. لقد كانت تجربة قاسية هزت داخلني بعنف.. ومع ذلك أقدر أقول لك إنها أعطتني في الوقت نفسه نوعاً من من التفاؤل الداخلي.. يعني كل شيء لا يدوم وأن الأمور في أصلها مصيرها الزوال، وبالتالي ولدت عندي قوة دفع إلى الأمام.. يمكن ذلك لم يظهر لي في أول مرة، فحين خرجت آنذاك أمشي بجوار الحائط تجنباً للإهانة التي ذقت مرارتها في أيام السجن داخل الزنزانة.. لأنني قد تربيت في أسرة عودتني على احترام الذات وكره الإهانة.. وبالتالي تولدت بداخلي ما يمكن أن تسميه كرامة الطبقة الوسطى.. ولكن بشكل مبالغ فيه بالنسبة لي شخصياً..

وفي الاعتقال الثاني.. حاول السيد خالد محيي الدين ونايف حواتمه التوسط لدى عبد الناصر للإفراج عني.. ولكنهما أرسلاني رسولا يحمل لي كلمات عبد الناصر الذي نقل لهما أنه لن يفرج عن صلاح عيسى مادام هو على قيد الحياة.. ولم يقصدني وحدي بل كنا ثلاثة معتقلين أنا والشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم.. فلا يمكن أن تتصور أنك سوف تخرج إلى الحياة بعد هذا التهديد.. ولم تكن بالتالي تتصور أنه سوف يموت وهو في عز قوته.. وبجانب أنني رغم هذا التهديد لم أكن أحسب أن يموت عبد الناصر..

بصرف النظر عما أنا لاقيته وزملائي من المفكرين على يد رجاله.. وكذلك تقاجاً بقدوم عام ١٩٧٠ وأن عبد الناصر مات.. وأنت خرجت من المعتقل بعد وفاته.. وكانما تحققت كلماته.. وفعلاً لم نخرج إلا بعد أن مات.. فقد خرجت في فبراير بعد أربعة أشهر من وفاته حيث مات في سبتمبر عام ١٩٧٠.. حين قرر الرئيس السادات تصفية

الاعتقالات، يعنى تقدر تقول حياتى منذ الاعتقال الاول كانت بين الافراج والاعتقال والرفد والصلصلة فى الشوارع.. رغم اننى انتمى إلى أسرة مستورة إلا أن اتجاهى السياسى لم يكن يروق لها.. أضف إلى ذلك أن بعض أفراد أسرته أغلبهم يعمل فى الحكومة فى مناصب حساسة مثل البوايس.. الأمر الذى جعل أغلبيتهم يتنكر لى، خوفا على مناصبهم..

من هنا أخذت اختياري على عاتقي وبمفردي.. واتخذت من عقوبة السجن وسيلة دفع إلى الامام حيث الاستمرار فى العمل السياسى والفكر والكتابة والتمسك بحرية الرأى والدفاع عنها.. وفى كل مرة أخرج فيها أجد الحياة بالنسبة لى تبدأ من جديد.. مثلا تجد عملا جديدا أو مصدر رزق جديدهكذا.. لقد كان ذلك أحد التفاعلات الإيجابية الهامة لتجربة السجن.. من حيث أنها عودتنى على الصبر وحسن الاختيار والانطلاق إلى الامام بلا رجعة إلى الخلف.. ولذلك تجدنى ووفقا لهذه التفاعلات لم أراجع اختياراتى كثيرا.. ورغم كراهيتى الشديدة لعقوبة السجن إلا اننى بعد المرة الأولى لم أعد أخاف منها.. ولم أخف من تكرارها فى حياتى مرة أخرى.. وأبدأ فى ممارسة طقوس هذه الفترة العقابية.

مثلا تجدنى أظل نائما فى زنزانتى أكثر من أسبوعين متواصلين لاننى بالفعل لم أكن انام خارجها بالقدر الكافى، ربما بسبب التكالب على الرزق.. ومن جانب آخر لاعتقادي الشديد أنك يجب ألا تفكر فى أمر الخروج. لأنك وحسب تجاربي فى هذا الميدان.. لا بد وأن تعيش خلف هذه الجدران أكثر من أربعة أشهر.. ثم تبدأ فى التفكير فى عملية الخروج أو الإفراج.

إن السجن بشكل عام له تأثير مهم وخطير على الفكر المصرى بشكل عام.. وأذكر لك مثلا الفكر المصرى سلامة موسى.. فى كتابه «تربية سلامة موسى».. الذى سجل فيه تجربته داخل السجن.. حيث وجد نفسه بعد أربعين عاما من الكتابة والتفكير والعمل العام.. وسط الحرامية والنشالين والقتلة.. بدلا من التكريم.. وقد قبض عليه أيام صدقى باشا.. إن هذه التجربة تخلق لدى الإنسان نوعا من المرارة.. وعمايز أقول لك إن السجن فعلا قرين التفكير فى بلاد تسود فيها الدكتاتورية.. ولا تقبل الخلاف فى الرأى وتضيق بأصحابه، وتجد أن السجن هى المكان الطبيعى لهم.. ولكن من الناحية العملية تجد أن السجن فرصة للتأمل مفروضة عليك بالقوة.. وخاصة فيما يسمى

بالحبس الانفرادى الذى حرمته منظمات حقوق الإنسان.. وكثيرا ما كنا تفكر ونتساءل
عن هو الشرير الذى ابتدع فكرة السجن الانفرادى.

لقد كانت مسألة صعبة جدا.. أن تأتى برجل وتضعه بين أربعة جدران وتتركه أياماً
أو شهراً دون أن تعذبه.. فذلك الموت بعينه ومقاومة هذا العذاب يتوقف على ثرائك
الداخلي.. بحيث تحاول أن تستثمر هذا السجن وهذا العذاب المتمثل فى الوحدة.. فى إبداع
فكرة.. أو تصور واقع.. أو تخطيط لحياة جديدة.. ويأتى ذلك كله من تركيز حياتك فى
التأمل.. وهذا فى تصورى هو الطريق الذى يمكن أن يسلكه الكاتب والمفكر فى كسر سم
هذه الفترة.

*** وإذا خصصنا هذا السؤال وقلنا.. لماذا يسجن المفكر فى مصر أو فى دول العالم
الثالث على وجه العموم؟**

.. هو طبعاً.. الأنظمة عموماً فى دول العالم الثالث وفى مصر فى فترة من الفترات قد
قامت على فكرة أن الحاكم لا يقبل الخلاف فى الرأى، وأن الخلاف بالنسبة له يعتبر
تطاولاً عليه شخصياً وانتقاصاً مما قد يؤديه فى وطنه.. وقد يكون يؤدي فعلاً لوطنه
خدمات.. ولكن المسألة بالنسبة للمفكر هو حالة الاعتراض المستمرة والشاملة التى
ربما تكون للكون كله، وفى هذه الحالة لا يجد الحاكم الدكتاتور أمامه من وسيلة
لإسكات صوت المفكر إلا السجن والاعتقال.. وبالنسبة لمصر كان هناك فى العهد
الناصرى خطة عن قناعة تبلورت فى ضرورة تصفية العناصر المعارضة أو المضادة
للثورة، ودمج كل التيارات المختلفة فى تيار واحد يقف خلف الثورة.. والذى كان يخرج
عن هذا التيار كان لابد من أن يتعرض لعملية بلسورة داخل السجن والمعتقلات حتى
يخرج كى يؤيد ويقف أمام النظام بدلا من الوقوف خلفه أو ضده، وذلك من جراء
ما يلاقىه فى هذه المعتقلات من معاملة غير إنسانية وعادة ما يصاحبها نوع من التعذيب
والتعريب والمهانة.

وحتى عندما تخرج من السجن تبدأ المرحلة الثانية من هذه البلورة التى تتمثل
كثيرا فى عرض المناصب والإغراء المادى وأشياء كثيرة من هذا القبيل.. والنتيجة تكون
كما يتوقع رجال الثورة.. يصبح المعارض رجلاً مبستراً.. قابلاً لأن يقف معهم بكل
كيانه ويفقد بذلك فكره و رأيه ويحضرنى فى ذلك مثال سمعته فى جلسة خاصة.. كان
يحكيه المتحدث كمثل لما جرى فى أحد الأنظمة العربية.. قال إن ٩٠٪ من شعوب العالم

الثالث تقبل العيش حتى على الكفاف.. والحاكم الدكتاتورى الشاطر هو الذى يستطيع أن يمد هذه النسبة بما يكفيهم من الطعام والشراب، وهناك ٧٪ من هذه الشعوب لاهم لهم سوى جمع الأموال والسرقة، وهؤلاء أمر معالجتهم ميسور.. أما نسبة الـ ٣٪ الباقية فهى تمثل أصحاب الرأى والفكر.. وعادة ما يحاول الحاكم القضاء عليهم بالتصفية والقتل حتى يأمن شرهم.. ويتمكن من الاستمرار فى حكمه فترة أطول.. لأنه يعرف مقدما أنه سوف يفشل فى التفاهم معهم بالطرق العادية المرتبطة بالبطون والجيوب.. وأن القضاء عليهم بهذه الصورة سوف يجنبه شرهم الذى يمكن أن يمتد لبقية النسبة من السكان.

*** وماهى الطريقة المثلى فى رايك لمعالجة الرأى الأخرى.. بعيدا عن شبح السجن..؟**

.. أن تسود حقوق الإنسان فى أن يعارض ويقول مايشاء ويكتب مايشاء.. ولا بد من الاعتراف بها.. وتنظيم الوسائل التى بها تسود هذه الحريات.. عندئذ فإن حجم المخاوف المصاحبة لسيادة هذه الحريات.. حين الممارسة سوف تقل.. أو تنعدم.. والمهم هو الاعتراف بحرية الرأى والرأى الآخر وفقا للشريعة والقانون والأخذ بهذا الرأى مهما كان معارضا مادام يقدم الحلول.. وعلى ذلك لا بد من أن نتوقف عن الاعتقاد بأن الحاكم مقدس ولا يجب نقده.

*** نريد أن نعرف بالضبط.. ماهى الشخصيات السياسية والشخصيات العامة التى تعرفتم بها داخل السجن؟ وماهى أهم المواقف الطريفة والمواقف المحزنة التى واجهتكم؟..**

.. ياه.. كثير قوى.. وفى كل مرة من مرات السجن أتعرف على الكثير ويمكن أعرافهم قبل الدخول إلى المعتقل بحكم انتمائى السياسى إلى اليسار المصرى الذى كان فى فترة من الفترات أكثر الجهات السياسية تعرضا لسلاعتقال.. ولكن فى آخر مرة من مرات الاعتقال عام ١٩٨١ شاهدت داخل المعتقل نوعيات مختلفة من المفكرين والسياسيين المصريين على اختلاف انتماءاتهم الحزبية والفكرية.. وأنا أذكر فى اليوم الأول لانتقالنا من سجن الاستقبال إلى السجن الملحق بطره.. وقفت فى زنزانتى أتابع طابورا من رجال الحرس القديم يتوافدون إلى الزننازين المجاورة.. رجال تجاوزوا الستين أو اقتربوا منها.. تقلبت عليهم العهود والأزمان.. وقد استفرقنى مشهد المرحوم

عبدالعزیز الشوریجی نقیب المحامین الأسبق.. وكانوا قد اعتقلوه من فراش المرض وهو يصعد السلم بأعوامه السبعین.. بخطوات بطیئة واهنة وحوله عبدالعزیز محمد وأحمد ناصر یحاولان مساعدته فیرفض بإباء..

وحین استقرت الأوضاع وجدت نفسی فی زنزانة واحدة وكانت رقم (١٤) مع محمد عبدالسلام الزیات وفؤاد سراج الدین وقد قاوما بشدة ونبل حقیقی تطوعی بأن أقوم عنهما ببعض الأعمال البسیطة فی زنزانتنا المشتركة بحکم سنی الصغیرة، لكنهما اضطرا للرضوخ، ولأن الزنزانة كانت الوحيدة التي لا إضاءة بها، فقد أمضینا اللیالی الأولى نستمع إلى ذکریات فؤاد سراج الدین، بینما بقية الزملاء یقضونها فی سمر.. ویوما بعد یوم كانت آلامی النفسیة تزدید وشوقی لأبی یملأ القلب وخوفی أن یموت فتحول الاسوار بینی وبین أن أقبیل جبینة.

هذه الآلام كنت أصرفها عادة فی تأمل مناضلی الحرس القدیم وهم یتجولون فی فسحة الضحی أمام زنزانتی.. ومنهم كان فتحی رضوان الله یرحمه وفؤاد مرسی وإسماعیل صبری عبدالله وایراهم طلعت وآخرون.

ومن الشخصیات المهمة التي اقتربت منها كذلك فی هذه الفترة عبدالسلام الزیات الذی كان یتیمز بأنه قلیل الكلام، ویدا لی فی أوقات كثيرة كأنه رجل داخل نفسه.. وكان یوم ١٧ سبتمبر عام ١٩٨١ واحدا من أيام الحزن العظیم بالنسبة لعلاقتی بهذا الرجل.. فقد جاء الطیب والمأمور کی یطلبنا من الزیات أن یجمع حاجیاته لینقل فورا إلى المستشفى، فالسجن غیر مسئول عن حیاته لأن حالته الصحیة حساسة للغاية ورفض الزیات بعناد أن یدخل مستشفى السجن.. وبعد عدة اتصالات وافق المسئولون علی نقله إلى أحد المستشفيات الجامعیة ولیس إلى أحد مستشفيات السجن.. ومن ثم غادرنا الزیات قبل الغروب بقلیل واحتضنته مودعا ومشجعا..

أما عن الحکایات والمواقف المحزنة التي صادفتنی وراء القضبان فهي حکایة موت عبدالعظیم أبو العطا.. فلم یکن قد مضى علینا فی السجن سوى عشرين یوما.. وأذکر أنه وصل ذات غروب.. حین صاح النقیب سامی سرحان من الدور السفلی أن ضیفا جدیدا قد عاد من مستشفى سجن الاستقبال وهو عبدالعظیم أبو العطا وزیر الری الأسبق.. لقد رأیته فی الصباح وأنا أسلم الزنزانة رقم ١٧ صحفها، رحبت به وحیینه وسألته عن أماناته واما یریده من الكانتین کی أدبره له.. وفی ضحی الیوم نفسه رأیته

مرة أخرى في العيادة والطبيب يفحصه وقد بدا لي شاحبا وهزيلا أكثر من المعتاد.. ولم تكن لدى فكرة عن حالته الصحية، لكن وزنه كان يزداد هزالا وكان مصابا بالقرح في المعدة ويتطلب غذاء خاصا.. لذلك كان ولأسابيع طويلة يعيش على اللبن الزبادي فقط.. وفي اليوم المشنوم كنا في انتظاره، فاليوم كان مخصصا لمناقشة محاضرة القاها قبل أيام داخل السجن عن مشكلة الأرض الزراعية.. وكنت مازلت أعدد الكويونات التي أوزعها على زملائي.. وكان عبدالعظيم أبو العطا قد دخل زنزانته ليستريح كما سمعته يقول للأستاذ هيكل، ولا أنكر أنني رأيت زميلنا الطبيب على نويجي وكمال الإبراشي وهما يدخلان الزنزانة رقم ١٧، فقد فوجئت بالأخير يخرج منها مذعورا ويصرخ طالبا أنبوية أو كسجين.

لقد تحركت على الفور فالأنبوية كانت في عهدي داخل الزنزانة وبسرعة شديدة انتقلت الأنبوية الضخمة إلى الزنزانة رقم ١٧.. وجلست صامتا ولاهئا، عرف الوافدون للمشاركة في الندوة أن «أبو العطا» يمر بأزمة صحية، جلسوا قلقين صامتين.. ومرت دقائق طويلة.. وربما ثوان خرج الطبيب بعدها يصرخ: مات عبدالعظيم أبو العطا.. وعلى الفور أخطر الشاويش محمود الإدارة.. ومضى وقت طويل قبل أن يأتوا بكامل هيئتهم، ضباط كبار وضباط صفار.. دخلوا الزنزانة رقم ١، خرج كبيرهم وقال لنا البقية في حياتكم.. وأنا أنكر وقتها أنني ظلت جالسا أمام الزنزانة حتى تقدم الليل.. جهزوا الجنة استعدادا للرحيل خارج السجن إلى المقابر.. وقتها حاولت أن أمنع نفسي من البكاء فلم أستطع..

*** نريد أن نعرف من الكاتب الصحفي والمفكر صلاح عيسى هل من رأيه أن يكون للمفكرين سجونا خاصة.. أم يزوج بهم وسط غيرهم من المسجونين الذين تمت إدانتهم في قضايا سرقة ومخدرات؟..**

— هو من ناحية الخبرة الإنسانية.. فإن معايشة أي أنماط أخرى من البشر هي تجربة مفيدة بالنسبة للمفكر.. وبالنسبة لي أنا شخصيا فقد استفدت كثيرا من هذا الاختلاط، سواء وسط تجار المخدرات أو اللصوص أو القوادين.. أو جرائم الثار.. لقد كان اختلاطا جميلا ومفيدا.. وعلى فكرة أن للسجن طقوسا خاصة به.. وتآلف وتعاطف اجتماعي بعيد الأثر، وأيضا تجد بداخله قوى الصراع والحاجة.. بحكم

الظروف التي تفرض عليك داخل السجن وفيه أيضا نوع من أنواع التسامح باعتبار وجودنا داخل هذه الجدران إقامة جبرية.. وعلى ذلك فلا يجب علينا أن نتشاجر أو نتخاصم ونصدر أحكاما ضد بعض.

ويحدث ذلك أيضا بالنسبة للجرائم الجنائية وإلى آخره.. ومحصلة التجربة.. عالم جديد بالنسبة للمفكرين من الممكن الاستفادة منه والخروج بتجربة ثرية وعظيمة.

ومن ناحية الراحة والمعاملة الحسنة والاحترام، فلا بد وأن يكون بالفعل للمفكرين سجنا خاصا بهم أو على الأقل إذا مكثوا في نفس السجن، فلا بد وأن تتوافر لهم حياة أفضل ومعاملة أحسن.. لأن المفكر يحتاج إلى أشياء لا يحتاجها المسجون العادي.. من أجل ذلك إذا لم يكن هناك مكان خاص لهؤلاء المفكرين فلا بد من الاستجابة لبعض هذه المطالب الأساسية مثلا المفكر يحتاج إلى القراءة والكتب والسورق والقلم مثل الأكل والشرب تماما.. وأيضا الاستماع إلى الإذاعات.. فمثل هذه الحاجات لا بد وأن تكون مكفولة له داخل السجن.. سواء داخل السجن الخاص به كمفكر أو السجن المختلط.. وعموما المسجون المصرية تحتاج الآن إلى ثورة حقيقية لتغيير أوضاعها.. وكان كل ما يشغلنا ونحن داخل هذه الجدران أننا حين نخرج لا بد لنا وأن نطالب بقوة من أجل وقفة جماعية عن طريقها نناشد بتغيير المسجون المصرية شكلا وموضوعا.. وللأسف حينما نخرج لا يتم لنا ذلك وكأننا نريد أن ننسى هذه الفترة العقابية من حياتنا.. وفي إحدى المرات على ما أذكر ونحن داخل السجن أقمنا ندوة كبيرة حضرها مثلا الدكتور حلمي مراد واتخذنا قرارات من أجل مناشدة المسؤولين من أجل تحسين أوضاع المسجون في مصر.. سواء كنا بداخله أو خارجه.

وعن نفسي حاولت السوفاء بهذا الوعد فور خروجي من السجن.. وعلى صفحات الأهل خلال أعوام ٨٢، ١٩٨٢ حاولت أن ألفت الأنظار للمعاملة غير الإنسانية التي يلقاها الإنسان المصري داخل السجن وجندت لهذه الحملة مجموعة من المحررين الشباب من أجل إثارة هذه القضية ومحاولة تحسين الفلسفة العقابية من منطلق أن كل هذه المسجون في مصر أقيمت في عهد الاستعمار.. أو قل معظمها.. وشهدت فترة من التخلف تبعد عن الفلسفة العقابية المقصود بها.. هو الانتفاع.. وليس الإصلاح.. ولكن الغريب إنني حينما حاولت أن أبدأ هذه التحقيقات.. فوجدنا بنقص المعلومات.. بل ورفض المسؤولين عن المسجون إعطاءنا بيانات صادقة عن المسجون.

مثلا عددها وعدد المقيمين بها وهكذا.. أضف إلى ذلك أنني أعرف مثلاً انخفاض مستوى معيشة السجناء.. الأمر الذي يؤدي إلى سوء المعاملة وتحولهم في بعض الأحيان إلى وحوش آدمية لا هدف لها سوى امتصاص دماء المسجونين..

« ذكرت لنا في حديثكم رداً على السؤال قبل السابق.. أنكم التقيتم بالعديد من الشخصيات العامة والسياسية.. فهل تذكرون شخصيات أخرى غير سياسية أو فكرية؟ وبالضبط شخصيات من المسجونين غير السياسيين؟

.. طبعاً.. لقد تعرفت على العديد منهم.. وبعضهم من الضباط.. أيوه بعضهم كان من ضباط السجن.. فقد تعرفت على اثنين من ضباط السجن.. منهم واحد كان وقتها عقيد واسمه ناصف مختار.. وأرجو من الله أن يكون ما يزال حياً.. لقد كان مدير معتقل طره السياسي وهو مسيحي.. في الفترة التي اعتقلت فيها عام ١٩٦٦.. وأقول إنه كان مسيحي السديانة لأنه كان قائد معتقل طره الذي خصصته الحكومة لاعتقال الإخوان المسلمين، في ذروة معاداة النظام للإخوان.. وقد اكتشفت في هذا الضابط نموذجاً عالياً من الرجل المصري الطيب الشهم.

بالفعل لقد كان نموذجاً لضابط السجن المصري الذي يمكن أن تسعيه رجل الواجب الذي يؤدي واجبه بالذمة والقانون والضمير وليس له شأن في أن يعامل الآخرين بما يفهم منه استغلال السلطات.. مع أنه كان يمكن أن يكون ذلك وأكثر.. واللوائح والقوانين كانت تعطيه هذا الحق.. إنني أشهد أن هذا الضابط المصري لم يستغل وظيفته ولا سلطاته في إيذاء الآخرين طوال إقامتي داخل سجن طره.. لقد كان نموذجاً غير طبيعي.. وللأسف لم تدم علاقتي به بعد الخروج، رغم أننا قد تعاهدنا على ذلك كثيراً معه.. ومع غيره من الأصدقاء.. وكان منهم مثلاً اللواء أحمد مصطفى الذي كان في ذلك الوقت برتبة عميد..

لقد كان هؤلاء نموذجاً مشرفاً للضباط المصري الذي كان يعامل المساجين معاملة تطبيق بآدميتهم.. وكثيراً ما كان ينجح في التعامل مع مختلف المعتقلين من مختلف الثيارات السياسية.. ولقد كان يتمتع بدرجة كبيرة من المرونة. وتطبيق القانون وروحه حتى المخبرين داخل السجن وجدت في بعضهم الإنسانية.. وأنا أنكر في مرة من المرات أنني كنت معلقاً للتعذيب وظللت كذلك طويلاً نظراً لتردد المخبرين في القيام بهذه

المهمة اللاإنسانية لقد شاهدت منظرا ملا قلبى بالإيمان.. فقد رأيت أحدهم يحاول الهرب من تنفيذ عقوبة التعذيب الخاصة بسى.. ويدفع زميلا أخسر له.. الذى كاد أن يتنصل من هذه المهمة لولا نظرات الوعيد من أحد رؤسائه.

« وكم كتاباً ألفه الأستاذ صلاح عيسى فى السجن؟

.. من الكتب التى ألفتها بشكل مباشر فى السجن مجموعة قصصية صدرت بعنوان «بيان مشترك».. وقد نشرت فى العديد من المجلات الأدبية فور خروجى من السجن.. ورواية أخرى بعنوان «مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا» وطبعت فى بيروت عام ١٩٧٩.. ويعاد طبعتها الآن..

هذه الكتب تم تأليفها مباشرة داخل المعتقل.. بجانب ذلك هناك فصول من ذكرياتى داخل السجن نشرت فى بعض الكتب مثل كتاب «تباريح جريح» وبعضها نشرت فى الصحف والمجلات ولم يتم تجميعها لاصدارها فى كتاب أيضا. وفكرة كتاب «حكايات من دفتر الوطن» نشأت وتبلورت داخل السجن.. ولم أستطع تنفيذها هناك لأنه احتاج منى العديد من المراجع.. ولكننى بعد الخروج انتهيت منه وهو الآن موجود بالأسواق.. وعلى فكرة أقدر أقول لك أنا لا أستطيع أن أحصر كل الأفكار والموضوعات التى نبتت فى ذهنى فى هذه الفترات.. ولكن عموما لقد كانت فترة السجن فترة ثرية.. ومهمة.. خاصة لمن لديهم الاستعداد لإيمانى أن هذه الفترة تفجر بداخلك طاقات كامنة يمكن استغلالها بنجاح، ودليل ذلك على ما أذكر أنه كان أحد العمال مسجوننا معنا فى عام ١٩٦٨ وكان يعمل برادا.. وكان بجوارى فى زنزانته الفنان التشكيلى محمد حسين هجرس.. الذى كان يمارس هوايته الفنية فى فترة اعتقاله، فقوجئنا فى لحظة أن صاحبنا الذى من حلوان يحاول تقليده ويصنع لنا تمثالا من الحديد والحجر، لقد تأثر بالجو الذى كان يعيشه.. وأعرف أيضا من بين الأدباء والشعراء الذين كتبوا فى السجن الشاعر مجدى نجيب.. حيث كان محبوبا معنا عام ١٩٦٦.. لقد سمعنا وعشنا آلاف القصص والحكايات التى صاحبت فترة السجن بالنسبة للفنانين والأدباء وكانت لهم مصدر إلهام وتفجير لطاقاتهم المكبوتة.

« مارأى صلاح عيسى فى سجون مصر الآن.. وهل يفضل أن تكون تبعية السجن لوزارة العدل أم لوزارة الداخلية.. ولماذا؟

.. سبق أن حدثتك عن أوضاع السجون فى مصر من حيث الماكل والمشرب والمعاملة..

أما فيما يتعلق بالنصف الثاني من السؤال.. فأنا على ما أذكر أن السجن في فترة من فترات العهد الملكي كان يتبع وزارة الحربية وكان مرتبطا مثلا بشخصية اللواء محمد حيدر باشا.. فإذا أصبح وزيرا للحربية أصبح السجن تابعا لوزارته.. وإذا أصبح وزيرا للداخلية أصبح تابعا له.. وهكذا من منطلق أن الملك فاروق كان يريد تشغيل المساجين في جمع المحاصيل واستصلاح الأراضي.. وكانت هذه مهمة حيدر باشا شخصيا..

أما في الوضع الحالي فأنا أقترح أن تكون السجون تابعة لمؤسسة يشترك في إدارتها وزارتي الداخلية والعدل.. وأن يكون عليها رقابة قضائية صارمة تتابع تطبيق لوائحها وفقا للمعاملة الإنسانية.. وخصوصا معاملة المسجون المفكر.. إنني أؤكد لك أنه لا بد من وجود رقابة قضائية مباشرة حتى في إطار القانون القائم الآن الذي يعطى للنيابة حق التفتيش على السجون.. وفي هذه الحالة يمكن اكتشاف المخالفات التي قد لا تتعلق بالمسجون نفسه.. ولكن بالأوضاع داخل السجن عموما من حيث السرقة والاختلاس وأشياء أخرى من هذا القبيل، خاصة وأن السجون تتعامل مع متعهدين وهيئات أخرى لها مصالحها أيضا بالنسبة للمسجون الذي يعتبر أمانة لدى الدولة وأن إساءة معاملته من الممكن أن يسبب للدولة نفسها.

*** وماذا تفعل لو كنت مأمورا للسجن فترة اعتقال مفكرين ومنهم صلاح**

عيسى؟..

- بأمانة.. كنت سوف أفرج عن صلاح عيسى من السجن فوراً.. وغير ذلك وإيماننا منى بأن الفلسفة العقابية من وراء السجن هي إصلاح السجين.. من المؤكد كنت سوف أقوم بمهمتي في حدود هذا التصور.. حتى يخرج مواطننا صالحا وليس الثار مما ارتكبه.. لاعتقادي أن الانسان دائما يخطيء ودائما في حاجة إلى من يتبناه للخطأ.. لذلك أرى أن الفلسفة العقابية لا بد وأن تقوم على محاولة إصلاح السجين وإعادته إلى المجتمع نافعا وليس ناقما.. فلو كنت مأمورا للسجن كنت أفرجت عن نفسي وطبقت هذه السياسة على ٩٠٪ من المساجين إلا النسبة القليلة التي يستعصى عليها العلاج.. وهم مانسميهم المرضى النفسيين الذين يحتاجون إلى جانب جهود المأمور.. جهود أطباء النفس..

*** وماذا يكون رد الفعل لدى صلاح عيسى إذا كان في مقام رئيس الحكومة أو وزير الداخلية وعرض عليك أسماء معتقلين مفكرين مطلوب القبض عليهم؟**

— أنا من حيث المبدأ مع مساواة المواطنين جميعاً أمام القانون بشرط أن تسود الديمقراطية وتحقيق مصلحة عامة للوطن.. وبالتالي لا بد أن يتساوى الجميع مفكرين وغيرهم أمام هذا القانون.. في ثلاث حالات إذا كان قانوناً ديمقراطياً.. ويحقق مصلحة عامة.. ومصادر عن إرادة الشعب.. فإذا ارتكب مفكر أو صحفي أو كاتب أو أى إنسان خطأ يعاقب عليه القانون بهذه المواصفات بما يعنى وجود مخالفة تمس الصالح العام وفقاً للقانون الذى ارتضيناه جميعاً.. من هنا تكون الفلسفة العقابية قائمة على ردع الذين يرتكبون مخالفة ضد الصالح العام وليس ضد الحاكم وحده.. في هذه الحالة لا يكون من سلطاتى أو من صالحي استثناء مفكر أو غير مفكر من القبض عليه والتحقيق معه وفقاً لهذا القانون.. لكننى في ضوء ملاحظاتى العامة لما يجرى داخل المجتمع المصرى لا أعتقد أن المفكر يرتكب مثل هذه المخالفات التى تمس سيادة الصالح العام.. فستكون القضية في واقع الأمر مجرد مخالفة في الرأى.. وفي هذه الحالة لا بد وأنا في منصب رئيس الوزراء أو وزير الداخلية أن أستدعى هؤلاء المفكرين وأناقشهم.. لاعتقادى أن المفكرين هم الذين يقدمون عصارة أفكارهم لخدمة المجتمع..

وحتى في حالة ارتكاب نوع من هذه المخالفات.. فهى في اعتقادى تتم عفويا وبدون قصد.. وعلى هذا الأساس تدور مناقشاتنا مادام هدفنا هو الصالح العام.. إما أن يقنعنى أو أقنعه.. وحتى إذا اختلفنا وتمسك كلانا برأيه فلا يجب أن أعتقله.. بل أتركه لأننى على ثقة من أن المفكر ليس لديه في الحياة سوى رأيه وقلمه لا خطر على المجتمع منه.. ولا أقدم على خطوة الاعتقال إلا إذا تحول المفكر إلى إرهابى بمعنى أن يستبدل القلم بالسلاح.. ونادراً ما يحدث ذلك.. وحتى في هذه الحالة سوف أوافق على القبض عليه ومحاكمته وفقاً للقانون الذى سبق وأن تحدثت معك عنه منذ لحظات والذى لا يفرق بين مفكر وغيره من أفراد المجتمع..

*** في اعتقادك.. ماذا يرتبط أمر اعتقال المفكر بتوقيع رئيس الدولة؟..**

.. لأنه قرار سيادى.. يرتبط بوجود أعلى سلطة في الدولة ولكنه يفوض فيه وزير الداخلية، وعادة ما يبادر رئيس الدولة بإصدار هذه الأوامر لأن المفكر له شعبيته

وفكره وتلاميذه، وخوفاً من إساءة استخدام السلطة ضده.. فهو يبادر بمتابعة أمر اعتقاله بنفسه ويحسب حساباً بدقّة شديدة حتى لا يؤدي هذا الاعتقال إلى نتائج عكسية.. وهذا ما حدث في بعض الحالات.. لأن قرار الاعتقال.. هو في حد ذاته قرار مصادرة حرية الآخرين بدون سند قانوني.. أما إذا كان هناك سند قانوني فلا يلجأ الحاكم إلى الاعتقال بل يترك الأمر للنياية والمحاكم.. فإذا رأّت جريمة فلا بد من معاقبته..

ومن هنا يظل الحاكم محتفظاً بحقه في هذا الاعتقال.. من أجل تقييد حرية من يراه خطراً عليه وعلى خطه وعمله في مرحلة ما..

وكثيراً ما يخطئ الحاكم في استخدام هذا الحق.. وتقدر تقول إن ذلك لا يحدث دائماً إلا في ظل أنظمة الحكم الدكتاتورية.. حيث هناك شبه إرادة على سلب حرية الآخرين الذين يقفون في صفوف معارضة الحاكم.. أما في حالة سيادة الديمقراطية.. فأنا أعتقد أن احتفاظ الحاكم بحق اعتقال المفكر يكون أفضل من احتفاظ غيره به.. وذلك لأنني أرى أن الحاكم في هذه الحالة هو أقدر الناس على تقدير قيمة المفكرين لاتساع أفقه وخبرته..

الحكاية الثامنة يرويها جمال بدوي:

دخلت المعتقل.. وخرجت منه أحترم وأقدس حرية السراى

كل الذين قابلتهم وتحدثت معهم في هذه السلسلة من الحوارات أصيبوا بالدهشة حين علموا بأن أستاذنا الأديب والصحفى والفكر جمال بدوي قد تعرض لتجربة السجن والاعتقال في بداية حياته العملية.. وهو لا يزال طالبا بالسنة الخامسة الثانوية.. وأن هذه التجربة المبكرة في حياته كانت الدافع الاساسى نحو دخوله عالم الصحافة والتمسك بمبدأ حرية الراى.. رغم أنه كان في هذه السن المبكرة لا يزال يبحث عن ذاته.. ويتحسس البداية الذى سرعان ما وجدها في أفكار ومبادئ الإخوان المسلمين.. للدرجة التى جعلته ينخرط في فكر هذه الجماعة ويصبح وهو لا يزال طالبا في هذه السن المبكرة قائدا مهما داخل هذه الجماعة وفكرها.

كانت البداية وكما قال لى في عام ١٩٥٤ حين القوا القبض عليه.. ولم يكن سنه في هذه الحقبة المبكرة يتعدى السادسة عشرة.. ولأول مرة يدخل السجن.. وقدم للمحاكمة آنذاك مع من قبض عليهم من زملائه.. واصغر سنه.. ولظروف اجتماعية أخرى سوف نعرفها حين ندير شريط تسجيل الحوار.. قرروا الإفراج عنه، ومع ذلك مكث في السجن أكثر من سنتين.. ولم تقبل الحكومة تنفيذ حكم القضاء بالإفراج عنه.

ومرة ثانية دخل المعتقل خطأ.. ومكث به ساعة واحدة.. ومن بعدها أفرجوا عنه.. واعتذروا له.. ورغم قصر هذه الفترة التى قضاها هناك إلا أنه أصيب بحالة من الهياج والإحباط.. أكثر مما أصيب في حالة دخوله السجن في المرة الأولى.. فقد القوا القبض عليه عام ١٩٦٥ ضمن هوجة القبض على رجال الإخوان المسلمين آنذاك.. رغم أنه كان في تلك الفترة صحفيا كبيرا.. قريبا جدا من نظام عبد الناصر في تلك الفترة.. فقد

تصادف قدومه من مدينة أسوان حيث احتفالات السد العالي، الذى كان يتابعها صحفياً هناك.

وعلى باب أخبار اليوم انتظروه.. وأبلغه أحد الزملاء أن أحد الضباط يسأل عنه.. وما هى إلا لحظات حتى كان فى منزله كى يأخذ الشنطة التى أتى بها منذ ساعات من أسوان.. ولحظتها كانت القسوة تطل برأسها.. حين رأى طفلة الصغيرة تقف بباب المنزل.. وهم يأخذونه إلى سيارة البوليس.. وقتها لم يجد الكلمات التى يعبر بها عن هذه الرحلة المفاجئة، فتعلل بعودته إلى رحلة صحفية أخرى تم تكليفه بها وسوف تستغرق أياماً وربما شهوراً.

وبعد أن حبسوه مع آخرين لمدة ساعة واحدة.. جاء من يستدعيه إلى مكتب المسئول عن البوليس فى تلك الفترة.. الضابط حسن أبو باشا الذى اعتذر له عن هذا الخطأ.

هذه مجرد بدايات حاولت التقاطها من صوت شريط التسجيل.. كى تكون مدخلا مثيراً للحكاية جمال بدوى كمفكر وصحفى وأديب فى عالم السجن والمعقلات.

أما البداية الفعلية للقائنا عبر هذه الصفحات.. بين كاتب هذه السطور وبين المفكر والأديب والصحفى ورئيس تحرير جريدة الوفد أستاذنا جمال بدوى، عبر جهاز التسجيل ولقطات المصور.. فقد مر بالعديد من الظروف التى فرضت علينا تأجيل بداية الحوار أكثر من مرة.. ومع الإصرار على إتمام هذه الرحلة.. فضلت الرحيل مبكراً حيث مكتب الأستاذ جمال بدوى الذى يقع بالدور الأرضى بجريدة الوفد التى احتلت الآن بالمشاركة مع الحزب فيلا الشريمى باشا.. أمام مبنى كلية دار العلوم القديمة بالمنيرة.. وفى الموعد المحدد.. نأدى على كل من حوله بضرورة إغلاق المكتب.. وقطع كل الاتصالات التليفونية حتى إشعار آخر.

وهكذا.. وعلى مدى أكثر من ساعة ونصف بدأت تشغيل شريط التسجيل.. وكان هذا الحوار.

*** الأستاذ جمال بدوى.. نريد أن نعرف كم مرة دخلت فيها السجن أو المعتقل؟**

- تقدر تقول في البداية إنها سلسلة.. والعبرة ليست بعدد المرات.. ولكنها مرتبطة بما اصطلح على تسميته «البلاك ليست» أو القائمة السوداء.. ووفقا لهذه القائمة.. فالإنسان معرض للاعتقال في أى لحظة.. ولقد كنت في شبابه ضمن هذه القائمة.. والسبب اننى كنت منتما للإخوان المسلمين.. وتقدر تقول جاء هذا الانتماء في المرحلة الثانية أيام المرحوم حسن الهضيبى.. وليس أيام المرحوم حسن البنا.. وكان عمرى وقتها ١٦ عاما.. ولقد استمر وضعنا في الإخوان المسلمين وخلال السنتين الأولى من قيام الثورة يسير في طريقه السليم.. وعلى وفاق مع رجال الثورة.

إلى أن حدث الصدام في عام ١٩٥٤.. حين تم حل الإخوان لأول مرة في يناير من نفس العام.. وتم اعتقالى في هذه الفترة حين كنت وقتها طالبا بالمدرسة الثانوية بمدينة طنطا.. ولم يستمر هذا الاعتقال سوى أيام أما حينما وقع حادث المنشية جاء دورى في الاعتقال الثانى.. مع موجة الاعتقالات الكبيرة التى قام بها رجال الثورة ردا على هذا الحادث.. وبالفعل اعتقلت بدون جريمة وسجنت أيامها بالسجن الحربى بالقاهرة.. ثم رجعت مدينة طنطا مرة أخرى لاستكمال التحقيقات.. وبعدها قدمت للمحاكمة أمام محكمة الشعب الدائرة الثانية.. التى حكمت ببراءتى.. ورغم ذلك مررت على العديد من السجون مثل سجن مصر والقلعة والسجن الحربى حتى أفرج عنى في يونيو عام ١٩٥٦.

لقد مكثت في السجن في هذه الفترة عامين.. رغم قرار الإفراج والسبب يرجع إلى اعتقال البوليس لتنظيم من شباب الإخوان المسلمين يجمع تبرعات لأسر المسجونين.. الأمر الذى جعل عبد الناصر يرفض قرار الإفراج.. ثم اعتقلت مرة أخرى وأنا أعمل صحفيا بأخبار اليوم عام ١٩٦٥ أيضا بتهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين.. رغم تغير الظروف.. واقترابى من السلطة آنذاك حيث كنت أيامها قادمة من رحلة صحفية من أسوان لتفطية احتفالات السد العالى، ولكننى فوجئت بالبوليس ينتظرنى على باب أخبار اليوم وتم اعتقالى بالفعل.. ولهذه المرة الأخيرة قصة أغرب من الخيال دعنى أحكيها لك.

فبعد وصولى إلى مبنى المباحث العامة.. وبعد لقائى بزملاء المعتقل.. وفور وضع شنطة الملابس التى أتيت بها إلى هنا.. استدعيت فوراً.. ومشيت وراء الشرطى الذى

جاءنى، ففوجئت بأننى أمام غرفة مغلقة مكتوب عليها المدير العام.. فدخلت الغرفة ووجدت بداخلها شخصا وقورا فى غاية الاحترام.. طلب منى أن أجلس.. ولم أصدق.. وأصابنى الخوف.. فأصر على أن أجلس أمامه.. وبدأب شديد فوجئت به يقول لى: إننا فى غاية الاسف لاعتقالك.. ولم أصدق حديثه.. فكيف يأتون برجل اعتقلوه منذ لحظات.. كى يعتذر له مدير عام المباحث.

المهم.. مرت دقائق ولا يزال رجل البوليس الوقور يكرر اعتذاره هذا الرجل كان هو اللواء حسن أبو باشا.. ولحسن استقباله لى داخل المكتب فتحت معه حوارا ناقشت من خلاله الامى الذى سببها هذا الاعتقال الأخير، وقتها اختلطت داخل نفسى مشاعر متضاربة بين الفرح والحزن والضيق.. كما قلت لك إن السبب يرجع إلى أننى وقتها كنت صحفيا أعمل بقسم التحقيقات بأخبار اليوم وكنت وقتها راجعا من رحلة صحفية من أسوان ومتابعة احتفالات الثورة بالسد العالى.. لقد وصلت القاهرة فى ذلك الوقت الساعة التاسعة صباحا.. وهناك فى أسوان أحسست بمشاعر الضيق والحزن الذى خيم على مدينة أسوان فى ذلك الوقت لاشتداد تيارات الاعتقال بها خاصة اعتقال رجال الإخوان المسلمين.. وسط مشاعر فرح افتتاح السد العالى.. لقد عشت لحظات فى منتهى التناقض.

فى هذه الأثناء وعندما رجعت من أسوان كنت أشعر بالخوف لشيء لا أعلمه.. لقد توجهت من محطة الجيزة إلى منزلى فى التاسعة صباحا.. وفور وصولى وضعت شنطة ملابسى ثم اتجهت إلى الجريدة كى أكتب الموضوع الذى كنت أتابعه هناك.. ولكننى فى منزلى شاهدت أيضا الخوف يملأ الوجوه.. والرعب يسيطر عليهم.. ومما يدل على ذلك أن أختى الكبيرة جاءت من البلد.. وتعجبت من سرعة نزولى من المنزل فى هذا الوقت العصيب من وجهة نظرها.. المهم كما قلت لك توجهت إلى الأخبار فى هذه الساعة من الصباح.. وفور دخولى إلى صالة التحرير.. وبعد مرور أكثر من نصف ساعة فوجئت بزميل الراحل الأستاذ إبراهيم بونس ينادى على من أول صالة التحرير بأن هناك ضابطا واثنين من المخبرين يسألون عنى.. ويطلبون مقابلتى.

وتتعجب حين أقول لك إننى وقبل وصولهم كنت أتحدث عن موضوع الاعتقالات ومنفعل به غاية الانفعال.. وربما يرجع ذلك إلى الخوف الذى لا يزال مسيطرا على

نفسى حتى هذه اللحظة.. المهم طلبوا من الراحل إبراهيم يونس أن يصادينى بصوت خافت.. وقد كان.. حيث اصطحبوننى إلى سيارة البوليس التى كانت تقف بباب أخبار اليوم القديمة.. وبدخلها فوجئت بالعديد من المعتقلين من الإخوان.. وتعرفت على بعضهم كزملاء قدامى.. وفور دخولى إلى سيارة البوليس سألونى عن شنطة ملابسى.. وعندما عرفوا أننى تركتها منذ ساعة فى منزل استأذنوا الضابط أن يقود بالسيارة على المنزل لإحضارها.

وفعلا رجعنا العجوزة حيث أعيش مع أسرتى وواجهت موقفا حرجا جدا تمثل فى البحث عن حجة أقولها لأهل ودون أن يعرفوا الوجهة الحقيقية لى.. عندئذ ادعيت أننى ذاهب فى رحلة صحفية جديدة إلى غزة.. وقد اخترت هذه المدينة بالذات لبعدها اقتناعا منى أننى لن أسود من هذا الاعتقال إلا بعد شهور طويلة وربما سنوات.. ووسط دهشتهم من هذا التصرف أخذت الشنطة ونزلت إلى السيارة من جديد.. ومما جعلنى وقتها أشعر بألم نفسى شديد وضيق منظر شاهدته على باب العمارة وأنا أركب السيارة.. طفلى الصغيرة التى كان عمرها فى ذلك الوقت خمس سنوات، تنظر إلى فى تساؤل غريب ولقد مكثت أنظر إليها فترة طويلة.. والسبب أن الضابط قد تركنا داخل السيارة واستأذن بعض الوقت للسؤال عن سمسار عقارات يبحث له عن شقة.

فهل تتصور إنسانا يمر بهذا التناقض الغريب.. معتقل ينظر إلى طفلة الصغيرة التى تحاول أن تتساءل عن مصيره.. فى الوقت الذى يبحث فيه الضابط المسئول عن الاعتقال عن سمسار وشقة للإيجار.. مما ألمنى بشدة أن طفلى الصغيرة «سمية» وهى الآن متزوجة ولها أولاد أخذت تنظر إلى فى دهشة وتساؤل.. ولا تعرف أين أنا ذاهب الآن.

أما الأمر الثانى الذى أثر فى نفسى أكثر.. أن ضابط الشرطة المصاحب لنا.. كان يقف أمام العديد من المنازل فى مختلف أحياء القاهرة وينزل من السيارة كى يسأل عن اسم أحد الأشخاص من أجل اعتقاله.. والمفاجأة أنه كثيرا ما كان يسمع عبارة ده مات من زمان أو ده هاجر خارج مصر.. هذه المشاهد كلها قد نقلتها بانفعال شديد للواء حسن أبو باشا أثناء لقائى به فى مكتبه لحظة الاعتذار الذى ذكرته لك منذ قليل.. وركزت على شخصيتى كصحفى باعتبار أن الصحفى لا يجب اعتقاله بمثل هذه المهانة.. أضف إلى ذلك حكاية المعتقلين الموتى أو المهاجرين الذين اكتشفهم الضابط لحظة السؤال عنهم..

والحقيقة أن الرجل قد امتص غضبي وقتها.. وشعرت باستجابة لما كنت أحكيه.
* طيب.. نقدر نقول كم من الوقت مكث الأستاذ جمال بدوي في السجن
خلال هذا الاعتقال الأخير؟

- ساعة واحدة.. والساعة الثانية كانت في مكتب اللواء حسن أبو باشا.. وتعرف
أخطر مشكلة واجهتني بعد قرار الإفراج والاعتذار هو كيف أستعيد شنطة ملابسي
مرة أخرى.. وكنت قد تركتها مع زملائي المعتقلين وبعد هذه الساعة اضطررت
للرجوع إلى مقر الاعتقال في مبنى المباحث.. والتقيت من جديد مع زملائي المعتقلين
وأبلغتهم بقرار الإفراج العجيب.. ثم أخذت الشنطة ورجعت إلى منزلي.. هناك أصابتهم
الدهشة وتوالت الأسئلة.. لكن أطرف شيء واجهني بعد رجوعي إلى منزلي.. أن زملائي
المرحوم إبراهيم يونس والآخر الزميل سيد الجبرتي.. حضرا إلى المنزل في الوقت الذي
رجعت فيه بعد الإفراج.. عارف ليه.. كى يبلغوا زوجتي وأسرتي بقرار الاعتقال.

المرحوم إبراهيم يونس كان يرتدى نظارة سوداء تأثرا منه بهذا الاعتقال.. المهم
عندما دخلا الشقة قمت بمقابلتهما.. وكانت قمة المفاجأة.. وصدقني كان مشهدا هزليا
وامتزج فيه الضحك والبكاء.. لقد جاءا حالا لإبلاغ أسرتي باعتقالي ولكنهما فوجئا
بوجودي بينهما.. ولقد ظنا لأول وهلة أنني نجحت في الهرب من البوليس وجئت
أختبئ في منزلي.. وبهدوء حكيت لهم القصة الغريبة.. قصة امتقالي لمدة ساعة واحدة
ثم الإفراج عني.. وانتهى الموقف بوليعة دسمة.. كانت قد جاءتني من البلد.

* ولو سألت الأستاذ جمال بدوي عن علاقته بالإخوان المسلمين.. ماذا يقول؟

... أرجوك أن تفسر.. ماذا تقصد بالفترة المعنية بالسؤال.. إذا كنت تقصد فترة
الخمسينات فأنا أقول لك إنها كانت فترة تربية.. حيث كنت وقتها عجيبة تتشكل..
وبالفعل تربيت في أحضان الإخوان تربية دينية أمينة جدا.. لقد كانت مدرسة تربية
من أعظم مدارس التربية على المستوى الديني والوطني.. وكل المستويات.. وقد استفدت
منها جدا.. ووقتها كنت عضوا مسئولوا وعضوا نشطا له تأثير في جماعة الإخوان
والدليل أنني اعتقلت وقدمت للمحاكمة.. والاعتقال في هذه الفترة بالنسبة لي لم يكن
جزافا.. بل كان بسبب وجودي في التنظيم السري للجماعة.. وعندما قدمت للمحاكمة..

وكما سبق أن قلت لك.. أخذت هيئة المحكمة بعين الرأفة حيث كنت وقتها تلميذا ومتزوجا أيضا ولى أولاد.. ورغم أنني وقتها كنت رئيس المجموعة داخل التنظيم.

والعجيب أن زملائي ممن كنت رأسهم داخل الخلية حكم عليهم بالسجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ وكانوا جميعا تلاميذ في مثل سننى.. فى مدرسة طنطا الثانوية.. ورغم حكم البراءة مكثت سنتين داخل سجون مصر إلى أن أفرج عنى.

* ما هو تأثير تجربة عقوبة السجن على الفكر المصرى بشكل عام؟

— أود أن أفرق لك أولا بين نوعين.. السجن والاعتقال.. لأننى لم أسجن.. بل تم اعتقالى.. والفرق بين النوعين شديد وكثير، فالإنسان الذى يعتقل تقيد حريته.. ويشعر أنه لا يعرف مصيره.. من حيث متى سيخرج أو يتم التحقيق معه؟.. بعكس المسجون.. فله حقوق.. ويعرف المدة التى سيقضيها خلف الجدران.. ولديه إحساس بالذنب.. هذا الإحساس ارتبط فى داخله بتنفيذ العقوبة.. وأبدا لا يفقد الأمل فى الإفراج عنه فى أى لحظة أما المعتقل.. فلا يدري مصيره.. ولا متى سيفرج عنه إنه إنسان يعيش حتى بلا أمل داخل جدران السجن.

الحاجة الثانية.. أن المعتقل ليس له قساون.. بعكس المسجون العادى الذى تحكمه داخل السجن لوائح.. وله حقوق وعليه واجبات، والدليل أننا كنا ممنوعين من القراءة أو الكتابة ولا نجرؤ على ذلك إطلاقا.. ومن يضبط لديه أى مكتوب يعاقب بشدة.. ودعنى أحكى لك حكاية بهذه المناسبة وهى تصور ارتباطى بصحافة الصحف فى هذه السن المبكرة.. رغم أننى لم أكن صحفيا.. وإنما كما ذكرت لك سابقا كنت طالبا بالثانوى آنذاك.. المهم لقد دفعنى حبى للقراءة أن أبحث عن أى شىء مكتوب حتى ولو على الجدران، للدرجة التى جعلتنى أجمع قصاصات من الصحف.. كانوا يبيعون لنا فيها أقراص الطعمية داخل المعتقل.

وأنا أذكر أننى جمعت كمية كبيرة من هذه القصاصات الملوثة بالزيت والتراب.. وكنت أجمعها فيما يشبه بجريدة صغيرة.. ونظلم نتناوبها فى القراءة ليلا حتى لا يرانا أحد المسئولين عن السجن.. هذه القصاصات من ورق الصحف كانت تمثل لنا كنز المعرفة.. وقد تتعجب أكثر حين أقول لك إننى عرفت بموت الفنان أنور وجدى من تجميع هذه القصاصات.. فقد قرأت سطورا مبتورة لمقال كتبه المرحوم استاذنا على

أمين.. ينعى فيه الغدان الراحل.. وما زالت كلماته أحفظها حتى هذه اللحظة.. حيث كتب يقول: عاش شبابه كى يشتري المجد.. ثم قال البائع لا يكفى.. ثم عاد فلم يجد البائع ولم يجد الدكان.

وقبل أن أنسى أقول لك.. هذه الواقعة حدثت لى فى سجن مصر الذى كان يسمى آنذاك «قره ميدان».. ولا تتخيل كيف كنا نقرأ هذه الجريدة الصغيرة والبسيطة.. فرغم ما بها من زيت ورائحة الطعمية وملوثة بالأتربة إلا أننا كنا ننتظر قدوم الليل ونحاول قراءتها حتى تحت البطانية خوفا من بطش رجال السجن.

إذن المعتقل خطورته أنه لا يحكمه قانون.. ومن حق السلطة أن تفعل بك ما تشاء.. تعذبك وتهين كرامتك وأشياء أخرى كثيرة.. وكما من مرات عديدة تعرضت فيها أنا شخصيا لتعذيب شديد.. خاصة فى فترة التحقيقات.. عندما كنت أذهب إلى السجن الحربى.. فكان لا بد أن تذوق فيه ألوانا من التعذيب.. لأن من تقاليد هذا السجن العريق هو التعذيب البدنى الشديد والقاسى.. ولقد وضعت الثورة هذا السجن من أجل الإبادة وليس من أجل التعذيب.. فكم من المصريين الشرفاء ماتوا ودفنوا من جراء هذا التعذيب.. والسجين منا حين يدخل السجن الحربى عليه أن يتوقع تعذيبا شديدا سواء كان بريئا أو مدانا.

المهم.. لا بد وأن يأخذ جرعة شديدة من هذا الهول.. لقد كانت الإقامة فى السجن الحربى شيئا لا يصدقه عقل حيث كانت اللغة الوحيدة المعترف بها بداخله هى لغة الكرباج.. وأنا مكثت بداخل هذا السجن فترتين وصلتا إلى أربعة أشهر منذ حادث المنشية عام ١٩٥٤.. وحتى يناير عام ١٩٥٥ ومن بعده انتقلنا إلى سجن القلعة الذى كان بالنسبة للسجن الحربى معناه أنك الآن مهيا للخروج وللإفراج عنك فى أى لحظة.. فقد تحول سجن القلعة من سجن الجزرة إلى سجن الإعداد والانتظار للخارجين والمفرج عنهم.. وسجن الإعداد وغسيل الملح.. وبداخله عشنا لحظات طيبة فقد كان كل اثنين ينامان على سرير.. وأكل نظيف.. وسلسلة من المحاضرات والمحاضرين العظماء.. وكانوا يحدثوننا عن أفكار جديدة ومشاريع وطنية كانت تنفذها حكومة الثورة.. إلى جانب درس دينى كان يلقيه علينا أحد مشايخ الأزهر.. يعنى تقدر تقول كانت فترة إعداد ومصالحة.. وكنا على وشك الخروج لولا أنهم ضبطوا تنظيمنا من الإخوان

المسلمين من الشيباب يجمع تبرعات لصالح أسر المعتقلين.. وكان هذا التنظيم يسمى تنظيم مارس.. وهو تنظيم مشهور جدا.

ولما علم عبد الناصر بأمر القبض على التنظيم الجديد رفض الإفراج عنا.. وانتقلنا من سجن القلعة إلى سجن مصر.. حيث قضيت بقية مدة العقوبة وهي سنتان.. ثم عدت إلى سجن القلعة مرة ثانية حين قرروا الإفراج عنى لآخر مرة.. ومكثت به أسبوعين.. وأحب أن أؤكد لك أن سجن مصر لم يكن به تعذيب.. كنا أيامها موجودين بعنبر «ج» المطل على ميدان السيدة عائشة.. هذا السجن تم هدمه الآن وتحول إلى حدائق عامة.. وطوال فترة سجن مصر.. توالى علينا المحاضرات وتعرفت من خلالها على أساتذة تركوا أثرا طيبا في نفسى، وأذكر منهم الأستاذ الدكتور توفيق الشاوى.. والدكتور محمود أبو السعود.. كنا وقتها نسمع محاضرات متنوعة في الأدب والدين.

* ما هو تأثير هذه التجربة على المفكر والكاتب الأستاذ جمال بنوى؟

- شوف.. أنا وقتها شعرت أنني ولا بد وأن أعمل في المجال العام كرسالة لا بد أن أؤديها بأمانة.. إنما إيه بالضبط؟ لم تكن الرؤية واضحة.. وفي تلك الفترة قرأت وأنا ما زلت على أبواب السنة النهائية من القسم الثانوية في إحدى المجلات عن وجود قسم جديد بكلية الآداب.. هو قسم الصحافة، دوره إيه وماذا يقدم؟ لم أكن أعرف وقتها.. وكل ما عرفته هو ارتباطه بالدكتور عبد اللطيف حمزة.. وبدأت أجمع معلومات وأشغل ذهنى بهذا القسم الجديد وأنا ما زلت مسجونا بسجن مصر.. إلى جانب التجربة نفسها وإحساسى آنذاك بقيمة الحرية وأثرها على مصير الإنسان وعلى حياته وفكره.. وظلت القضية تشغلنى بشدة وفرضت نفسها حتى على إحساسى بالعدل.. لأننى عرفت وقتها أن الحرية قرينة العدل.. والاعتقال في هذا السن الميكرو جعل من هذه الحرية لدى نفسى قيمة ومبدأ لا مساومة عليه.

وهذا السبب هو الذى جعلنى أغير فكرى وانتقل به إلى الفكر الليبرالى وأحيد عن فكر الإخوان المسلمين.. ولعلنى أتحدث معك عن هذا التحول وربما لأول مرة.. لأننى بعد الخروج من المعتقل ويمكن قبل أن أخرج بدأت أفكر في مسألة الحريات العامة.. تلك القضية التى لم تكن واضحة في أذهاننا وقت أن كنا في مدرسة الإخوان.. هذه القيمة الجديدة أضيفت إلى باقى القيم العظيمة التى تعلمناها في مدرسة الإخوان كالأمانة

والصدق والوطنية.. ويمكن أن أقولك: إن قيمة الحرية في ذلك الوقت لم تكن مطروحة على الساحة السياسية آنذاك.. وفي داخل المعتقل عرفت بها وأحسست بقيمتها.. وعقدت العزم على أن أناضل من أجلها.. لإيماني بأن تلك الحرية أثمن شيء في وجود الإنسان.. وقد أكد هذه المعاني الجديدة في ذهني إقبال على القراءة والاطلاع على الثقافات الأجنبية.. وأيضا تأثير تلك المحاضرات المهمة التي كانت تلقي علينا في تلك الفترة.

وخرجت من ذلك كله بنتيجة مهمة جدا وهي أنه لا بد من وجود ضمانات واضحة لصيانة الحريات العامة.. وأنه إذا كان هناك أى كلام عن نظام حكم في الإسلام.. فلا بد أن يأتى في المقدمة أهمية صيانة الحرية.. والاعتزاز بالحريات العامة.. من هنا تجدى أرفض أن يأتى أى حاكم أو خليفة مسلم أو أى نظام ينتسب إلى الإسلام ويضحى بالحرية من أجل أى هدف آخر.. فأنا بصراحة حينما تعمقت في قراءة نظام الحكم في الإسلام.. وجدته نظاما من الناحية النظرية لا يضاويه أى نظام حكم في العالم.. ولكن المشكلة كانت في التطبيق.. فكما قدم لنا التاريخ نماذج طيبة من الحكم في الأيام الأولى للإسلام قدم لنا أيضا نماذج سيئة جدا لحكام يحكمون باسم الإسلام.. لا يعترفون بالحريات العامة ويدوسونها بأقدامهم.. رغم أن الإسلام في جوهره يقوم على احترام هذه الحريات.. إذن كانت هذه نقطة التحول الأساسية في حياتى الفكرية.. ولا أستطيع أن أقول لك التحول من فكر الإخوان المسلمين، ولكن التحول إلى فكر أكثر إيمانا بالحرية.. وعلى وجه الخصوص هذا التحول قد تم وأنا في سجن مصر.. والسبب يرجع إلى أننى وجدت مصادفة بين مجموعة من الزملاء المثقفين داخل هذه الجدران العالية.. وهم من الإخوان المسلمين الذين كانوا أكثر منى استنارة.

هذه المجموعة كانت من شباب جامعة القاهرة.. وعلى ما أذكر منهم كان الدكتور ماهر حتوت من شباب كلية الطب والاستاذ مدحت أبو الفضل من شباب كلية الحقوق وآخرين.. هؤلاء قد تأثرت بهم.. وهم ما زالوا من المتمسكين بالفكر الإسلامى.. ولا أستطيع أن أقول فكر الإخوان المسلمين.. وما حدث أن هذه المجموعة قد فتحت أمامى عالما جديدا.. ومحاضرات الدكتور الشاوى أيضا نقلتني إلى عالم آخر تحدث فيه عن الديمقراطية والحريات وكانت وقتها عبارات وشعارات جديدة.

كل ذلك بجانب قراءة المتعددة.. وقد صاحب هذا الجو الجديد إثارة آلاف الأسئلة

داخل نفسي، وكلها كانت تدور حول مفهوم الحريات وأهميتها بالنسبة لحياة الإنسان.. ولماذا نحن هنا داخل المعتقل؟ ومن أجل من نناضل ونفكر؟

تلك كانت البداية التي تبلورت في الكفاح ضد ديكتاتورية الحاكم الفرد الذي تمثل في وجود جمال لعبد الناصر وغياب الحرية في ظل هذه الديكتاتورية.

*** وكم كتابا ألفتهموه داخل السجن.. أو بعد الخروج منه تأثرا بهذه التجربة؟**

.. أنا لم أكتب عن هذه التجربة في كتب صدرت لي.. ولكنني على ما أذكر ألفت كتابا واحدا عن هذه التجربة اسمه «شهداء وضحايا من تاريخ الإسلام».. إن عنوانه يوحي بأنني أتحدث عن شهداء المعارك الإسلامية مثل موقعة بدر وخلافه، ولكنني في الحقيقة كنت أقصد شهداء الحرية الذين ضحوا بحياتهم من أجل الفكر والرأي خلال التاريخ الإسلامي كله.

وهذا ما كتبتة فعلا.. إنهم شهداء الحرية على مر العصور الإسلامية أولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجل الفكر والرأي خلال التاريخ الإسلامي كله.. وهذا ما كتبتة فعلا.. إنهم شهداء الحرية على مر العصور الإسلامية أولئك الذين ضحوا بحياتهم من أجل حرية الفكر من أمثال عبد الله بن المقفع وغيره.

وهؤلاء الذين تعرضوا للاضطهاد أيضا تجد في الكتاب فصولا عن التعذيب والمهانة التي يلاقونها المفكر من أجل دفاعه عن الحرية.. لقد كان همي من خلال هذا الكتاب إبراز كفاح هؤلاء المفكرين من أجل إعلاء كلمة الحرية.. الكتاب صدر عام ١٩٨٤.. وكنت قد نشرته من قبل مسلسلا في جريدة الاتحاد في دولة أبو ظبي حيث كنت هناك في خلال فترة من فترات حياتي الصحفية.. وتقدر تقول أيضا إن كل مقالاتي التي أكتبها الآن ومازلت في جريدة الوفد التي أراس تحريرها تعبر عن هذا المفهوم.. وتعتبر تأثرا بتجربة السجن والاعتقال، وهي نوع من الموضوعات التي أكتبها في هذا الإطار المتعلق بالسجن وتأثيره على الحياة الفكرية في مصر الآن وعلى الحريات العامة بشكل مجمل.

تلك القضية التي اكتشفت نفسي موجودا بداخلها بعد تجربة السجن الأخيرة عام ١٩٦٥.. صحيح في هذه الفترة كنت أعمل صحفيا في أخبار اليوم وكنت مهتما بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية.. ولم أكن أقترّب من القضايا السياسية.. ولكنني بعد هذا التاريخ ارتبط وجودي بقضية الحريات وضرورة الكفاح من أجلها.. وهناك كتب

أخرى كتبها تأثرا بهذه التجربة مثل كتاب تاريخ الفكر السياسى فى الإسلام، وهو
جولة فى تاريخ نظم الحكم السياسى فى الإسلام عبر التاريخ.

*** نريد أن نعرف من أستاذنا جمال بدوى رأيه فى عقوبة السجن أو الاعتقال
كوسيلة من وسائل قهر الفكر المعارض؟**

- أنا زى ما قلت لك سابقا.. هناك فرق كبير بين السجن والاعتقال فى مجال العقوبة..
السجن يصدر به حكم قضائى وللمسجون بناء على ذلك حقوق وعليه واجبات..
والإنسان يدخل السجن إذا ارتكب فعلا يخالف القانون الذى يردعه.. ولا جريمة على
عقوبة إلا بنص.. أما الاعتقال فهو إجراء تعسفى تلجأ إليه السلطة من وراء القانون..
ويدخل صاحبه السجن فى أى وقت وفى أى لحظة.. وبالتالي ليست له حقوق.. أما قولك
بأن السجن يمكن أن يتحول إلى إحدى وسائل قهر الفكر وكبت الحريات.. فردى عليه..
شوف.. أقول لك رغم ذلك.. فإننى لا أدعو أبداً وفقاً لحرية الفكر إلى حرية الإلحاد لأن
رأى فيها صريح ولا مناقشة فيه.

أما فيما يتعلق بقضايا الفكر الأخرى.. طبعاً السجن لا يمكن أن يكون وسيلة
لإسكات صوت الحرية.. وأنتى أرفض ذلك تماماً.. خاصة فى مجال حرية الرأى
السياسى.. فإذا كانت الحكومة ديكتاتورية.. حتماً سوف تصطدم بصاحب هذا الرأى..
ويكون مصيره كما تقول أنت السجن لتجنب شر فكره وآرائه.. وتشهر فى وجهه
القانون كسلاح.. مهما كانت التضحيات.. وفى ظل الديمقراطية عادة ما تلجأ الحكومات
إلى القانون داخل المحكمة وليس القانون الخاص بها.. بمعنى أنك إذا كنت مخطئاً فى
رأىك من وجهة نظر الحكومة تحيلك إلى المحكمة وفقاً للقانون من وجهة نظرها.. وربما
يكون للمحكمة وجهة نظر أخرى.

أيضاً بالقانون.. فترى مثلاً أنك غير مذنب.. وبالتالي فلا تدخل السجن.. وهذا فرق
كبير بين الحاليتين.. ولكى نتم مشوارنا الديمقراطى علينا ونحن نضع الدستور أن ننتبه
إلى تنقية مثل هذه القوانين حتى نضمن حرية الرأى وحرية الفكر.. وتأتى النصوص
مسايرة للضمانات مثلما يحدث فى أوروبا مثلاً.. وأعيد وأكرر عليك أن قهر الفكر
والضيق من الحرية يتم بصورة كبيرة فى ظل الحاكم الديكتاتور الذى تضايقه مثلاً أن
تختلف معه.. وفى ظل الأنظمة الديمقراطية تختفى صور القهر الفكرى.. كلما كان هناك

استقرار في الحكم.. وهذه نتيجة حتمية لهذا النوع من الحكم.. حيث يوجد احترام للحريات والحقوق.

ودعني أسألك هل سمعت في يوم من الأيام أن في بريطانيا انقلاباً عسكرياً؟ طبعاً لن يحدث ذلك.. لأنك سوف تفاجأ بالشعب يخرج ويقذف الدبابات بالببيض ويتنصل من هذا الانقلاب ويقاومه.

« هل تعرف الأستاذ جمال بدوي خلال رحلته داخل المعتقل على شخصيات معينة.. أثرت في فكره؟ وما زال على علاقة بها حتى بعد خروجه؟

— آه طبعاً.. لقد ذكرت لك أنني تعرفت على أخي وصديقي الأستاذ مدحت أبو الفضل.. وهو الآن محام كبير.. وكان قد مكث بدولة الكويت سنوات طويلة.. ثم عاد إلى القاهرة.. ومنذ ثلاث سنوات تجددت بيننا الصلات والعلاقات.. ومن هؤلاء كذلك الدكتور توفيق الشاوي كمحاضر وأفكاره عن الحرية والديمقراطية قد أحدثت نقياً في عقلي أخذ يتسع مع الأيام فيما يتعلق بإيماني بما سمعت منه في المعتقل عن الديمقراطية وعظمتها وأهميتها في حياة الشعوب.. ومن غير المفكرين قد تأثرت بالعديد من الذين قابلتهم داخل السجن.. ولي معهم حكايات ومواقف جمعتنا داخل الجدران السوداء منها الطريفة ومنها الحزينة.. وعلى ما أذكر أنه كان لي أحد الأصدقاء الذين كنت أراسهم داخل المجموعة.. وحكم عليه بالسجن عشر سنوات مع التنفيذ وظلت علاقتي به طيبة داخل الجدران السوداء.. وبعد أن أفرج عني وخرجت وتركته حيث قضى بعد خروجي أكثر من ثماني سنوات.

المهم حين علمت بخروجه.. كنت في غاية الشوق لرؤيته وظللت أبحث عن عنوانه.. حتى عثرت عليه.. وعرفت أنه يعمل موظفاً في إحدى محافظات الدلتا.. وعقدت العزم على البحث عنه ولقائه بعد هذه الفترة الطويلة التي استمرت أكثر من عشرين عاماً.. وفعلاً نجحت في الوصول إليه.. ولكنه للأسف اختفى مني ورفض أن يقابلني ولا أعرف حتى هذه اللحظة السبب.. المهم بعدها عرف أخوه بهذه الحكاية وجاء كي يعتذر معللاً السبب بأنه الخوف وأشياء أخرى.

لحظتها أصابني الحزن.. لأنني بالفعل كنت أحب هذا الرجل وأود أن نتقابل من

جديد.. وأقدم له أية خدمة.. لقد كنا أكثر من أخوين حيث كنا زملاء في المدرسة حتى قبل تجربة المعتقل.. ومن المواقف الأخرى التي صادفتني وزملائي في السجن الحربي.. أنه كان معنا أحد الطلبة الذي أصبح الآن من علماء الدين الإسلامي المعدودين وهو الدكتور عبد الودود شلبي الأمين العام لجمع البحوث الإسلامية.

المهم ونحن داخل السجن.. لم يتمكن أحد الضباط من نطق اسمه كما يجب فنأناه بقوله: عبد الود.. ود.. فاستغرقنا في الضحك أوقاتا طويلة.. وكانت النتيجة أننا قد جلدنا جميعا عقابا على الضحك.. ويومها عذبونا أيضا.. لقد كنا نضحك على جهل هذا الضابط.. وأذكر موقفا آخر.. رغم أنه كان محزنا ومؤلما في نفس الوقت.. ولكنني سوف أحكيه لك.. على ما أذكر وكنا أيضا في السجن الحربي.. وكنا من أشق الأمور بداخله دورة المياه.. هذا السجن في الأصل كان به ٢٤٥ زنزانا.. وكانت لا توجد به مياه كافية.. وعدد المعتقلين به أكثر من ٥ آلاف شخص.. وتصور كيف يقضى هؤلاء حاجتهم وسط ندرة المياه.. وندرة المكان أيضا.. أضف إلى ذلك أنك كنت وقتها محروما من النوم.. فقد كانوا يضعون في كل زنزانا لبة قوتها أكثر من ١٠ آلاف وات.

ثم أنك كنت مجبرا على عدم النوم لأنه من المحتمل أن تسمع اسمك في أية لحظة.. المهم نرجع إلى قصة أحد زملائي داخل المعتقل.. هذا الرجل تحامل على نفسه وغامر بدخول دورة المياه في آخر لحظة وقبل طابور التمام كما كانوا يقولون بلغة المعتقل.. وانتهزها فرصة وأخذ حماما بالماء والصابون.. فبعد أن نادى الضابط على كل المسجونين الذين أعلنوا وجودهم بالطابور.. جاء ذكر اسم هذا الرجل المسكين.. ولما لم يجده.. بحثوا عنه أولا في دورة المياه.. ووجدوه بداخلها.. فأخرجوه عاريا والصابون على وجهه وجسده.. ولا تتخيل ما حدث له وهو على هذه الحالة لقد أخذوا يضربونه بكل أنواع العصي والكرباج حتى فقد الوعي ووقع على الأرض وهو ينزف دما مخلوطا بالصابون.

* يمكن لنا أن نخرج من هذا السؤال.. إلى سؤال آخر ربما يرتبط به من قريب أو بعيد.. وهو: نريد من أستاذنا جمال بدوي تقييما لموقف كل من عبد الناصر والسادات من قضية الفكر والمفكرين؟

... سوف هذه القضية يجيب عنها الواقع: وهذا التقييم تحدده لنا الظروف والملابسات التي صاحبت الأحداث التي جرت في كل من العشرين قمتلا.. إذا كانت السجون والمعتقلات عقوبة المفكرين في عهد عبد الناصر يصبح هذا العهد متسما بالظلم ولا بد أن يدمغ.. أما إذا جاء عصر سمح فيه للمفكرين بالقول والفعل والاختلاف.. بقدر كبير من الحرية.. فلا بد أن نشيد بهذا وهذه بالطبع إحدى سمات عصر السادات.. ولكن حين يأتي الرئيس السادات بعد ذلك ويزج بالمفكرين داخل السجون والمعتقلات فلا بد أن ندين هذا الفعل ونرفضه.. إذن المسألة في رأيي ليست مسألة أشخاص.. وإنما المسألة متعلقة أولا وأخيرا بالمواقف.. بمعنى أنه إذا أتاحت هذه القدرة وتمكن الناس من التعبير في حرية وبعيدا عن الخوف.. نرحب بذلك ونسعد، وكلما تم التضيق على الناس في حياتهم وحررياتهم.. أصابنا الحزن والخوف على المصير.. لأن المفكرين هم حملة المشاعل الذين يضيئون الطريق نحو عالم أفضل.. فكلما أتاحت لهم فرص التعبير كلما واصلوا المسير.. والعكس هو الصحيح.

*** ما رأيكم في سجون مصر الآن.. وهل هي بوضعها الحالي تواكب تطور عصر الجريمة؟**

... والله أنا لا أعرف.. لأن صلتى قد انقطعت بها منذ فترة طويلة ولكننى أسمع أنها سيئة جدا ولا تساعد على إصلاح أحوال المسجونين.. بل ربما تفسدهم أكثر.. ومما أكد لدينا هذا الإحساس مشاهدتى لأحد الأفلام الروائية الحديثة.. الذى عبر تعبيرا صادقا عن أحوال السجن في مصر.. ولما سألت عن حقيقة ما رأيته، أكد لى البعض أن الصورة في الحقيقة أسوأ مما رأيته.. وأسمح لى أن أقول لك لا أستطيع رغم ذلك أن أعطيك صورة صادقة ورأيا قاطعا إلا إذا شاهدت ذلك بنفسى.

*** طيب.. ولماذا وأنت صحفى كبير.. لم تفكر في زيارة سجون مصر لتأكيد معرفتك بأحواله؟**

... حرام عليك.. دا شىء كريبه.. وأنا أنكر أننى في يوم من الايام اضطررت أن أمر أمام السجن الحربى في مدينة نصر.. حتى بعد هدمه.. وشعرت بخوف وضيق وألم شديد.. وعلى الفور أسرع من المكان.. ومرة أخرى دعونى لزيارة المتحف الحربى

بالقلعة الذى أقيم مكان السجن.. ولحسن الحظ أو لسوءه الله يعلم..تركوا زنزانتي
على ما هما عليه.. هى الزنزانة الأولى والثانية.. وكنت فى أيام المعتقل مسجوناً فى
الزنزانة الثانية.. ولا تتصور حالتى النفسية.. فقد شعرت بانقباض شديد والم
نفسى.. وقد تحاملت.. حتى انتهت الزيارة إلى غير رجعة.. فلا أستطيع أن أقول لك إننى
من الممكن أن أزور السجن الآن أو حتى أكتب عنها.

وهنا تصور آخر لى فى هذه النقطة.. إننى لا أكتب عن السجن ولكنى أكتب عن
الحريات حتى لا نفيدها مرة أخرى، وندخل على إثر فقدتها السجن، وأحب أن أؤكد لك
أن السجن ليس شراً كله.. وإنما لا بد منه كوسيلة عقابية، ولكنك تقدر تقول لا بد من
نظرة من أجل تطويره.. بعيداً عما كنا نسمع عنه مثلما يحدث فى سجون أوروبا.. والنسب
وكما يقولون تقارب فى شكلها وفى خدماتها فنادق درجة ثانية.. وإلا تحولت بذلك
السجون عن رسالتها.. وفقدت قوتها كوسيلة ردع للمجرمين.. ولا مانع مع ذلك من
مراعاة الحالة النفسية والإنسانية للمسجون.

وهنا لا بد أن نفرق بين سجن المفكر وسجن المجرم.. فلا يتصور أحد مثلاً أن نضع
المفكرين مع غيرهم من القتلة والقوادين فى سجن واحد.. أيضاً لأن المفكر لم يرتكب
جريمة ولم يعاقبه القانون.. إذن لا بد من وجود أساكن خاصة يحجز بها المفكر
المعارض أو المختلف مع الحكومة أو السلطة.. وألا يزوج به مع الحرامية والنشالين.. إن
ذلك فى رأى جريمة أخرى فى حق الحكومة.. لأن من الواجب علينا صيانة حقوق المفكر
وصيانة كرامته.. حتى داخل السجن.

*** لو كان الأستاذ جمال بدوى مأموراً للسجن.. فى فترة اعتقال مفكرين.. ماذا
كان يفعل؟**

- يعنى كنت أحول هذا المعتقل إلى منتدى.. وأحاول الاستفادة من هؤلاء المفكرين فى
إصلاح وتهذيب إخوانهم من المسجونين الآخرين وتثقيفهم.. بعيداً عن شبح التعذيب
الذى اعتبره مرفوضاً تماماً ولا أقبله على المستويين.. مستوى السجن المفكر والسجين
العادى.. وحتى إذا طلبوا منى القيام بهذه المهمة وفقاً للقوانين.. أرفض ذلك..
أو على الأقل أستقيل.. أو أطلب نقلى إلى مكان آخر.

*** وماذا تفعلون لو كنتم رئيسا للحكومة.. أو وزيرا للداخلية وعرض عليكم كشف بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم؟**

- لا.. شوف أقول لك حاجة.. أو لا أنا لا أقبل مطلقا تقييد حرية أى إنسان.. سواء مفكر أو غير مفكر.. فما بالك بالمفكر.. خاصة السياسى منهم.. أرفض على الفور التوقيع على هذا الكشف.. أما بخصوص مسألة الإلحاد فإن موقفى معروف ولا حياء عنه.. لإيمانى أن خلاف المفكرين مع السلطة.. لا يعطى لهم الحق فى أمر اعتقالهم.. بل بالعكس أطلب مقابلتهم ومناقشتهم ولا ألجأ مطلقا إلى الاعتقال لأننى أعتبر من يلجأ إليه كوسيلة إنما هو فى موقف الضعيف.. والحكومة التى تلجأ لمثل هذا الإجراء هى بالتالى حكومة ضعيفة ويبرز ضعفها من فشلها فى الاقتراب من هؤلاء المفكرين والتعامل معهم الفكر بالفكر.

لكن عايز أقول لك حاجة مهمة جدا: إن الفكر إذا اختلط بالسلاح فلا بد وأن أوافق فورا على أمر الاعتقال بمعنى أننى إذا وجدت المفكر يلجأ إلى غير القلم من أجل تحقيق رأيه وأفكاره فلا بد من القضاء عليه فى حينه.. لأن ذلك يسمى إرهابا.. وأنا أشك أن المفكر الحقيقى يلجأ إلى العنف من أجل أن يقول رأيه وينشر فكره.. إن المفكر له مطلق الحرية فى أن يقول ما يشاء دون أن يقترب من منطقة العنف.. بل أكثر من ذلك أن إيمانى بلا حدود فى دور المفكرين فى إبعاد الناس عن التعصب والعنف.. وليس أمامى من وسيلة لعلاج هذا الإرهاب الفكرى.. إلا بالقانون.. حينما يقترب بالعنف.

الحكاية التاسعة.. يرويها مختار السويفى

بسبب لم أعرفه دخلت السجن مظلوماً

.. وتحدد اللقاء.. ومن بعده كان لا بد من الذهاب إلى حيث حدد لنا الكاتب والمفكر والاديب مختار السويفى.. المكان الذى سوف نتقابل فيه.. وخلال جولة داخل شوارع القاهرة استغرقت نصف ساعة.. كنت هناك أقف أمام إحدى ناطحات السحاب المصرية.. أو ما يحلو لنا أن نطلق عليها عمارات الأبراج.. وطبقاً للمعلومات التى دونتها فى ورقة صغيرة كانت هى كل ما أحمله.. مع جهاز التسجيل وكشف بأسئلة الحوار.. وقفت أمام مكتب الاستعلامات داخل العمارة المدونة بالعنوان، والذى أكد لى أن الكاتب الكبير موجود بالفعل هنا.. ولكن فى الدور الثامن والعشرين.. والمطلوب منى أن أستخدم الاسانسير الذى سوف ينقلنا من الأرض إلى السماء.. وقد كان.. ولن أصف بعد ذلك الاحساس الذى انتابنى كلما اقتربت من شقة مختار السويفى.. وبطبيعة الحال لم يكن السبب فيما أحسست به هو الرجل فى حد ذاته أو شقته العامرة.. وإنما وسيلة المواصلات الفوقية التى نقلتني عبر ثمانية وعشرين دوراً.. لقد مكثت أكثر من دقيقة داخل صندوق أنيق.. لا تسمع فيه إلا أصوات الهواء الذى يصنطم مع الآلة الرفاعة لذلك الصندوق العجيب. وقد تكررت نفس الرحلة بنفس الاحساس حين العودة.. لأننا بعد إتمام هذا اللقاء بسلام أخذنى الكاتب الكبير فى جولة سريعة داخل الشقة، فرأيت القاهرة الساحرة تنام فى أحضان أضواء الكهرياء الجميلة. لقد نقلتني شرفة للنزل إلى مسافة عشرات الكيلو مترات.. ولولا زيادة كمية الضباب التى كانت عالقة بالجو آنذاك لرأيت كل معالم القاهرة.. الأهرامات والقلعة.. وبرج القاهرة!! وكل شيء بدون مجهود عضلى أو بصرى.

وبعد هذه المقدمة التى رأيت أنها ربما تكون مدخلاً طيباً لتخفيف وقع كلمات

الحوار عليكم وعلينا.. رأيت أن أحدثكم عن شيء آخر أهم مما ذكرته آنفا.. وهو أنني قد اكتشفت أن هذا أول حوار أجريه عن هذه التجربة.. يتسم بالضحك والسخرية!!..

لقد اكتشفت أيضا أن الكاتب والمفكر مختار السويفى.. يتمتع بروح دعابة من النوع النادر.. هذه الروح هي التي مكنته من تحويل هذه المصيبة التي آتته ليلاً إلى مسرحية هزلية أخذ يضحك منها وعليها.. وتراه كلما حكاها لغيره يستغرق في الضحك.. وحتماً لا بد وأن تشاركه هذه السخرية من خلال ما يحكيه لك من مواقف تتسم بالسلبية المطلقة.. وإن أغالى حين أقول أنني وطوال الخمسة والأربعين دقيقة التي قضيتها مع الأستاذ مختار السويفى أقول له السؤال وهو يجيب عليه.. ضحكت وكانما لم أضحك من قبل.. وربما كانت هذه هي المرة الأولى منذ إجراء هذه السلسلة الطويلة من الحوارات التي أشعر فيها بسرور وسعادة مصدرها الأساسى كان الشعور المتبادل بيننا والذي كان أساسه الحب والضحك.. ولو كانت الكلمات تسمع قبل أن تقرأ.. لدونت لكم هذه الضحكات عبر هذه الأوراق.. وهو ما سجله بالضبط شريط التسجيل الذى صاحبنى في هذه الرحلة، على ارتفاع أكثر من مائة متر عن سطح الأرض!

ولسوف تشعر أنت أيضاً عزيزى القارئ بهذه السخرية الممزوجة بالمرارة، حين تقرأ كلمات هذا الحوار.. والسبب يرجع إلى أنها تجربة خاضها مفكر كبير وعالم من علماء الآثار المصريين.. ووكيل وزارة للنقل البحرى.. وأيضاً كاتب ومؤلف لأكثر من خمسين كتاباً في مختلف فنون المعرفة.. أضف إلى ذلك أنه كاتب صحفى وسأخر عظيم.. أما الشيء الأكثر أهمية والذي نتج عنه القدر الكبير من الضحك والسخرية.. فهو أن صاحب هذه التجربة.. قد زجوا به خلف الجدران السوداء بلا تهمة ولا ذنب ارتكبه.. وإنما بسبب وشاية من آخرين.. هذه التهمة لم يقتنع بها حتى رجال الأمن الذين قدموا إليه مع ساعات الفجر الأولى.. ولم يجدوا في مكتبه سوى كتب تتغنى بحب مصر وآثارها وأدائها وقنونها.. ومؤلفات كثيرة كتبها في التخصص الذى اشتهر به في مجال النقل البحرى..

ولعلك حين تسمع صوت هذا المفكر والاديب وهو يحكى لك كيف جاءوه فجراً ودخلوا عليه إلى حجرة مكتبه، وهو لم ينم بعد، حيث كان منهمكاً في إنجاز تقرير تفصيلي مطلوب على وجه السرعة، يتناول المشاكل والمعوقات وطرق إزالتها أو معالجتها حتى يتم نقل كميات المواد التموينية الضخمة التي تستوردها البلاد في مواعيد مناسبة وبإجراءات سلسلة وطرق صحيحة.. لا تملك إلا أن تتعجب على هذه الأوضاع التي كثيراً ما تثير السخرية والحزن وأيضا الإستغراق في الضحك!

حتى وهو رهين القيد الحديدي الذي وضعوه في معصمه خوفاً من الهرب - على حد قولهم - لم يفقد الابتسامة التي عبر من خلالها عن هذه المسرحية الهزلية التي تمت ومازالت فصولها باقية.. لأن عليه أن يقضى عقوبة لجريمة لم يرتكبها ولم يعرف أبعادها بعد.. وهو يقول إن أول إشارة النقطها عقله وعرف من ذبذباتها أن التهمة ربما تكون بسبب الفكر والادب والثقافة.. كانت حين عثروا على أربعة كتب، منها رواية الام لكسيم جوركي ومجموعة قصصية لأنطون تشيخوف.

وقد استكمل صورة مادار في ذهنه حين زجوا به مع «الرفقاء» - وهي كلمة جمع.. مفردها «رفيق» - من أعضاء الحزب الشيوعي وبعض اليساريين المصريين!!.. لقد تحول الكاتب والمفكر والإنسان مختار السويقي في لحظة واحدة - ودون أن يدري - إلى معارض شيوعي أو يساري!! مع أنه - وكما أكد لي وأكد لهم - لا يحب السياسة.. بل يكرها كثيراً.. ولم يجد في حياته عن طريق الديمقراطية. ولكن على حد قوله: لا تجد من يسمع إلا بعد ثلاثين يوماً.. حين تقدم على كتابة تغلم أمام قاض مدني.. والذي له الحق في الأخذ بما تروى ومن ثم يفرج عنك..

والامر لم يكن بهذه السهولة.. كما يروى.. أو كما أكتب.. لقد وصل إلى سجن طره في الصباح المبكر.. ودون كلمة واحدة، بعدما أخذوا منه كل متعلقاته.. رموه في زنزانة إنفرادية لمدة ثلاثة أيام!!

إنها بحق رحلة داخل عقل وقلب أحد فرسان الكلمة السوية الذين مازالوا في عطاء دائم لم ولن ينقطع أبداً.. هذه العطاء المستمر لم تؤثر فيه مثل هذه الحادثة المنفرة التي جعلته يقضى أكثر من خمسة وأربعين يوماً داخل جدران السجن.. وله ولنا مع هذه الأيام ذكريات نعرفها من خلال متابعة «متانية» لتفاصيل هذا الحوار.

**** كم مرة دخل فيها الأستاذ الكاتب الكبير والمفكر المصرى المعاصر مخترار**

السويفى السجن؟!

- أنا الحمد لله لم ادخل السجن سوى مرة واحدة. وهى هذه المرة التى سوف احكى لك عنها! وأرجو- بل وأتمنى - أن تكون المرة الاولى والأخيرة.. وظروف هذه المرة.. أو تقدر تقول سببها اننى كنت قد نشرت كام مقالة فى جريدتى الجمهورية والأهرام ما بين سنة ١٩٧٤ وأواخر ١٩٧٦..

**** اسمح لى أن أقطع حوار هذه النقطة.. وأسأل.. فى سنة كام دخلت**

السجن؟!

- فى عام ١٩٧٧.. فى أعقاب الحركة التى تمت فى مصر أيام ١٨ و ١٩ يناير والتى أطلق عليها الرئيس السادات «انتفاضة» الحرامية..!

وحين نعود لحديث الأسباب.. أقول لك إننى كنت قد نشرت عدة مقالات فى جريدتى الجمهورية والأهرام.. وكنت وقتها أعمل «مدير عام» فى قطاع النقل البحرى، وكان الرئيس السادات قد أصدر ورقة أكتوبر التى كانت مقدمة لقرارات الانفتاح الاقتصادى.. وقد لاحظت من خلال متابعة خاصة أن هناك شبه هجوم على قطاع النقل البحرى الذى كنت أنتمى إليه.. هذا القطاع به العديد من التخصصات والأنشطة المتعددة.. ومع ذلك لاحظت وجود نوع من التركيز الهجومى على تخصص واحد فقط وهو «التوكيلات البحرىة».. حيث اتضح أن غالبية الذين بدأوا فى الأخذ بسياسة الانفتاح يركزون جهودهم على هذا الجانب دون جوانب النقل البحرى الأخرى.. وطبعاً السبب فى ذلك أن هذا القطاع من أكسب وأربح قطاعات النقل البحرى.. أضف إلى ذلك أنه قطاع لا يحتاج إلى جهد أو فن أو علم.. الحكاية مجرد دكانة أو مكان صغير حتى ولو صرف عليه نصف مليون جنيهه.. واستطاع صاحب هذا المحل أن يحصل على توكيل ملاحى.. من المؤكد أنه سوف يعوض هذا النصف مليون فى الأسبوع الاول!!

إذن فيما يخص هذا القطاع لم تكن العملية مقصوداً بها الانفتاح من أجل مساعدتنا.. ولكن من أجل نهب أموالنا، وكان هذا هو موضوع مقالاتى التى كتبتها أولاً فى جريدة الأهرام.. وتساءلت من خلالها: لماذا التركيز على جانب التوكيلات

الملاحية دون النظر إلى قطاعات النقل البحري الأخرى!! وقد بلغ عدد هذه المقالات اثنتى عشرة مقالة.. ثمانى مقالات بالجمهورية وأربع بالاهرام.. وكلها تناولت هذا الجانب وما يتفرع عنه من موضوعات أخرى.. أول مقالة نشرت في هذا الموضوع كانت في منتصف عام ١٩٧٤ وأخرها في أواخر عام ١٩٧٦.

ودعنى أقول لك قبل الانتقال إلى سؤال آخر.. عن فحوى هذه المقالات، لأنه رغم أنها كانت تتناول هذا الجانب من موضوع النقل البحري إلا أنها تناولته من مختلف الجوانب. فمثلا بعض هذه المقالات كان إقتصاديا صرفاً.. يعنى أقول فيه على سبيل المثال شروط الإستثمار في النقل البحرى.. وطالبت في إحدى هذه المقالات بسأنه إذا كان ولا بد من تأثير النقل البحرى بسياسة الانفتاح فلماذا لا يأتون إلينا بسفن جديدة ترفع أعلام مصر.. أو ناقلات بترول.. أو إنشاء موانئ جديدة حتى ولو كانت قطاعاً خاصاً.. أو يدعموا الأرصفة البحرية الموجودة، إلى آخره.. بجانب ذلك كانت هناك بعض المقالات نشرتها بمساعدة الكاتب الكبير محسن محمد الذى كان يرحب بهذه النوعية رغم خوفى شخصياً وخشيتى من رفضه لها. ومن هذه النوعية ما كتبتة عن أحد المستثمرين في مجال قطاع النقل البحرى.. هذا المستثمر الذى ظهر فجأة على الساحة الإقتصادية المصرية.. حيث ادعى أنه مهندس وأطلق على نفسه كبير المستثمرين العرب!! إنه شيء وهمى من هذا القبيل. وهذا الرجل استطاع في سنوات قليلة أن يجمع ملايين الدولارات من المصريين في الدول العربية وجاء إلى مصر وافتتح شركة للملاحة البحرية.. وقد لاحظت أنه رغم ما يبدو على نشاطه من مشروعية، إلا إننى اكتشفت فيما بعد أن هذا المستثمر قد جاء من أجل تخريب الإقتصاد القومى مستغلاً سياسة الإنفتاح هذه، وقد إتضح هذا الإتجاه حين لاحظت إنه كان يلجأ إلى توظيف أبناء بعض المسئولين بالدولة من أجل التغطية على أعماله غير المشروعة.. وطبعاً الحكاية كانت معروفة.. فقد جمع هذا الرجل كل هذه الملايين وإنطلق بها هارباً إلى خارج مصر. وبذلك اتضحت صحة شكوكى التى كتبتها قبل هروبه بعدة سنوات.

والمحوظة التى تستطيع أن تصل إليها في نهاية الأمر أن كل هذه المقالات التى سجت بسببها كانت مقالات في موضوعات بعيدة عن السياسة.. ولم تخرج عن خط

نقد بعض السياسات الخاطئة في مجال النقل البحري!! ولعلك تتدهش إذا ما عرفت أن هذه المقالات قد تركت أثرا طيبا على مستوى المهتمين بالنقل البحري كله.. بل وعلى مستوى بعض الاقتصاديين المهتمين بهذا القطاع..

ولم يدر في ذهني أبداً.. أنني يمكن أن أدخل السجن بسبب هذه المقالات التي لم تكن تهدف سوى الصالح العام!

ولعلني أذكر لك أن هناك - بجانب هذه المقالات - أسباباً أخرى تأتي في المقام الثاني.. وهي موقفى من المرحوم عصمت السادات وأخيه البذى أراد أن يدخل مجال النقل البحري.. ولولا وقوفى ضده في هذا المجال لكان هو الآخر قد استطاع أن يجمع الملايين من قطاع التوكيلات البحرية! ورغم أنني لا أجزم بوقوف عصمت السادات بشكل مباشر ضدى في هذه القضية إلا أنني استنتجت ذلك.. والسبب ربما يرجع إلى أن هذه المقابلة وقعت عام ١٩٧٦ - ربما في سبتمبر أو نوفمبر من عام ١٩٧٦ - وقبل وقوع هذه الأحداث بشهرين أو ثلاثة!

**** ليسمح لنا الكاتب والمفكر أن يحكى لنا عن ظروف اعتقاله!؟**

- هو أنا كان يوم الجمعة الساعة الثانية والنصف صباح يوم ٢٢ يناير عام ١٩٧٧.. وأثناء وقوع الأحداث التي سبق وحكى لك عنها وهي أحداث ١٨ و١٩ يناير! وعلى ما أذكر أنه قد صاحب وقوع الانتفاضة منع التجول. ومع ذلك لاحظت وأنا كنت ساكن وقتها بحى غمرة الذى يطل على شارع رمسيس.. وكنت وأنا سهران أسمع الناس تهتف فى الشوارع رغم سريان هذا الحظر. ورغم أنني كنت أسكن بالدور السادس. وعلى فكرة أنا لا أنام بالليل كثيرا لأننى أعشق الليل وأعشق العمل فى هدوئه.. وقتها على ما أذكر كنت مشغولاً للغاية فى حل مشكلة متعلقة بالنقل البحري.. وكنت وقتها أقلب فى أوراقى الخاصة من أجل البحث عن حل.. وكان معى وقتذاك ملف هذه المشكلة كى أدرسه بعناية.. وكنت قد بدأت ساعتها كتابة التقرير المفروض أن أقدمه وفيه الحل الذى نبحث عنه.. وفجأة دق جرس باب شقتى.. وقد أصابتنى الدهشة من طريقة الطرق على الباب لأنها كانت طريقة إستفزازية.. وأقسم لك بالله أنني حتى تلك اللحظة لم أكن أتخيل أنهم قوة من رجال البوليس.. وكل ما تصورته أنهم مجموعة

المشاغبين الذين كنت أسمع أصواتهم منذ دقائق في قلب الشارع! لذلك أصابني القلق واتخذت وضع الاستعداد.. وقمت من فوري كي أتأكد مما تصورته.. فنظرت من العين السحرية الموجودة بالبواب.. فوجئت برؤية عدة أنفار ومخبرين ومعهم اثنان من أمناء الشرطة وقائد من رجال البوليس بالسزى المدنى.. قمت بفتح الباب.. وعلى الفور سألتوني.. إنت مختار السويفى؟! وقبل أن أجيبهم انطلقوا داخل الشقة! وقاموا بحملة تفتيش واسعة! خاصة في المكتبة، وبعد أكثر من ربع ساعة رأيتهم وقد عثروا على بعض الكتب وأخذوها إلى جنب.. منها كتب أدبية لمجموعة من الأدباء الروس! ويحضرني هنا أن أروى لك أنني قد عزمت على هؤلاء الضيوف أن أقدم لهم أى تحية حتى ولو كوب شاي.. فرفضوا وخاصة ضابط البوليس. ولكن منظر المخبرين والإرهاق الظاهر في وجوههم جعلنى أقدم لهم الشاي.. وسرعان ما استجاب الضابط هو الآخر حين عرضت عليه أن يشاركنى في كوب الشاي.. بعد التفتيش عثروا كذلك في درج مكتبي على مبلغ ألف دولار وألف جنيه وتذكرة سفر.. ومنذ هذه اللحظة التي أخذوا فيها هذه النوعية من الكتب أحسست بما هو قادم!!.. إننى أصبحت الآن محسوباً على التيار الشيوعى!! وإلا لماذا لم يأخذوا مثلاً دائرة المعارف البريطانية أو كتباً أخرى من هذا القبيل. ورغم ذلك كنت شديد الاطمئنان لأننى كنت قد اشتريت هذه الكتب من المكتبات العامة.. ولا ضرر من الإحتفاظ بها..

المهم.. أعود كى أحكى لك قصة الألف دولار والتذكرة التي عثروا عليها وهي خاصة بسفري إلى دولة سنغافورة.. لقد لاحظت أنهم أخذوا هذه الأموال.. وقد اعترضت بشدة، ولكن الضابط الذى تحول بعد لحظات إلى إنسان مصرى لطيف طمأننى بأن كل شىء محفوظ.. وبالتالي وضعهم بجانب الكتب.. والألف دولار هذه لا تتصور قيمتها على نفسى كبيرة، فقد حصلت عليها من مكتب الامم المتحدة كى أصرف منها خلال رحلتى إلى سنغافورة.. حيث اختارونى محاضراً دولياً في شؤون النقل البحرى ممثلاً لمصر وللدول الشرق الأوسط. وكنت سوف أسافر بعد هذا الحادث المشؤم بأيام إلى سنغافورة كى التحق بدورة تدريبية لإعداد محاضرين في اقتصاديات النقل البحرى للدول النامية.

ولكن للأسف لم يتحقق هذا الحلم.. وأقول للأسف لأننى بعد نجاحى فى الحصول على هذه المنحة الدولية ممثلاً لمصر وممثلاً للشرق الأوسط، لم أتمكن بسبب حادث السجن من تحقيق هذه الرغبة. وأنا أذكر أن هذه الدورة كان من المفروض أن تبدأ من ٦ فبراير عام ١٩٧٧ وتستمر لمدة ستة أشهر. وبعد تفتيش الشقة.. طلب منى الضابط أن يصحبنى معه من أجل استكمال بعض الاجراءات على حد قوله!، وحتى هذه اللحظة لم أكن أتصور أن المسألة يمكن أن تكون عقوبة أو اعتقالاً لأننى - وكما ذكرت لك - لم ارتكب ذنباً أعاقب عليه. وقد كرر الضابط على مسامعى أن المسألة مجرد شكليات وربما تستغرق ساعة واحدة، وبعدها تعود إلى المنزل. وقد وافقته على ما طلب منى.. وقد حدث أيضاً شيء غريب فى هذه اللحظة ويثير السخرية والضحك فى آن واحد.. فعندما خرجت من غرفة المكتب من أجل تغيير ملابسى استعداداً للمرحيل.. فوجئت باثنين من أمناء الشرطة يقفان على باب حجرة النوم التى أغير فيها ملابسى!!، وطبعاً خوفاً من الهرب أو أننى قد أقفز من الشباك أو شيء من هذا القبيل.

وبعد أن ارتديت ملابسى.. أشار على الضابط بهدوء أن آخذ بعض احتياجاتى الشخصية فى شنطة صغيرة.. وعلى الفور بادرت بالقول: إذن المسألة حتطول؟! فردت نفس كلماته الأولى بأنها مجرد شكليات! المهم أخذت الشنطة التى أشار على بها.. وقبل أن تغادر الشقة استفسرت منه: هل لسيدي إذن من النيابة؟! وكان يحمل بالفعل هذا الاذن المدون فيه بعض المعلومات العامة.. وليس فيه اسمى بالتحديد.. ونزلنا من الشقة وركبت معه فى سيارته الملاكى الخاصة به. وانطلقنا تسير طوال الليل حتى سجن مزرعة طرة.. حيث فوجئت بأن السيارة لم تذهب بنا إلى مكتب المباحث كما وعدنى.. بل ظلت تسير بمحاذاة كورنيش النيل مما زاد جرعة الشك فى نفسى.. وأردت أن أتأكد فسألته للمرة الأخيرة: ما هى الحكاية؟! وأين نحن ذاهبون؟!.. فرد على بنفسي طريقته الهادئة: المسألة إن اسمك جاء فى كشف المطلوب اعتقالهم.. وأنا من ناحيتى.. -والكلام ما يزال للضابط - أعرف أنك مظلوم.. وربما ما جعله يقول ذلك أنه حين جاء فى الفجر فوجئ بى أكتب المذكرة التى حكيت لك عنها، وكانت نحو عشرين صفحة كان يظنها فى بداية الأمر منشورات!! وقد أكد هذا المفهوم بداخله أننى أيضاً طلبت منه توصيل هذه المذكرة إلى مكتبى فى النقل البحرى لأهميتها الشديدة فى العمل.. وللحق فقد قام

بتوصيلها بكل أمانة.

المهم الآن ونحن على أبواب سجن طره.. شد هذا الضابط على يدي بقوة.. وإعتر لي باعتبار أن هذه المهمة من واجبه المكلف به. وقد ترك هذا السلوك في نفسي أثرا طيباً.. في وقت حدوث هذه المصيبة التي لم أكن أتوقعها.

وبعد دخولي إلى المعتقل.. وبعد حملة تفتيش واسعة للملابس وملابس غيري من المعتقلين الآخرين الذين قسّموا معنا.. وزعونا على الزنازين.. كل واحد في زنزانة إنفرادية حقيرة وقذرة.. ولم يكن بها أي شيء يدل على صلاحيتها للإقامة فيها حتى لكب أجربا.. وظللت بها هكذا لمدة ثلاثة أيام حيث أضافوا لنا في نفس هذه الزنزانة ثلاثة مساجين معتقلين مثل.. ولم تتعد مساحة هذه الزنزانة مترين * متراً فكيف نستطيع أن ننام بداخلها.. بل أكثر من ذلك - وبعد ثلاثة أيام أخرى أضافوا لنا معتقلين جديداً فأصبحنا خمسة أفراد في المساحة الضيقة!!

ودعني أقول لك شيئاً هاماً جداً اكتشفته لحظة وجودي منفرداً داخل هذه الزنزانة القذرة.. هو أن الثانية والدقيقة كانت شيئاً ولا الدهرا.

ولك أن تتصور أنني بعد قضاء أسبوع في هذا الحيز الغريب لم أكن أعرف سبب الاعتقال أو هدفه أو متى سينتهي!؟ وكل ما كنت أسمع من بقية الزملاء الموجودين بالزننازين الأخرى.. أنني اعتقلت بسبب الشيوعية.. وقد عرفني بذلك الشاعر أحمد فؤاد نجم الذي كان مسجوناً في الزنزانة المجاورة.

**** لو أردنا أن نعرف من الأستاذ مختار.. كم قضى في السجن.. ماذا يقول!؟**

- أنا قضيت في الاعتقال وفي سجن طره بالضبط ٤٥ يوماً.. وهي المدة الشرعية بتاعتهم التي بعدها لا بد من الإفراج أو تجديد الاعتقال.. وطبعاً يرجع الفضل في ذلك بعد ربنا إلى القضاء المصري المدني العادل.. حيث كانت إدارة السجن تسمح لكل معتقل أن يتظلم إلى محكمة مدنية.. ووفقاً لما لدى هذه المحكمة من معلومات يحق لها أن تفرج عن المسجون أو تجدد حبسه أو اعتقاله. وكان لا بد أن يتم النظر في هذا التظلم خلال

شهر من الاعتقال.. والشيء الغريب أنك لا بد أن تمكث خمسة عشر يوماً داخل السجن حتى بعد قرار المحكمة بالإفراج عنك، وهذا بالضبط ما حدث لى..

**** يعنى نقدر نقول: ما هى أهم الاجراءات التى تم اتخاذها من أجل الإفراج عنك؟**

- أعود وأقول لك إن إدارة السجن فى كل فترة تمر على الزنازين من أجل تسجيل أسماء المعتقلين السذين يطلبون التقسدم بتظلم.. فيأخذون اسمك فى كشف كبير ثم يخبرونك فيما بعد بموعد الجلسة. وقد تقدمت بتقييد اسمى بجانب ما قام به بعض المحامين من أصدقائى حيث بلغ عدد هؤلاء المحامين خمسة محامين.

وسبق أن ذكرت لك قصة الثلاثين يوماً ثم قصة الخمسة عشر يوماً التى يجب أن أقتضيها فى السجن حتى بعد قرار المحكمة بالإفراج.. والسبب فى ذلك إتاحة الفرصة للحاكم العسكرى للتصديق على الحكم إما بالموافقة على الإفراج أو الإلغاء.. ولك أن تتصور كيف قضيت هذه المدة. لقد عشت أياماً مرعبة خاصة آخر يوم.. لقد كنت أتصور - رغم براءتى - أن الحاكم العسكرى من الممكن أن يرفض الإفراج عنى. والحمد لله فقد صدق الحاكم العسكرى على قرار الإفراج وخرجت مساء اليوم الخامس والأربعين. ولعلنى أسجل هنا بهذه المناسبة تحية خاصة لرجال القضاء المصرى العادل الذى تحمل خلال هذه الفترة عبء الإفراج عنى وعن غيرى من الزملاء المفكرين المعتقلين. وعلى ما أذكر أنه فى نفس الجلسة قد تم الإفراج عن أكثر من تسعة عشر من غيرى من المعتقلين.

**** .. كما عرفنا سبب الاعتقال.. ما هى الأسباب التى استندت إليها المحكمة فى قرار الإفراج؟**

- والله الأسباب كما ذكرها المحامون المدافعون عنى.. هى جهودى فى مجال النقل البحرى وجهودى الفكرية والأدبية.. بجانب أننى لم أكن منتمياً لأى حزب أو جهة سياسية.. ولا تتصور أن هذه الأسباب قد قبِلت أمام المحكمة فقط.. بل سبقها تحقيق

داخل السجن.. ومن المؤكد أن المحكمة قد استندت إلى هذه الأسباب أيضا. فقد أجرت نيابة أمن الدولة معنا تحقيقا ونحن خلف الجدران.. وقلت فيه إننى جئت هنا على سبيل الخطأ. واكتشفت فيما بعد أنها كانت تحقيقات مبدئية للغاية. ولكننى فى اثباتها عرفت التهمة الموجهة لى بالضبط.. لقد كنت متهما بالماركسية وأننى أكتب مقالات تهاجم الانفتاح الاقتصادى وتحمل أفكارا ماركسية.. وأننى كنت أعد خطة للهروب إلى سنغافورة بناء على تذكرة السفر التى ضبعت بدرجة مكتبى.. ليس هذا فقط.. بل إننى قد تلقيت دعما ماديا من الخارج بسبب الألف دولار.. وأكثر من ذلك أن الألف جنيهه المصرية التى حكيت لك عنها.. كانت سلسلة الأرقام وكل مائة جنيهه منها كانت مدبسة بديبوس.. الأمر الذى جعل جهات المباحث تعتقد - بل تكتب فى تقاريرها - أن هذه الاموال كانت معدة للتوزيع!! أيضا كانت هناك تهمة أخرى وهى أننى ألقى محاضرة عن الديمقراطية لبعض العمال!. وكانت مفاجأة أيضا، فلم يحدث أبدا أن ألقى أى محاضرة من هذا النوع.. وفى التحقيق اكتشفت ما يمكن أن يضحكك عاما كاملا. فقد كنت أזור الفنان والرسام زهدى أثناء قيامه بإعادة طلاء شقته، وكان بها آنذاك أحد العمال وزميله.. وقد اشتركا معنا فى مناقشة كانت بينى وبين زهدى وزائر آخر أعرفه.. حيث وجه أحد هذين العاملين سؤالاً لى عن مفهوم الديمقراطية بإعتبار أنها كلمة يسمعونها كثيرا ولا يعرفون معناها!!.. ويسألنى أخذت أشرح لهما معناها كما جاءت فى اللغة اليونانية.. وتتصور أن الذى أوصل هذه المعلومة إلى رجال المباحث كان أحد هذين العاملين!!.. وقد وجدتها مدونة أمام المحقق الذى جاء كى يأخذ أقوالى فيما نسب لى.. ليس هذا فقط، بل فوجئت بأن الزائر الآخر الذى كان موجودا معنا فى بيت زهدى وهو الصحفي الاستاذ الفنان عبد المنعم القصاص قسأ جروا رجلية فى هذه القضية بسبب هذه الزيارة مع انه لم يتكلم إطلاقا، وظل ساعتهما يستمع فقط.. هذا بالإضافة طبعا إلى الفنان زهدى.. وتعرف التهمة المدونة كانت إيه 19.. أننا نزود هؤلاء العمال بأفكار هدامة.. تصور!! لقد كانت هذه التهم بالنسبة لى تهماً بشعة ومرهقة نفسيا..

*** وهل نستطيع أن نقول أن نزاهة القضاء المصرى هي السبب في خروجك من هذه الورطة إن جاز التعبير؟**

- دى فعلاً حقيقة!.. وكانت فرصة كى أرد على كل ما جاء بتقرير المباحث من إتهامات.. وكانت المحكمة آنذاك واسعة الصدر حيث استمع القاضى إلى كل ما قلته وبأمانة. وعلى ما أذكر أن رئيس المحكمة كان هو المستشار الصدى..

*** ما هو تأثير تجربة السجن على الكاتب والإنسان مختار السويفى..؟**

- تبدأ هذه التجربة منذ اللحظة الأولى التى دخلت فيها الزنزانة التى حكيت لك عنها.. فى فجر يوم ترحيلنا من المنزل إلى سجن طره.. لاحظتها فقط شعرت بقيمة الحرية التى وهبها الله للإنسان.. لقد اكتشفت أنها أعظم نعمة من الله، خاصة وأنت نسجين زنزانة منفردة!.. ومما زاد من آلام النفس قذارة المكان الذى دخلت إليه والذى بات عليك أن تقيم فيه رغماً عنك.. ولا أستطيع أن أصف لك مقدار هذه القذارة الناجمة من الروائح الكريهة المنبعثة من «جردل البول والبراز» الموجود بجانبى لمدة ٢٤ ساعة!

أضف إلى ذلك شكل الباب الحديدى الكئيب.. وهو باب الزنزانة الذى ينبعث منه صوت مخيف حين إغلاقه. واستمرت هذه الوحدة فى الحبس الانفرادى حتى أضيف لنا آخرون كما حكيت من قبل..

**** وبخصوص ما يتعلق بالورق والقلم.. هل كان يسمح لكم بالحصول عليه؟**

- الورق والقلم كان من الأشياء المستحيلة.. لكن الشيء الجديد أنه فى الأسبوع الأخير قبل الإفراج.. سمحوا لنا بقراءة الصحف، كما سمحوا لنا بالكتب سواء التى تأتينا من الخارج أو التى نستعيرها من مكتبة السجن!

**** وهل تعرضتم لتعذيب؟**

- أبداً.. وهذا هو الشيء الغريب الذى حدث فى سجون مصر فى فترة ما بعد منتصف

السبعينات.. وهقوك ليه؟.. لأنه كان في هذه الفترة تجرى محاكمة الضباط الذين اتهموا في قضايا تعذيب المعتقلين.. وطبعاً كان هذا في تصوري هو السبب الرئيسي.. ولولاه لتعرضنا للتعذيب مثلما تعرض غيرنا من قبل. حتى أثناء إجراء التحقيقات معي داخل السجن.. كانت تتم بعيداً عن شبح التعذيب!.. وأكثر من ذلك فقد اتسمت معاملات ضباط السجن آنذاك بشيء من الرحمة والإنسانية.. ويمكن ده كان موضع استفراب.. وربما يكون ذلك راجعاً إلى إحساس الضباط أنفسهم بأنني دخلت هنا بقضية فكرية ملفقة!!

**** كم كتاباً ألتموه خلف الجدران؟. أو حتى ما هي الأفكار التي خرجت بها من هذه التجربة!.**

– أنا لم أكتب كتباً في السجن.. ولكنني كتبت قصصاً قصيرة وهربت بها إلى خارج السجن ونشرت في مجلة صباح الخير وأنا مسجون. ومن بعد خروجي جمعت هذه القصص مع ما كتبت من قصص سابقة ونشرتها في كتاب بإسم «مساخر من العاصمة والأقاليم». وعلى ما أذكر في هذه الفترة وأنا داخل هذه الجدران السوداء كتبت قصة بعنوان «واحدة أرتيست».. وكان المرحوم حسن فؤاد رئيساً لتحرير صباح الخير، وكنت وقتها أنشر فيها القصص القصيرة التي أكتبها.. وبعد تهريبها نشرت في العدد الجديد.

وقد نبهني إلى نشرها حكمدار عنبر السجن وهو العقيد محمد صفوت.. وكان من الضباط المصريين المحترمين.. حيث جمعتنا سوياً جلسات متعددة عرف من خلالها مشكلتي ووظيفتي.. وربما أقول إننا تحولنا إلى أصدقاء في الفترة التي سبقت خروجي من السجن مباشرة.

**** .. وكم كتاباً ألتموه بشكل عام؟**

– هم حتى الآن بلغوا ٥٤ كتاباً..

**** .. وقبل الإعتقال..؟ كم كان عددهم؟**

– مؤلفاتي جميعاً قبل دخول السجن.. كان معظمها في مجال النقل البحري.. وربما

أكون المصرى الوحيد الذى له مؤلفات بهذه الغزارة فى هذا الميدان.. لأن أغلب هذه المؤلفات كانت باللغات الأجنبية.. وكتبها مؤلفون أجانب.. بالإضافة إلى ذلك كانت لى كتب أخرى فى الفن والأدب ومسرح العرائس.

وقد تغير مؤشر النوعية بعد خروجى من السجن.. فكتبت أدباً ساخراً ومؤلفات عن آثار مصر وتاريخها القديم.. ومازلت أكتب كتباً عن النقل البحرى وآخرها «قاموس مصطلحات النقل البحرى والتجارة الخارجية».

*** .. ومن هى أهم الشخصيات التى قابلتموها فى فترة الاعتقال؟

— طبعاً تعرفت على شخصيات كثيرة جداً.. بعضهم من اليساريين.. مثل الشاعر أحمد فؤاد نجم.. ومن غير اليساريين أحد المحامين واسمه صلاح القفص.. وهو محام من محافظة الغربية وأيضاً كانت تجمعنى به علاقة خاصة من واقع دخوله السجن فى قضية سياسية ملفقة مثل تماماً.

وأيضاً تعرفت على الصحفى الأستاذ عبد المنعم القصاص.. زوج الزميلة الأستاذة الصحفية أمينة شفيق. وأيضاً العقيد محمد صفوت الذى سبق الحديث عنه.. وكذلك المستشار يوسف دراز الذى حقق معى اثناء إعتقالى فى السجن.. وتقدر تقول إن علاقتى بهؤلاء قد قلت كثيراً.. وتم الآن فى صورة ضيقة وبشكل تلعب فيه الصدفة دورها.

*** وهل هناك شخصيات أخرى جمعتمكم بها قصص وحكايات داخل السجن غير الذين ذكرتهم؟!

— طبعاً فيه كثير.. ودعنى أحكى لك عن بعض الحكايات الطريفة التى حدثت لى داخل السجن.. فقد كانوا يسمحون لنا بفسحة خارج الزنازين من الساعة العاشرة حتى الثانية عشرة ظهراً.. ثم فسحة أخرى من الساعة الثانية حتى الرابعة عصراً وهو موعد التمام واغلاق الزنازين على المساجين. وفى هذه الفسحة تعرفت على الكثيرين من اليساريين الشباب المتصلقين فى الاشتراكية قوى قوى.. والذين يتكلمون بلغة «الجنجورى» حسب التعبير الطريف الذى ابتدعه الكاتب الساخر الأستاذ محمود

السعدنى.

وفى إحدى هذه الفسح تقدم منى أحد هؤلاء الشباب وسألنى هامساً: هو حضرتك «طيار» (هكذا سمعت الكلمة).

فقلت على الفور: لا.. أنا باشتغل فى النقل البحرى..

قال: أنا عارف.. بس هل صحيح أنت طيار..

قلت: يابنى بأقول لك أنا بشتغل فى النقل البحرى.. أبقى طيار إزاي..

قال: أنا قصدى هل أنت «تيار ثورى»؟..

قلت: وإيه التيار الثورى ده كمان؟

قال: حضرتك متعرفش تنظيم التيار الثورى؟

قلت: لا والله.. دى أول مرة باسمع أن فيه تنظيم اسمه التيار الثورى!

وانتهى الحوار عند هذا الحد.. ولكن فى اليوم التالى ذكر لى الشاعر أحمد فؤاد نجم أن الشباب بتتوع تنظيم (٧ يناير) مبسوطين منى ومعجبين بى ويعتبروننى قدوة فى القيادة التنظيمية، نظراً لأنى السكرتير العام للجنة المركزية لتنظيم «التيار الثورى» ومع ذلك فأنا أخفى المنصب التنظيمى الذى أشغله ولا أبوح بسرّه لأحد!!

— يانهار أسود!.. إن هذا الإعجاب بيودينى فى ستين داهية!!.. وإيه حكاية تنظيم «٧

يناير» ٢٥

استنكر أحدهم هذا السؤال وقال لى بحدة:

— أنت حتتريق علينا يا رفيق..!٩٠

أجبتّه بحدة أكثر: والله عمرى ما سمعت عن تنظيم اسمه «٧ يناير».. أنا أعرف إن ٧ يناير هو عيد ميلاد المسيح عليه السلام لدى طوائف الكنيسة الشرقية.. وأنه أيضاً تاريخ ميلادى أنا شخصياً!

وهنا تساهل بسخرية: يعنى حضرتك عايز تقول إنك انت اللى عملت تنظيم ٧

كان من الصعب أن يتم حوار معقول بينك وبين مثل هؤلاء المتحذلقين «الاسياخ».. كانوا لا يملون الحديث عن الاشتراكية والمادية الجدلية وأفكار ماركس وأنجلز ولينين وتروتسكى وماوتسى تونج، ولا يطبقون الحديث عن تاريخ مصر القديم أو الحديث أو عن الزعماء الوطنيين المصريين أمثال عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول..

وحكاية طريفة لا تقل طرافة عن الحكاية السابقة.. فقد اكتشفت شيئاً جميلاً جداً فى حوش العنبر الذى توجد الزنازين على جانبيه، وهو حوش واسع عرضه نحو ثلاثة أمتار وطوله نحو خمسة عشر متراً، ويتجمع فيه ساعة الفسحة نحو مائة معتقل..

وقبيل الظهر من كل يوم، تنكسر أشعة الشمس متخطية الأسوار العالية التى تحيط بالعنبر من كل جانب، وتنعكس على ركن الجدار الأيسر للعنبر.. وكانت هذه الجدران مدهونة بالجير الأبيض منذ مدة طويلة.. ربما منذ أيام محمد على الذى بنى ليمنان طره فى عهده.. وربما بسبب الرطوبة والزمن تخمرت طبقة الجير الأبيض وكوّنت ذراتها فى بعض الأركان حبيبات دقيقة جداً على شكل بللورات أو كريستالات متناهية فى الصغر، ولكنها تعكس أشعة الشمس المنكسرة عليها وتجعلها إلى جميع ألوان الطيف من اللون الأحمر فى طرف إلى اللون البنفسجى فى الطرف الآخر، مروراً بالألوان المبهرة الأخرى كالأزرق والأحمر والبرتقالى والأصفر والأخضر.

كنت أجد متعة عظيمة فى النظر إلى هذه الكريستالات من زوايا مختلفة، حيث تتشكل الألوان فى تركيبات طبيعية فى منتهى الجمال والسرورة.. وكنت أقضى معظم وقت الفسحة متأملاً فى تلك التشكيلات اللونية ومستمتعاً بسعادة لا حد لها.

وحتى هذه المتعة الرائعة لا يتركك الزملاء لكى تتمتع بها.. فقد تقدم إلى أحد اليساريين المعروفين - وكان اسمه الأستاذ فاروق - وجذبني من ذراعى وهو يعاتبني بشدة على هذا الانزواء والوحدة والصمت والإنعزال عن الآخرين.. وهم لا يرضون أن أضع وجهي فى الحائط بمجرد خروجه من الزنازاة، ويجب على أن أتحمل والا أتالم على هذا النحو الغريب.

وعبثاً حاولت أن أشرح له أنى لا أتسالم ولا يحزنون، وإنما أتمتع بمشاهدة التشكيلات والتكوينات اللونية التى تكونها بللورات الجير، ولكنه لم يقتنع بهذا الكلام، وقال إن مثل هذه الخيالات قد تؤدى بى إلى الجنون وإنى لابد أن اختلط بالآخرين وأندمج فى الحديث مع الرفاق!

وطبعاً تعرفت أيضاً على بعض الشخصيات الأخرى من عالم السجن، فقد كان هناك بعض المساجين يأتون بهم إلى العنايسر التى نقيم بها من أجل تنظيفها.. وخدمتنا.. ومن أهم الشخصيات التى تعاملت معها من هؤلاء شخصية السجين الحلاق!!.. حيث سمحوا لنا بعد مرور أكثر من خمسة عشر يوماً بحلاقة الذقن.. وطبعاً لايسمح لك فى هذه الحالات بإصطحاب أى ماكينة حلاقة أو موسى.. وأرسلت إلينا إدارة السجن هذا الحلاق ليحلق ذقن من يريد أن يحلق ذقنه.. وكان يستخدم فى عمله قطعة «جريد» طويلة وفى آخرها قطعة من شفرة موسى.. وتعرف كانت بتؤدى غرضها على أحن وجه.. وبعد فترة من تعاملى مع الحلاق اكتشفت إنه محكوم عليه فى قضية قتل، ولك أن تتصور مدى الرعب الذى انتابنى بشدة.. ومن يومها رفضت تماماً حلاقة ذقنى حتى خرجت!!.

شخصية أخرى تعرفت عليها من هذه النوعية.. ولكنه كان سجيناً أميناً.. فقد توثقت علاقتى به إلى درجة أنى إعتبرته أمين سر وجودى داخل الجدران.. فقد كان هو همزة الوصل بين أسرتى التى تبعث إلينا بالزيارة الأسبوعية وبينى. وكان له معنى مواقف شجاعة.. إذ تحمل فى مرة من المرات تهريب إحدى خطاباتى لأسرتى. ولكن للأسف ضيبت هذا الخطاب وعوقب السجين بسببى.. حيث رفض الاعتراف بأننى أرسلت معه الخطاب.. وهذا السجين كان يعرف كل أفراد أسرتى من كثرة تعامله معهم.

**** .. وهل ترى السجن نقطة سوداء فى حياة المفكر!؟**

– أنا أعتبرها أسود نقطة فى حياة الإنسان.. والمفروض فى السجن أن يكون رادعاً لمن يرتكب جريمة.. ولكن المفكر لا يرتدع بالسجن.. وأسالك: ولماذا ندخل فى الأساس إلى هذا المكان اللعين!؟

وأرجو أن أقول لك أيضا أن أسود نقاط السجن تكون بالنسبة للرجل المظلوم.

**** .. وبشكل عام هل ترى في السجن عقوبة رادعة للحد من الإجرام؟**

— شوف يا أستاذ.. إن الدارسين لعلم النفس الجنائي يرون في السجن مثلما تقول في سؤالك.. ولكن المفروض أن هذا الردع يخضع لعملية نسبية.. كيف!.. أقول لك.. إن القانون بنصوصه موجود منذ بداية حضارة الإنسان.. فهل تمكن هذا القانون من مقاومة الجريمة.. لا أظن؟.

وفي تصوري بالنسبة لأسباب وقوع الجرائم.. أرى ما يراه بعض الفلاسفة الذين شغلتهم هذه الخصوصية كثيرا من حيث أننا لو وفرنا الرفاهية التامة للناس فسوف تقع الجريمة.. وإذا عاش الناس في ضيق أيضا تكثر الجريمة.. وهنا تظهر نظرية النسبية في العقاب والتي حدثت عنها.. فالجريمة إذن مرتبطة بحياة البشر على الأرض.. وبشكل عام لا بد من العقاب الذي يختلف من مجتمع لآخر.. ونشترط ألا يصاحبه تعذيب.

وبالنسبة للمفكرين بوجه عام.. طبعا من العيب أن نزرع بهم مع السفاحين والقتلة ومرتكبي الجرائم الأخلاقية.. وأتمنى ألا تكون هناك عقوبة أو سجن أو اعتقال للمفكر!.. وإذا ما تحولت نظرة المسئولين إلى المفكرين على أنهم مجرمون.. فلا بد أولاً من محاكمتهم أمام محاكم مدنية.. ثم إفساح المجال أمامهم كي يقولوا كلمتهم.. وحتى لو فشلوا في إثبات أنهم ليسوا مذنبين.. وحكم عليهم بالعقوبة.. فلا بد من معاملتهم معاملة تخالف معاملة غيرهم من المجرمين الآخرين. والجرائم كثيرة، ومتنوعة. وأحب أن أسجل لك هنا شهادتي بهذا الخصوص.. إنه رغم السلبيات التي نعيشها وعشنا من خلالها، فإننا أسعد شعوب المنطقة العربية فيما يتعلق بهذه المسألة. فلدينا قدر كبير من الحرية.. وقدر كبير من الكلام.. حتى ولو لم يأخذ به، وهذا يجرتنا إلى موضوع هام وهو كيف نعالج الرأي المعارض بعيداً عن شبح الاعتقال أو السجن. فلكل مفكر حريته فيما يشاء أن يقوله مادام يبعد عن العنف ولا يخرج عن الورقة والقلم.. فالرأي المعارض له أيضا قيمة ولا بد من الاستفادة به.. وليس معنى المعارضة الخصومة..

ولكن حين تخرج هذه المعارضة عن شرعية الأوراق والقلم وتلجأ إلى وسائل أخرى للعنف، فهنا لابد وأن يتدخل القانون- وبحزم - لوقف هذا العنف الذي خرج عن شرعية الفكر، الذي لا ينادى أبداً باستخدام أى وسيلة من وسائل العنف، وأمامنا القنوات التي يمكن أن نعبر من خلالها.. مثل وسائل الإعلام.

**** وما رأى الأستاذ مختار السويفى فى أحوال سجون مصر الآن؟!.**

- أنا حين اعتقلت دخلت مكان اسمه ليمان طره.. وبداخله وضعت فى قسم اسمه قسم الإستقبال.. وكان فى نظرى - وحسب المدة التي قضيتها فيه - من أسوأ الأماكن فى ليمان طره.. ولم أشاهد أماكن داخل هذا الليمان أسوأ حالاً منه.. ولكننى سمعت أن بداخل هذا الليمان أماكن أخرى جيدة.. وبها وسائل معيشة طيبة مثل المراير والبطاطين.

****.. ماذا لو كنتم مأموراً للسجن.. أثناء اعتقال مفكرين.. كيف سيكون تعاملكم مع هؤلاء المفكرين؟!.**

- هو طبعا هذه الحكاية محكمة بلوائح ونصوص.. وأنا كدارس للقانون أرى أن هناك عدة طرق لتفسير هذه اللوائح وهذه القوانين.. وفعلاً لو كنت كما تقول فى هذا المنصب لأخذت الجانب غير الجامد فى تنفيذ هذه اللوائح داخل السجن.. وأنا نفسى كنت أعامل داخل السجن فى أثناء فترة الاعتقال وفقاً لهذه اللوائح، ولكن بتفسير غير جامد ويتسم بالإنسانية من جانب بعض ضباط السجن.. وأقول البعض.. لأن الأغلبية كانت تتمسك بتطبيق هذه النصوص بشكل جامد وقاس.. وبالنسبة للمفكرين كنت سوف أتعامل معهم من هذا المنطلق.. خاصة العامل الإنسانى.. لأننى أتحرك فى حدود اللوائح.

****.. وماذا لو كان الأستاذ مختار السويفى رئيساً للحكومة أو وزيراً للداخلية وعرضت عليه أسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم.. ما هو رد الفعل الذى سيكون لديه؟!.**

- لو كانوا مفكرين ومطلوب القبض عليهم.. فى هذه الحالة أرفض وأصبر.. وأنا أعلم

أنها أوامر عليا تفوق سلطاتي.. وأحاول أن أوصل صوتي بالإعتراض على هذا القرار..
وإذا لم أوفق أستقيل فوراً. وقد يتم تقديم هذه الاستقالة وقبولها سراً.. وقد يشاع
وقتها أنني قد أقلت من منصبى.. إلا أنه فيما بعد سوف يفصح عن مضمونها
وأسبابها.. وعندئذ سيقال.. إن هذا الرجل المسئول قد استقال، لأنه رفض أن يسجن
مفكراً.. وما أقصده هنا مرة أخرى هو المفكر الذى لا يستخدم وسائل العنف لتوصيل
رأيه للناس.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
حكايتي مع السجن - كم مرة دخلت فيها السجن..... ٧	
● الحكاية الأولى: يرويها مصطفى أمين	
تزعمت عصاية من المساجين لتهريب الورق والقلم..... ٢١	
● الحكاية الثانية: يرويها محمود السعدني	
الولد الشقي يكتشف حياة أخرى داخل السجن..... ٢٧	
● الحكاية الثالثة: يرويها دكتور عبد الصبور شاهين	
لم يستطع السجن أن ينزع ما بداخلي من أفكار..... ٥٥	
● الحكاية الرابعة: يرويها الدكتور ميلاد حنا.	
دخلت السجن أستاذاً جامعياً وخرجت منه سياسياً ومفكراً..... ٧٢	
● الحكاية الخامسة: يرويها لطفى الخولي	
اعتقلت ١٢ مرة.. خمس في عهد الملكية والباقي في عهد الثورة..... ٩٢	
● الحكاية السادسة: يرويها جمال الفيضاني	
واكتشفت أن صرخات التعذيب داخل المعتقل.. إسطوانة..... ١١١	
● الحكاية السابعة: يرويها صلاح عيسى	
حكايتي مع السجن بدأت في عهد عبدالناصر..... ١٢٧	
● الحكاية الثامنة: يرويها جمال بدوي	
دخلت المعتقل وخرجت منه أحترم وأقدس حرية الرأي..... ١٤٢	
● الحكاية التاسعة: يرويها مختار السويفي	
بسبب لم أعرفه دخلت السجن ظلوماً..... ١٦١	

رقم الإيداع ٨٩٦٣ لسنة ١٩٩٢
الترقيم الدولي

I.S.B.N

977 — 270 — 040 — 9



حكاييتي مع السجن

كم مرة دخلت فيها السجن .. ولماذا .. ؟
وما هي أحاسيسك ومشاعرك عندما كنت تعيش وراء القضبان ؟ ..
وما رأيك في تجريم الفكر الخالص من شبهة العنف ؟ .. وهل يجوز أن يسجن
المفكر مع المجرمين من اللصوص والقتلة ومرتكبي الجرائم الأخلاقية .. ؟
وما هو تأثير تجربة السجن عليك ككاتب ومفكر ؟ .. وهل ألفت كتباً
وأنت خلف الجدران ، أو ما هي الأفكار التي خرجت بها من هذه
التجربة .. ؟

وما هي أهم الشخصيات التي قابلتها أو تعرفت عليها أثناء وجودك
بالسجن ؟ .. وهل ترى السجن نقطة سوداء في حياة المفكر ؟ .. وما رأيك
في أحوال السجون في مصر ؟ .. وإذا كنت مأموراً لأحد السجون فكيف
تتعامل مع المسجونين بتهمة الفكر ؟ .. وإذا كنت رئيساً للحكومة أو وزيراً
للداخلية وعرضت عليك قائمة بأسماء مفكرين مطلوب اعتقالهم فما هو رد
فعلك وكيف ستصرف .. ؟

هذه نوعية من عشرات الأسئلة المماثلة التي صاغها الكاتب الصحفي
المميز « الأستاذ حنفي الخلاوي » بطريقة ذكية لتسبر الأغوار النفسية
والفكرية لمجموعة من الكتاب والمفكرين المصريين الذين اعتقلوا أو سجنوا
بسبب أفكارهم وكتاباتهم النظرية الخالصة الخالية من أي عنف أو لجوء
لاستخدام القوة ..

أما الإجابات على تلك الأسئلة ، فكانت تختلف باختلاف منهج
وشخصية كل كاتب أو مفكر من الذين يحكون حكاياتهم مع السجن في هذا
الكتاب الممتع .. !

الناشر

٩.٠٠٠



طباعة - توزيع

١٢ شارع حدائق نورت - بيروت ٢٠٢٢٦٦٦٦ - ٢٠٢٢٦٦٦٦ - ٢٠٢٢٦٦٦٦ - ٢٠٢٢٦٦٦٦ - ٢٠٢٢٦٦٦٦ - ٢٠٢٢٦٦٦٦

AL-DAR AL-MESHIAH AL-LUBNANIYAH

PRINTING - PUBLISHING - DISTRIBUTION

14 ABD EL KHALIK BARWAT N. P.O. Box 302-Cairo-Egypt PHONE: 33343-33343 FAX: 33343-33343

To: www.al-mostafa.com